كريم مروّة

الشيوعيّون الأربعة الكِبار في تاريخ لِبنان الحَديث

فؤاد الشمالي فرج الله الحلو

نقولا شاوي جورج حاوي



كريم مروّة

الشيوعيّون الأربعة الكِبار في تاريخ لبنان الحَديث

فؤاد الشمالي فرج الله الحلو
نقولا شاوي جورج حاوي



دار الساقي

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

ISBN 978-1-85516-327-0

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

المحتويات

مدخل

لماذا هذا الكتاب؟

سؤال طرحته على نفسي قبل أن يطرحه عليّ القراء، لا سيما الشيوعيون منهم، سواء كانوا داخل صفوف الحزب، أم كانوا في المواقع التي اختاروها، على تخومه أو على هامشه أو حتى خارج صفوفه.

جوابي الأول عن السؤال هو، ببساطة، أن فكرة الكتاب ولدت بالصدفة. لكن ربّ صدفة، في بعض الأحيان، خير من ميعاد. فما هي قصة تلك الصدفة؟

ربما لا يعرف إلا القليلون من أصدقائي أنني اخترت، منذ أربعة أعوام، كهواية أملأ بها بعضاً من أيام حياتي المتبقية من عمر طال في الزمن، الكتابة عن بعض أعلام القرن العشرين في الثقافة والسياسة، لبنانيين وعرباً وأجانب. وهي هواية منحتني متعة روحية لا حدود لها. وهي متعة شخصية آمل أن تترافق بفائدة ما لمن قرأ، أو سيقرأ، تلك الكتابات عن أولئك الأعلام، أو لمن سيقرأها عندما سأبدأ بإصدارها في سلسلة من الكتب في وقت لاحق.

وفي الواقع فحين شرعت في الكتابة عن القائد الشيوعي فرج الله الحلو، أولاً، ثم عن القائدين الشيوعيين نقولا شاوي وجورج حاوي، وجدت نفسي مشدوداً للكتابة عن قائد آخر للحزب هو فؤاد الشمالي، المؤسس الأول للحزب، الذي مات مظلوماً من رفاقه، مقهوراً، ومنسيّاً، لولا أن أعاد التذكير به محمد

دكروب في سِفره المهمّ عن تأسيس الحزب، «جذور السنديانة الحمراء». وهكذا دخلت، بالصدفة، في عملية استذكار لتاريخ هؤلاء القادة الكبار من شيوعيي بلدي لبنان. وهو تاريخ يشكّل، في جزء مهم منه بالنسبة إليّ، تاريخَ حياتي كشيوعي منذ ستين عاماً. لذلك فإن الكتابة عنهم تتخذ، ولو بالواسطة، شكلاً من أشكال السيرة الذاتية. الأمر الذي يعطي لهذا النوع من الكتابة مُتعةً روحية، ذات طابع شخصي في الدرجة الأولى.

من هنا، بالتحديد، ولدت فكرة تحويل هذه الكتابة عن القادة الأربعة الكبار في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني إلى كتاب يقدّم للقارئ فكرة عامة وضرورية عن الحِقبة التي ولدتْ فيها وتطوّرت الحركة الشيوعية في لبنان. وهي حركة ارتبطت عضوياً بتاريخ لبنان الحديث، منذ أن صار لبنان هو هذا اللبنان الوطن الذي نعيش اليوم في ظله، تواصلاً متدرّجاً ومتطوّراً، ومعقّداً في الآن ذاته، للتاريخ الذي بدأ في عام ١٩٢٠ في ظل الانتداب الفرنسي، وانتهى، عبر الكفاح الوطني الذي كان للروّاد الأوائل من الشيوعيين دور أساسي فيه، بقيام دولة الاستقلال في عام ١٩٤٣. ذلك أن سيرة كلٍّ من هؤلاء القادة الكبار تمثل حقبة من تاريخ الحزب الشيوعي ومن تاريخ لبنان، في الآن ذاته. وكان لكلٍّ منهم، في سيرته، دور في الأحداث الكبرى التي شهدها لبنان على امتداد تلك العقود حتى أيامنا هذه. وهي الأيام التي تضع فيها الأحداث المتسارعة، في داخله وعلى حدوده وفي المنطقة برمّتها، بالإيجابي من هذه الأحداث وتطوّراتها، وبالسلبي وبالصعب منها، تضع بلدنا الجميل على مفترق طرق كبير، سيتحدد في نهايته مستقبل لبنان للحقبة القادمة من تاريخه.

تلك هي الصدفة، التي جاءت خيراً من ميعاد، فولّدت هذا الكتاب. إلا أنني أودّ أن أؤكد أن هذا الكتاب ليس تأريخاً لتلك الحِقب الأربع من تاريخ الحزب الشيوعي ومن تاريخ لبنان. فأنا لست مؤرّخاً، ولا أدّعي ذلك، ولا أملك المؤهلات للكتابة التاريخية. فللتأريخ أصحابه. وأنا لست منهم. وظيفة هذا

الكتاب هي، ببساطة، إلقاء الأضواء على بعض جوانب سيرة هؤلاء القادة الكبار في تاريخ الحركة الشيوعية اللبنانية، مرفقة بإشارات عامة عن مسيرة الحزب في تلك الحِقب المتصلة بأدوارهم، وبإشارات عامة عن بعض الأحداث الكبرى التي شهدها لبنان في تاريخه الحديث. ولم أكن معنياً قط، في المهمة المحددة هذه المتصلة باستحضار أسماء وسيرة هؤلاء القادة، أن أتوقف عند أدوار قادة آخرين وكوادر ونشطاء في الحزب، في مواقعهم المتعددة، في الإيجاب أوفي السلب من مواقفهم، إلا من اقتضت الضرورة التاريخية الإشارة إليهم، من دون افتعال. أقول ذلك اعتذاراً ممن لم ترد أسماؤهم في هذا السياق من السرد لسيرة هؤلاء القادة، لأن السياق ذاته، ووظيفة الكتاب، كما أشرت إلى ذلك، لم تستدعِ المزيد من ذكر أسماء آخرين من قياديي الحزب وكوادره ومثقفيه. وبين هؤلاء من هم أصحاب أدوار كبيرة في تاريخ الحزب وفي تاريخ البلاد.

هذا هو، ببساطة، الجواب عن السؤال الذي بدأت به هذا المدخل: لماذا هذا الكتاب؟

كريم مروّة

فؤاد الشمالي

فؤاد الشمالي، عامل التبغ اللبناني، الموزّعة حياته بين لبنان وفلسطين ومصر، يشكّل، في تاريخ الحركة العمالية والحركة الشيوعية في مصر ولبنان، اسماً تُختصر فيه قصة إنسان مثيرة للدهشة وللاهتمام. إلا أن الأساسي في قصة هذا العامل اللبناني إنما يعود لكونها تقترن بتأسيس الحركة الشيوعية في كل من مصر ولبنان في مطالع عشرينيّات القرن الماضي.

لن أستطيع مجاراة محمد دكروب، مؤلّف كتاب «جذور السنديانة الحمراء» الذي يؤرّخ فيه لولادة الحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٢٤، في الحديث عن فؤاد الشمالي. ذلك أن دكروب قد دخل، عبر الوثائق المتعددة، في تفاصيل سيرة هذا الرجل، من دون أن يترك لسواه المزيد مما يمكن أن يقال بشأنه وبشأن سيرته التي انتهت بمأساة طرده في شكل متعسّف من الحزب الشيوعي الذي أسسه، وذلك بعد أقل من عشر سنوات على تاريخ التأسيس. لن أجاري دكروب في الحديث عن فؤاد الشمالي. لكنني سأتناول سيرة هذا المناضل الكبير من زاوية أخرى، لا تختلف في الجوهر عما جاء في رواية دكروب لهذه السيرة المدهشة، لكنها تكملها في بعض التفاصيل، وفي بعض الاستنتاجات. ولن أستطيع، قبل البدء في الحديث عن الشمالي، إلا أن أشير إلى دوره الريادي في اقتحام صعوبات ذلك الزمن. فهو قد ساهم، في البدء، مع رفاق له من

المصريين واللبنانيين، في تأسيس حركة نقابية عمالية ناضجة في مصر. ثم أسّس بعد ذلك، مع بعضهم، الحزب الشيوعي المصري في عام ١٩٢٣. وبعد إخراجه من مصر بقرار تعسُّفيّ من السلطات وعاد إلى لبنان، ساهم، مع يوسف يزبك وعدد من العمال، في تأسيس نواة الحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٢٤، ثم مع يوسف يزبك وعدد من العمال، في تأسيس حزب الشعب اللبناني في عام ١٩٢٥.

أهمية فؤاد الشمالي، في قراءتي لسيرته، ولسيرة الحزب الشيوعي اللبناني (واللبناني-السوري)، إنما تكمن في الظروف التاريخية التي تكوّنت فيها شخصية هذا العامل الطليعي. لنتذكر أن هذا الحزب قد نشأ وتكوّن في المرحلة التي أعقبت انتهاء الحرب العالمية الأولى. وهي المرحلة التي ولِدت في خِضمّ أحداثها ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا بقيادة لينين. هذا من جهة. أما من الجهة الأخرى فعلينا أن نتذكر أن تلك المرحلة التي سبقت ورافقت نشوب الحرب العالمية الأولى كانت تتميز بأمرين مهمّين مترابطين ومتكاملين موضوعياً: **الأمر الأول** يتمثل ببروز أفكار تنادي بالحرية وبالتقدم وبسيادة المعرفة العلمية وبفصل الدين عن الدولة، وتبشّر بولادة الحركة الاشتراكية. وهي أفكار كان أبطالها يكملون أفكار حركة النهضة التي ولِدت في القرن التاسع عشر. وكان من أبرز حاملي تلك الأفكار الجديدة اللبنانيان شبلي الشميِّل وفرح أنطون، والمصري سلامة موسى، الذي التقى معه فؤاد الشمالي في تشكيل الحزب الاشتراكي المصري في عام ١٩٢١، ثم عاد فاختلف معه ومع آخرين من مؤسسي الحزب، وانفصل عنهم، وشارك مع رفيقيه اللبنانيين الكاتب والصحافي رفيق جبّور والمحامي المدافع عن العمال أنطون مارون، ومع آخرين من أعضاء الحزب الاشتراكي، في تأسيس الحزب الشيوعي المصري في عام ١٩٢٣. **الأمر الثاني** يتمثل بالمؤتمر العربي الأول الذي عُقد في باريس في عام ١٩١٣، ورفع شعار التحرر من السلطنة العثمانية وإقامة الدولة العربية المستقلة، المعبِّرة عن انتماء

الشعوب العربية، القاطنة في الولايات العثمانية في ذلك الحين، إلى تاريخها العربي وإلى ثقافتها العربية. وحضر المؤتمر عدد من كبار الشخصيات السياسية والثقافية التي أتت إليه من لبنان وسوريا والعراق وفلسطين. ولم تكد تقع الحرب العالمية الأولى حتى كان مصير عدد كبير من الذين شاركوا في ذلك المؤتمر معلّقين على أعواد المشانق في بيروت وفي دمشق في عامي ١٩١٥ و١٩١٦ بقرار من جمال باشا السفّاح، بتهمة التواطؤ مع أعداء السلطنة العثمانية خلال الحرب وفي مرحلة الإعداد لها.

هذان الأمران، في الإيجابي منهما المتمثل بالفكر وبالحركة المعبّرين عن الارتقاء في الطموح نحو الحرّية والتقدّم، وبالسلبي منهما المتمثل بالانكسارات وبالهزائم، هما اللذان هيّآ موضوعياً لولادة الحركة الشيوعية، في فلسطين أولاً (١٩١٩)، ثم في مصر وفي لبنان وسوريا، في فترة لاحقة

إلا أنني، في الوقوف عند هذين الأمرين الحدثين، إنما أرمي، على وجه الخصوص، إلى وضع الحدث المتمثل بتأسيس حزب شيوعي في لبنان في ظرفه التاريخي المتعدد الأبعاد، وليس خارج هذا الظرف ولا خارج تعدُّد أبعاده. ذلك أن التفسير الأحادي الجانب لنشوء حزب شيوعي، المتمثل بالقول إنه تم فقط وحصراً بتأثير مباشر من ثورة أكتوبر، فيه شيء من الإسقاط الأيديولوجي على حدث كانت لحدوثه أسباب ومكوّنات ووقائع وتطوّرات أوسع من دائرة الحدث العظيم المتمثل بثورة أكتوبر، وسابقة عليه. وفي هذا الزعم الذي أسوقه حول المؤثّرات الخارجية التي ساهمت في نشوء الحزب الشيوعي، لا أريد على الإطلاق أن أقلّل من التأثير الكبير المباشر لثورة أكتوبر في التسريع بنشوء هذا الحزب. بل إنني، على العكس من ذلك، أودّ أن أذكّر، في هذا المجال بالذات، بأن عدداً من الثورات قد انفجر في تلك الفترة بتأثير مباشر من ثورة أكتوبر ومن الشعارات التي أطلقتها، وبتأثير من القرارات التي اتخذها مؤتمر شعوب الشرق في عام ١٩٢١ الذي دعا إليه وترأّسه لينين، بعد انتهاء الحرب

الأهلية في روسيا. فقد كان ذلك المؤتمر بالذات بمثابة الشرارة التي أشعلت حركات وطنية تحررية لدى شعوب الشرق التي كانت ترسف تحت نير عبوديات خارجية وداخلية. إذ رأت تلك الحركات في ثورة أكتوبر، وفي انتصارها، وفي الأفكار التي بشّرت بها، وفي الشعارات التي أطلقتها دفاعاً عن حق الشعوب في تقرير مصائرها بحرية، وعن حقها في اختيار طرائق تطوّرها وتقدّمها خارج أي تدخّل خارجي، رأت تلك الحركات في ثورة أكتوبر قوة دعم لها في نضالها من أجل الحرية.

وكانت شعوب المشرق العربي (سوريا ولبنان والعراق وفلسطين والأردن) في حالة ثورات وانتفاضات متواصلة للمطالبة بالحرية وبالاستقلال عن السلطنة العثمانية. وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب العالمية على أبواب نهايتها وقّعت الدول الاستعمارية، قبل إعلان انتصارها في الحرب، اتفاقاً يقضي بتقاسم الولايات العربية المشرقية في السلطنة العثمانية المنهارة بينهم. وهو الاتفاق الذي صار معروفاً باتفاق سايكس-بيكو. وما أن انتهت الحرب وتشكلت في أعقابها عُصبة الأمم في عام ١٩١٩ حتى تحوّل هذا الاتفاق إلى قرار دولي قضى بوضع هذه البلدان، وفق اتفاق سايكس-بيكو، تحت الانتداب (سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين وشرقي الأردنّ تحت الانتداب البريطاني). وكان التبرير الرسمي لوضع هذه البلدان تحت الانتداب «تأهيلها» وإعدادها للانتقال في مرحلة لاحقة إلى الاستقلال! ومعروف أنه كان إلى جانب كل من سايكس البريطاني وبيكو الفرنسي ممثل لروسيا في ذلك التقاسم. الأمر الذي أتاح للينين، بعد انتصار ثورة أكتوبر وانفصال روسيا عن حلفائها في الحرب، أن يكتشف المؤامرة المتمثلة بذلك الاتفاق ويفضح أهدافه وأهدافها الحقيقية، وأن يُخرج روسيا من ذلك التقاسم الاستعماري لبلدان المشرق العربي. ويشير يوسف إبراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوّار» إلى العلاقة التي نشأت في ذلك الحين بين لينين وإبراهيم هنانو، زعيم انتفاضة حلب في عام ١٩٢٠، الانتفاضة التي

قامت ردّاً على هزيمة الجيش العربي في معركة ميسلون التي قادها يوسف العظمة واستُشهد فيها. وكان من نتائج تلك الهزيمة انهيار مشروع قيام دولة عربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، عاصمتها دمشق. وتمثلت علاقة هنانو بلينين، كما يشير إلى ذلك يزبك، بالمراسلات بينهما حول تلك الانتفاضة وحول دعم ثورة أكتوبر لها ولكل الانتفاضات والثورات المماثلة لها. ويورد يزبك تفاصيل مدهشة حول الحوارات التي جرت بين هنانو ولينين.

والجدير بالذكر، إضافة إلى ما أشرت إليه من المؤثّرات الخارجية في الفكر وفي الثقافة التي ساهمت في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، أن أفكار الثورة الفرنسية كانت في تلك المرحلة ذات تأثير كبير في أوساط المثقفين الطامحين إلى الحرية والتقدم في بلداننا. وكان من أبرز هؤلاء المثقفين في لبنان يوسف إبراهيم يزبك، أحد المؤسّسين الأوائل للحزب الشيوعي وأول أمين عام له. وقد دلّت على ذلك كتاباته في السنوات التي سبقت تشكيل الحزب، ابتداءً من عام ١٩٢٢. إذ كانت كتاباته تملأ الصحف الصادرة في تلك الفترة، وأهمّها جريدة «الصحافي التائه»، التي كان يُصدرها إسكندر الرياشي بعد عودته من جولات شملت العديد من بلدان العالم. كانت كتابات يوسف يزبك تشيد بأفكار الثورة الفرنسية وبالأفكار الاشتراكية. وكان يوقّع تلك المقالات باسم مستعار هو «الشبح الباكي».

كان فؤاد الشمالي إذن، في الدور الذي اضطلع به في تشكيل الحزب الشيوعي اللبناني، بعد عودته من مصر مطروداً منها إثر إسهامه في تشكيل الحزب الشيوعي المصري، كان ابن تلك المرحلة بامتياز. كان ابن ظروفها السياسية والفكرية، وابن التحولات الكبرى التي كانت تجري فيها. وكان، بوعيه لتلك الظروف وبإدراكه لمدلولاتها، أكثر تقدماً من بعض زملائه في الحركة العمالية في مصر وفي لبنان، وشريكاً لبعضهم، من أمثال رفيق جبّور وأنطون مارون في مصر ويوسف يزبك في لبنان، في إدراك الأبعاد التاريخية لمشروعهم المتمثل بتأسيس

حزب شيوعي، حتى في الجانب اليوتوبي من هذا المشروع. ولعلّي لا أغالي إذا ما قلت بإن الشمالي كان أكثر تقدماً في فهم تحولات تلك المرحلة من عدد من مثقفي بلده لبنان، على وجه التحديد، بمن فيهم رفيقه الأول يوسف إبراهيم يزبك، لا سيما في المرحلة التي تلت التأسيس. وهو أمرٌ يُقرّ به يزبك في حديثه عن المرحلة التي رافقت وأعقبت تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. وكان الشمالي في إسهامه في تشكيل نقابات عمالية في لبنان، بعد عودته من مصر، مدركاً لدور تلك النقابات في إدخال الوعي في صفوف العمال، باتجاه الاشتراكية.

وِلد فؤاد الشمالي في عام ١٨٩٤ في بلدة «السهيلة» في منطقة كسروان في جبل لبنان. تلقى دروسه الابتدائية في مدينة «بيسان» في فلسطين حيث كان والده يعمل مترجماً في شركة السكك الحديدية هناك. انتقلت العائلة بعد وفاة الوالد إلى مدينة القاهرة في مصر. فتابع فؤاد دراسته في مدارسها. لكنه انتقل من الدراسة إلى ممارسة العمل وهو في السادسة عشرة من عمره. وكما يقول هو في كتابه «نقابات العمال» فإنه بدأ حياته عاملاً منذ نعومة أظفاره. وكان في الثانية والعشرين من عمره عندما انضمّ إلى الحركة النقابية. وكان، في المرحلة التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى، قد بدأ العمل في معمل للسجائر في القاهرة. ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة الإسكندرية ليشتغل عاملاً في معمل للسجائر كذلك. وقد كانت تجربته في كل من القاهرة والإسكندرية شديدة القسوة عليه. وأشار إلى ذلك في كتابه «نقابات العمال». وهو، إذ اختار هذا الكتاب ليحكي قصة الظلم والمعاناة اللذين عاشهما كعامل، فإنه كان يريد أن يستخلص من ذلك دعوة العمال إلى الانتظام في نقابات تدافع عن حقوقهم. وهو لذلك يشرح في هذا الكتاب أصول العمل النقابي ووظائفه وأهدافه. وهو مؤلَّف يتخذ صيغة كتاب تثقيفي مهني موجّه إلى العمال ليكون دليلاً لهم في عملهم النقابي. وكانت الإسكندرية في تلك الفترة التي انتقل فيها الشمالي إلى العمل حافلة بالإضرابات

العمالية. وكان لعمال التبغ دور مركزي في تلك الإضرابات. وكانت تلك الإضرابات تترافق مع تحركات سياسية كانت تدعو لها الأحزاب السياسية في مواجهة السلطات البريطانية. ومن المعروف أنه كانت قد تأسست في عام ١٨٩٩ أول نقابة للعمال في مصر، من عمال التبغ. وكان من أوائل نشاطاتها الإضراب الذي قامت به بعد تأسيسها واستمر عاماً كاملاً.

يذكر محمد دكروب في كتابه «جذور السنديانة الحمراء»، نقلاً عن كتاب عبد المنعم غزالي «تاريخ الحركة النقابية المصرية (١٨٩٩-١٩٥٢)»، بعض المعلومات التاريخية التي تشير إلى تعاظم دور الحركة العمالية في تلك الفترة في مصر، واندماجها في الحركة السياسية، التي قادت إلى ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول. ويقول غزالي في كتابه إن عدد الإضرابات بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢١ بلغ واحداً وثمانين إضراباً من بينها ٦٧ إضراباً عاماً وأربعة عشر إضراباً جزئياً.

كان فؤاد الشمالي واحداً من قادة تلك الحركة العمالية في الإسكندرية، في المرحلة التي أعقبت ثورة سعد زغلول. بل هو أسّس مع بعض زملائه العمال من الجالية اللبنانية والسورية حزباً عمالياً. وكان عضواً قيادياً في الاتحاد المصري للعمال، الذي كان مركزه في القاهرة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية التي أصبحت المركز الأساسي للحركة النقابية. وكان يشارك الشمالي في قيادة الحركة النقابية وفي معاركها عدد من اللبنانيين، كان أبرزهم الكاتب والصحافي رفيق جبّور والمحامي أنطون مارون، والعاملان أديب قشعمي ونجيب الشمالي. إلا أن فؤاد الشمالي لم يكتف بنشاطه في الحركة العمالية وفي تأسيس نقاباتها واتحاداتها. بل هو شارك مع رفيقيه رفيق جبّور وأنطون مارون ومع عدد من الوجوه الاشتراكية في مصر، بينهم سلامة موسى ومحمد عبدالله عنان وحسني العرابي، في تأسيس «الحزب الاشتراكي المصري» في عام ١٩٢١. إلا أن هذا الحزب سرعان ما انقسم. إذ انفصل عنه عدد ممن كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر راديكالية في فهم الاشتراكية وفي الانتماء إلى أفكار ماركس، وأكثر راديكالية في

العمل لتحقيق الأهداف التي تؤمن بها الاشتراكية وتدعو إلى تحقيقها، فأسّسوا الحزب الشيوعي المصري. وكان أنطون مارون محامياً مرموقاً في ذلك الحين. وتأكيداً منه على الالتزام بقضايا العمال، ووفاء لانتمائه إلى الاشتراكية وإلى أفكارها، حوّل عمله في المحاماة حصراً للدفاع عن العمال. فأثارت دفاعاته عن العمال غضب السلطات، فألقت القبض عليه وأودع السجن. ثم لم يلبث أن مات في غياهب سجنه، وهو في حالة إضراب عن الطعام. أما فؤاد الشمالي فقد قررت السلطات طرده من مصر، بعد أن كانت قد كررت تحذيره من ممارسة نشاطه السياسي، ولم يرتدع. وبقي رفيق جبّور في مصر يتابع عمله الفكري والسياسي في ميدان الصحافة.

عاد الشمالي، إذن، إلى لبنان في عام ١٩٢٣. وانخرط على الفور في الحركة العمالية، من خلال وجوده عاملاً في أحد معامل التبغ في بكفيّا. وكان من أولى إنجازاته إسهامه في تأسيس نقابة عمال الدخان مع عدد من رفاقه، في مقدمتهم فريد طُعمة وبطرس حشَيمة. لكن ذلك النشاط لم يكن سوى البداية في الرحلة التي جعلت منه أحد أبطال مرحلة تاريخية هامة في حياة لبنان، بعد أن كان قد تحوّل هذا البلد من «لبنان الصغير»، لبنان المتصرفية، إلى «لبنان الكبير» الذي ساهم الانتداب الفرنسي في تشكيله. وهو لبنان الحالي، لبنان الاستقلال، بحدوده الجغرافية، وبمكوناته الاجتماعية.

كان الشمالي قد تكون في مصر كقائد شيوعي. لذلك فقد كان همّه الأول هو أن ينقل تجربته من مصر إلى تجربة في لبنان كانت شروط النجاح فيها متوفرة أكثر من مصر. ويقول في كتابه «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية-اللبنانية» إن رفاقه في الحزب الشيوعي المصري كلّفوه مهمة العمل على تأسيس حزب شيوعي في بلده لبنان. وصادف أن التقى، وهو يغادر الباخرة التي أقلّته من الإسكندرية إلى مرفأ بيروت، المثقف الاشتراكي يوسف إبراهيم يزبك، الذي كان يعمل موظفاً في المرفأ. وتعارف الاثنان. واتفقا على أن يلتقيا. ثم حين

التقيا بعد ذلك، اتفقا مع عدد من العمال على عقد اجتماع في منزل جدّ يزبك لوالدته عبدالله الشدياق في بلدة الحدث، ليؤسّسوا معاً نواة الحزب الشيوعي اللبناني. وكان ذلك في الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٢٤.

وحكاية التأسيس هذه أصبحت معروفة. كما أصبحت معروفة الملابسات التي رافقت التأسيس، والروايات التي تتحدث عن الظروف والأسماء وسوى ذلك من الأمور المتصلة بالتأسيس. وقد أشار إلى ذلك دكروب في كتابه «جذور السنديانة الحمراء». وأشار إليه يوسف إبراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوّار في لبنان وفي العالم». ونقتطف من كتاب يزبك الفقرة المتصلة بهذا الحدث بالنص: «... **وفي الاجتماع قرّرنا بالإجماع تأسيس الحزب الشيوعي في لبنان الكبير. وبالإجماع وبالإلحاح نادى بي الأخوان أميناً عاماً للحزب. وعبثاً اعتذرت وتهرّبت، وقلت بأن يكون الرفيق فؤاد هو الأمين العام وأكون مساعداً له، فما أصغوا إليّ ولا وافقوا على طلبي. وكان أشدّهم حماسة لاختياري أميناً عاماً الرفيق الشمالي الذي نهض وقبّلني مهنّئاً و''فرحته رطل''**». ويشير يزبك في مكان آخر من الكتاب في توصيف صيغة الحزب بالقول، مكملاً فكرة سابقة: «... **قلت أول حزب عربي بحت لكونهم جميعهم لبنانيين عرباً، أسّسوه حزباً قيادته لبنانية عربية، وإرادته لبنانية عربية، وعقله لبناني عربي. وهو ما لم يكن في فلسطين، ولا في مصر، حيث بدأت الشيوعية في القطرين الشقيقين حركة رآها المواطنون أجنبية المنبت، جنساً وديناً وطبقة**».

ويشير يزبك في مكان آخر من الكتاب إلى حزب الشعب الذي تأسس في عام ١٩٢٥ بالنص: «**وكانت لنا قاعدة عمالية نختبئ وراءها ونستتر بها اسمها "حزب الشعب اللبناني". وهو حزب ألّفناه من الطبقة العاملة وحدها غطاء لحقيقتنا. وأبدى أمينه العام فؤاد الشمالي ورفيقاه فريد طُعمة وفارس معتوق نشاطاً كبيراً في ضمّ كثيرين من رفقائهم عمال التبغ إليه من معامل بكفيا**

والشوير والخنشارة والشياح، وما إليها». ثم يتحدث يزبك عن احتفال أول أيّار/مايو في عام ١٩٢٥ الذي دعا إليه حزب الشعب قائلاً: «.. **وتبنّينا رأي الأستاذ نمر هبه (المحامي) وقدمنا طلباً باللغة الفرنسية كتبه الأستاذ هبه بخطه، آية في التهذيب، إلى حاكم دولة لبنان الكبير(اسمه مسيو كايلا) نسأله إجازة للعمل. ووقّع على الطلب يوسف إبراهيم يزبك والياس سرور ومخايل داود أبي حنا وفارس معتوق والياس قشعمي وبطرس حشيمة وفريد طعمة وبشارة كامل»**. ويقول يزبك إنه جرى الاتفاق على عدم ذكر اسم فؤاد الشمالي بين الأسماء لئلا يشكّل ذلك سبباً في عدم الحصول على ترخيص.

لكنّ لفؤاد الشمالي رواية مختلفة عن رواية يزبك المتصلة بتأسيس الحزب الشيوعي. ويشير إلى ذلك في كتابه «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية-اللبنانية» الذي نشر الجزء الأول منه في جريدة «العواصف» في عام ١٩٣٦. وعثرنا عليه في كتاب أعدّه محمد كامل الخطيب يتضمن بعض ما كتب الشمالي. ويشير الخطيب إلى أن الجزء الثاني من الكتاب مفقود. يقول الشمالي في كتابه الآنف الذكر:

> **«... وبعد تأسيس النقابة عملت على تأسيس حزب سياسي للطبقة العاملة. فتأسس «حزب الشعب اللبناني» الذي انتخبت سكرتيراً عاماً له، والذي أصبح له فروع في أنحاء لبنان بوقت قصير... وبعد تأسيس حزب الشعب أخذت أنتقي من أعضائه أشد العمال نهوضاً وتثقيفاً وحماسة وأُفهم كلاً منهم، على حِدة، أني مكلّف تأسيس حزب شيوعي، وأن البعض من الأخوان أصبحوا مستعدين لتأسيس الحزب. ولم أزل أعمل بينهم إلى أن أصبح عددهم عشرة رفاق في بكفيا. فعقدنا الاجتماع الشيوعي اللبناني الأول في منزلي، حيث تقرر ما يلي:**

١- اعتبار الحزب الشيوعي اللبناني قد تأسس من الحاضرين.

٢- انتخابي سكرتيراً، وانتخاب الرفيق بطرس حشَيمة أميناً للصندوق.

٣- على أعضاء الحزب أن يبذلوا جهودهم للاستيلاء على القيادة في «حزب الشعب» وفي نقابة عمال الدخان.

٤- على الرفاق أن ينشروا دعاية واسعة لاكتساب رفاق جُدد. ولا يمكن قبول العضو الجديد إلا بقرار تصدره أكثرية أعضاء الحزب في اجتماع نظامي.

٥- على السكرتير أن يكتب إلى أحد فروع الكومنترن للاتصال به والحصول منه على نسخة من القانون العام للأحزاب الشيوعية وعلى المطبوعات والمساعدات الأدبية والمادية الممكنة.

٦- على كل عضو أن يدفع ربع ليرة سورية اشتراكاً شهرياً إلى صندوق الحزب.

٧- أن يبقى الأعضاء العشرة المؤسسون على رأس الحزب بشكل (لجنة إدارية مؤسسة) إلى أن يصبح للحزب فروع في أنحاء لبنان ويعقد ممثلوها أول مؤتمر، فتنتهي عندئذ المهمة الإدارية التي للأعضاء المؤسّسين حيث ينتخب المؤتمر لجنة الحزب المركزية.

٨- يعقد أعضاء الحزب اجتماعاً أسبوعياً لبحث الشؤون المتعلقة بحزب الشعب وبنقابة عمال الدخان، واتخاذ القرارت اللازمة لتسييرهما طبقاً للخطط التي يقررها أعضاء الحزب الشيوعي، ويعقدون اجتماعاً أسبوعياً آخر لاستماع محاضرات يلقيها سكرتير الحزب عن المبادئ الشيوعية... وانفضّ الاجتماع في الساعة الثانية من صباح ٢ أيلول سنة ١٩٢٤...».

ثم يعود الشمالي ليروي في مكان آخر في الكتاب أن يوسف يزبك استدعاه إلى اجتماع في فندق أوروبا في بيروت وجمعه بمندوب الحزب الشيوعي الفلسطيني جوزيف برغر، ليطلب منه حضور الاجتماع الذي سيؤسَّس فيه الحزب الشيوعي. فأخبره الشمالي بأن اجتماع التأسيس قد حصل في بكفيّا، وفق الرواية التي أشرنا إليها. فأصرّ يزبك عليه أن يحضر الاجتماع التأسيسي في الحدث بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر بحضور عشرين شخصاً، أكثرهم من المحامين والمهندسين والصحفيين. ولم يكن بينهم سوى اثنين من العمال، كان أحدهما الشمالي ذاته والثاني كان عاملاً فلسطينياً من مرافقي جوزيف برغر. ويقول الشمالي إن اجتماع الحدث أغضب شيوعيي بكفيا، بسبب تجاهل اجتماعهم، فتمرّدوا، وانسحب سبعة منهم من الحزب، وبقي ثلاثة فقط.

إلا أن ما ورد في حديث الشمالي يشير إلى التباس آخر يتعلق بتأسيس «حزب الشعب». إذ يُفهم من كلامه أن هذا الحزب تشكّل قبل تأسيس الحزب الشيوعي. ويشير إلى ذلك الشمالي بصورة غير مباشرة من خلال روايته لبعض أحداث متعلقة بانضمام الشيوعيين تباعاً إلى صفوف «حزب الشعب»، أي قبل أن يتم تكريس الحزب الشيوعي، بواسطة مندوبي الحزب الشيوعي الفلسطيني الذين أرسلهم الكومنترن للمساعدة في تأسيس الحزب.

وهناك تفاصيل مذهلة حول هذا الموضوع تحدّث عنها الكتاب الذي أصدره وحققه وقدّم له ماهر الشريف «فلسطين في الأرشيف السرّي للكومنترن». فقد ورد في هذا الكتاب ما يشير بوضوح إلى دور الكومنترن، عبر الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان يقوده شيوعيون يهود، في المرحلة الأولى من تأسيس الحزب اللبناني، التي استمرت لعدة سنوات. وكان الحزب اللبناني في ذلك الحين، وفق ما يشير إليه كتاب الشريف، فرعاً للحزب الشيوعي الفلسطيني في لبنان، إلى حين قبوله رسمياً عضواً في الأممية الشيوعية، وفق شروطها المعروفة، وعددها واحد وعشرون شرطاً. وأصبح بعد انضمامه إلى الكومنترن

مستقلاً عن الحزب الشيوعي الفلسطيني. وكان ذلك في المؤتمر السادس للكومنترن الذي عُقد في موسكو في عام ١٩٢٨.

لنترك هذه الالتباسات حول ظروف تأسيس الحزب ولندخل في صلب الموضوع. وفي الواقع فإن تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني الذي شاركت فيه تلك الكوكبة الصغيرة من العمال ومن المثقفين وفي طليعتهم فؤاد الشمالي ويوسف يزبك، لم يكن سوى البداية التي تشير إلى الطريق الطويل في تاريخ الحزب. ومن أهم ما يشير إلى وعي متقدم لدى المؤسسين، وربما لفؤاد الشمالي أكثر من سواه، هو أن هؤلاء الروّاد الطليعيين قد أدركوا، منذ البداية، أن عليهم أن يراعوا ظروف بلدهم السياسية والاجتماعية. وتتمثل هذه الظروف أولاً بكون لبنان كان يخضع في تلك المرحلة للانتداب الفرنسي. كما تتمثل في كون الطبقة العاملة في لبنان ضعيفة، وبأن التقاليد مسيطرة على المجتمع، وبأن الدخول إلى هذا الواقع من أجل تغييره باسم حزب شيوعي سيواجه صعوبة كبرى. لذلك اختار المؤسسون أن ينشئوا حزباً آخر يشكّل غطاء لنشاطهم السياسي هو «حزب الشعب». وجاء تأسيس هذا الحزب الجديد فورياً. وأصدر جريدة «الإنسانية» التي رأس تحريرها يوسف يزبك، لكنها أُغلقت في العام الأول من صدورها. ثم أصدر الحزب جريدتين عماليتين هما «صوت العمال» و«العمال» ولم تعيشا طويلاً. إلا أن أول عمل علني قام به «حزب الشعب» هو إقامة احتفال بعيد أول أيّار/مايو، عيد العمال العالمي في عام ١٩٢٥. وقد أبدع دكروب في وصف هذا الحدث في كتابه الآنف الذكر، ووصف تفاصيل الإعداد له ووصف الكلمات التي ألقيت فيه، وتوغّل عميقاً في ثنايا الحدث، وفي تاريخ كل من شارك فيه من الخطباء ومن الوجوه الثقافية والسياسية التي حضرت الاحتفال، وفي ردود الفعل على الاحتفال في وسائل الإعلام كحدث جديد من نوعه يشهده لبنان. ويلتقي دكروب مع يوسف يزبك في تقدير دور فؤاد الشمالي في ذلك الحدث، وفي اعتباره نجم ذلك الاحتفال.

لنقرأ فقرات من خطاب الشمالي في ذلك الاحتفال:

«... نحن في العالم كلّ شيء فيجب أن يكون لنا كل شيء. ولكن متى يكون للشعب صوت وللعمال إرادة؟ إن ذلك يكون حين يوحّد الشعب كلمته وينظّم العمال صفوفهم. وبمعنى آخر حين يتّحد المجموع في سبيل مصلحة المجموع. فالاتحاد إذن هو الضالّة المنشودة. ولكن كيف نتّحد ومتى يكون اتحادنا صحيحاً خالياً من الشوائب؟ الجواب على ذلك هو أنه يجب أن نتحد بالنقابات. فعلى كل عامل منا أن يسرع بالانضمام إلى نقابة تضم أبناء صناعته وحِرفته حتى يصبح لكل صناعة نقابة ولكل حرفة نقابة. ثم تجتمع جميع النقابات فتتفاهم وتتفق كلمتها على الاتحاد العام، فيتقرر تأليف نقابات العمال. فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة نكون قد وضعنا الحجر الأساسي لنبني عليه حياتنا المقبلة، أي الحرية الصحيحة. فالخطة بسيطة سهلة التنفيذ، أيها الرفاق».

هذه المقدمة التي توقفت عندها لا تستكمل وظيفتها إلا إذا أضفنا إليها ما جاء في كتاب ماهر الشريف حول المهمات التي وضعتها الأممية الشيوعية أمامها لدى تأسيسها بعد عامين من انتصار ثورة أكتوبر، أي في عام ١٩١٩. فقد جاء في قرارات المؤتمر الثاني للأممية الذي عُقد في عام ١٩٢٠، كما نقلها ماهر الشريف في كتابه المذكور:

«ضرورة أن يتبنّى كل حزب يودّ الانتساب إلى الكومنترن اسم: "الحزب الشيوعي في ... فرع الكومنترن". والكومنترن هو الذي يصادق على برامج فروعه المختلفة، ويحلّ القضايا الأساسية المتعلقة ببرنامج الكومنترن وتكتيكاته، ويقرر عدد الأصوات التي تعود إلى كل فرع ومعايير التمثيل في المؤتمر العالمي، وذلك بالاستناد إلى

حجم العضوية وإلى أهمية البلد. وهو الذي ينتخب اللجنة التنفيذية، التي تشرف على نشاط الكومنترن وفروعه في الفترة الواقعة ما بين مؤتمرين، ويحدد مقرّها. كما قرر المؤتمر إصدار مجلة مركزية بأربع لغات على الأقل، وبإصدار بيانات، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وأن يكون من صلاحياتها إعطاء توجيهات إلى قيادات فروعها، وتشكيل مكاتب مساعدة في البلدان المختلفة. كما أوصى المؤتمر نفسه بأن تقوم الدوريات الشيوعية التي تصدرها الفروع بنشر كل بيانات اللجنة التنفيذية ومقرراتها، وأن تنضم اتحادات الشبيبة الشيوعية، التابعة لها، إلى كومنترن الشباب، وأن تشكل الاتحادات النقابية، الخاضعة لنفوذها، فروعاً نقابية تابعة للكومنترن. كما جرى في المؤتمر الرابع المنعقد في عام ١٩٢٢ التأكيد على ضرورة تحويل الكومنترن إلى حزب شيوعي عالمي وعلى أهمية التزام كل فرد له بانضباط صارم في تنفيذ مقررات مؤتمراته العالمية ولجنته التنفيذية. وكان المؤتمر العالمي الثاني قد أقر الشروط الواحدة والعشرين للانتساب إلى الكومنترن، ومنها أن يخضع برنامج كل فرع إلى مصادقة المؤتمر العالمي أو اللجنة التنفيذية، وأن يكون النشاط التحريضي لكل فرع ودعايته متوافقين مع برنامج الكومنترن ومقررات لجنته التنفيذية، وأن يقوم البناء التنظيمي لكل فرع على قاعدة المركزية الديمقراطية، وأن يلتزم كل فرع بتنفيذ مقررات المؤتمر العالمي واللجنة التنفيذية للكومنترن. أما المؤتمر السادس الذي عقد في عام ١٩٢٨ فقد كرّس سيطرة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، بزعامة ستالين، على مركز القرار في اللجنة التنفيذية للكومنترن، وضيّق، إلى أقصى الحدود، هامش المبادرة الذي كانت تتمتع به الفروع المحلية في البلدان المختلفة».

لهذه الإشارات التي أوردتها حول علاقة الأحزاب الشيوعية بالكومنترن أهميتها الخاصة في ما يتعلق بالمراحل اللاحقة من حياة الحزب الشيوعي اللبناني، التي صار فيها فؤاد الشمالي الأمين العام للحزب، بعد خروجه من المعتقل في عام ١٩٢٨. وجرى انتخابه إلى هذا الموقع في اجتماع موسّع للجنة المركزية اتخذ صفة كونفرانس. وبصفته تلك شارك الشمالي في المؤتمر السادس للكومنترن المشار إليه. وأعلن انضمام الحزب الشيوعي إلى الأممية - فرع سوريا، متحرراً من ارتباطه العضوي بالحزب الفلسطيني. واللافت للنظر هنا هو أن الحزب الذي تأسس في لبنان سرعان ما تحوّل من حزب لبناني إلى حزب سوري، رغم أن خلايا الحزب في المدن السورية تأخرت ولادتها إلى ما بعد النشوء ببضع سنوات. وربما يكون السبب في ذلك أن الشعار العام في تلك الحقبة لدى الوطنيين اللبنانيين كان الدعوة إلى الوحدة السورية، استمراراً لما كان معدّاً له لدى وصول الأمير فيصل إلى دمشق في عام ١٩٢٠ وإعلان قيام الدولة العربية. وهي الدعوة التي واجهتها سلطات الانتداب الفرنسي بالقمع. وكان من آخر فصولها هزيمة جيش الأمير فيصل في معركة ميسلون، ثم فرار الأمير فيصل ذاته إلى لندن، ليصبح بعد ذلك بعام ملكاً على العراق (١٩٢١) بقرار من الإنكليز اتخذ في مؤتمر عقد في القاهرة في ذلك التاريخ، وهو قرار كان أشبه بالصفقة السياسية التي أنهى بها الإنكليز ثورة العشرين في العراق، التي كانت موجهة ضدهم، مطالبة بالاستقلال. واتخذت ولادة الدولة العراقية الأولى صيغة نظام ملكي، وملك من الأسرة الهاشمية، الصيغة التي أرضت العراقيين من الطائفتين السنّية والشيعية.

عاد الشمالي من المؤتمر السادس للكومنترن حاملاً إلى الحزب قرارات المؤتمر وتوجّهاته. وصدر في ذلك التاريخ بالذات بيان عن الحزب دعا إلى تشكيل «حكومة عمال وفلاحين». فقد كان الشعار الذي أطلقه المؤتمر السادس للكومنترن يتمحور حول «طبقة ضد طبقة»، بما يعني ضرورة أن يكون نضال الطبقة العاملة نضالاً صافياً خالياً من أي أثر للبرجوازية ولشعاراتها فيه. وقد كان

لذلك الموقف الانعزالي أثر كبير في تراجع دور الحزب في نضالاته الأولى التي كانت قد حرّكت جماهير العمال والفلاحين في إضرابات ناجحة، رغم ما واجهته تلك الإضرابات من قمع ومن اعتقالات، شملت فؤاد الشمالي ذاته. وكانت أهم تلك النضالات المظاهرة التي نظمها الحزب دفاعاً عن المستأجرين في عام ١٩٢٥، وقُمعت من قِبل السلطات، ووقع فيها قتلى وجرحى. وكان ذلك الموقف المتمثل بذلك الشعار الانعزالي (حكومة العمال والفلاحين) يتعارض، في المسألة الوطنية، مع ما كان الحزب قد بادر إليه عند انفجار الثورة السورية في عام ١٩٢٥ بإعلان تضامنه معها، وحشد التأييد الوطني والعالمي لها. وهو ما تمثّل باللقاء الذي جمع فيه فؤاد الشمالي كلاً من علي ناصر الدين ممثل الثورة السورية والمحامي يوسف السودا، الشخصية اللبنانية المعروفة، مع ممثل الكومنترن، مندوب الحزب الشيوعي الفلسطيني جوزيف برغر، الذي كان يزور لبنان في عام ١٩٢٥. وكان من بين أشكال النشاط التي قام بها الحزب تأييداً للثورة توزيع بيانات في صفوف الجنود الفرنسيين تحضّهم على التمرّد على قرارات قيادتهم والامتناع عن مقاتلة الثوّار. وقد اعتقلت السلطات الفرنسية كلاً من فؤاد الشمالي وآرتين مادايان وأعضاء آخرين من قيادة «حزب الشعب»، مع عدد من أركان الثورة السورية وأصدقائها، بينهم علي ناصر الدين. وكان ذلك في آخر عام ١٩٢٥. في تلك الفترة من الصعوبات التي واجهت الحزب، غادر يزبك لبنان إلى فلسطين ثم إلى فرنسا وابتعد عن العمل الحزبي، دون أن يفقد علاقته مع رفاق الأمس. ولم تفرج سلطات الانتداب عن قياديي «حزب الشعب» إلا بعد إصدار قرار بالعفو عن زعماء الثورة السورية في عام ١٩٢٨. فخرجوا من سجن قدموس مع زعماء الثورة.

هذا النمط من العلاقة العضوية بين الحزب الشيوعي اللبناني والمركز الأممي، أسوة بما كان عليه الحال في الأحزاب الشيوعية كلها، هو الذي حدّ من تطوّر مبادرات الحزب في اتخاذ مواقف مستقلة، نابعة من ظروف البلد. إلا أن

ذلك لم يمنع الحزب بقيادة فؤاد الشمالي من اتخاذ مواقف سياسية جريئة تتعلق بالتمسك بالاستقلال الوطني وبالتحرر من السيطرة الاستعمارية وبالاستمرار في الدفاع عن مصالح العمال والفلاحين والفئات الشعبية. وهو ما تشير إليه بوضوح بيانات الحزب التي حملت تلك القضايا.

استمر فؤاد الشمالي في موقع الأمين العام للحزب حتى عام ١٩٣٢. وكان يُجدَّد له في الاجتماعات الدورية التي كانت أشبه بالكونفرانسات. وكان كل اجتماع حزبي من ذلك النوع الذي أُعطي صفة كونفرانس يعيد النظر في برنامج الحزب وفي مهمّات مناضليه إلى جانب انتخاب الهيئات القيادية. وفي ظل قيادة الشمالي للحزب صدرت وثيقتان تاريخيتان في عام ١٩٣١. الوثيقة الأولى حملت عنوان «لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري؟». وتتناول هذه الوثيقة كل القضايا التي تتصل بالبلاد السورية وبقضايا العمال والفلاحين، وبسائر الفئات الشعبية، كما تتناول قضايا اقتصادية واجتماعية، وتضع في رأس المهمات المطروحة أمام الشيوعيين قضية الاستقلال الوطني والتحرر من السيطرة الاستعمارية. وفي ما يلي نموذج من القضايا التي لم يخلُ منها بيان من بيانات الحزب:

«تجاه هذه الحالة التي لا تُطاق أصبح النضال لتحرير سوريا من النظام الاستعماري أمراً محتّماً وواجباً على كل فرد من أفراد الشعب السوري العامل. وذلك للتمكن من العمل في سبيل النقط التالية:

أولاً – لتقدُّم البلاد السورية الذي يمنعه المستعمرون، والذي هو ضروري لحياة الشعب.

ثانياً – لانتزاع حرّيات العمال والفلاحين المغتصبة بسبب النظام الاستعماري.

ثالثاً – للنضال المثمر ضد الاستثمار الإقطاعي والرأسمالي، ذلك النضال الذي يعمل المستعمرون على سحقه بكل قواهم.

فلأجل تحرير الشعب السوري العامل وتقدّم البلاد وارتقائها، يعلن الحزب الشيوعي السوري ضرورة النضال لتحقيق المطالب التالية:

١ – الاستقلال التام والوحدة السورية.

٢ – سحب الجيوش المحتلة.

٣ – إلغاء الانتداب.

٤ – إلغاء الديون العثمانية المفروضة على الشعب السوري والديون التي تفرضها حكومة الاستعمار الحالية.

٥ – إلغاء امتيازات الشركات الأجنبية ومصادرة ممتلكاتها وموجوداتها.

٦ – إلغاء امتيازات الإرساليات الدينية الأجنبية وإقفال مدارسها ومصادرة ممتلكاتها وموجوداتها.

٧ – إلغاء الدساتير التي فرضها المستعمرون على الشعب السوري (سوريا، لبنان، العلويين، جبل الدروز، الإسكندرونة).

٨ – إلغاء حكومتي سوريا ولبنان العاملتين على خدمة المستعمرين الإفرنسيين وتوطيد سلطتهم، وكذلك الحكومات الإفرنسية – في جبل الدروز والعلويين والإسكندرونة.

٩ – إلغاء المجلس النيابي اللبناني الذي هو آلة بيد المستعمرين يستخدمونها لغشّ الشعب وتخدير أعصابه بجعله يعتقد بأن له مجلساً نيابياً، وفي الحقيقة إن هذا المجلس هو بؤرة الكذب والرياء والنفاق، وجميع أعضائه هم في مقدّمة خادمي الاستعمار. وإلغاء المجالس البلدية ومجالس الإدارة المعيّنة تعييناً لخدمة مصلحة المستعمرين، وإلغاء تعيين المختارين

الذين يجب أن ينتخبهم الشعب انتخاباً، وإلغاء تلزيم موارد البلديات لأفراد أو لشركات.

١٠- حرية الصحافة، وعلى الأخص صحافة الطبقة العاملة، وحرية الخطابة والنشر وتأليف الجمعيات والاجتماعات والمظاهرات والإضراب عن العمل.

١١- إطلاق سراح جميع المسجونين والمعتقلين السياسيين الذين سُجنوا واعتقلوا بسبب نضالهم ضد الاستعمار، والعمال المسجونين بسبب القيام بحركات العمال التحريرية».

تلك كانت الوثيقة التاريخية الأولى التي صدرت بإشراف فؤاد الشمالي بصفته الأمين العام للحزب. أما الوثيقة الثانية فقد صدرت عن الحزبين الشيوعيين السوري والفلسطيني. وتضمّنت تحليلاً لأوضاع البلدان العربية. ودعت بوضوح إلى وحدة عربية شاملة مع تحديد مواصفاتها وشروطها وأهدافها. وتعبّر الفقرة التالية عن جوهر موقف الشيوعيين من الوحدة العربية، مع إعطائها مضمونها السياسي والاجتماعي، من جهة، وحرية تقرير المصير لدى الشعوب العربية في الانتماء إلى هذه الوحدة، من جهة ثانية:

«إن طموح الجماهير الشعبية العربية هو إلى الوحدة القومية ضمن حدود للدول تُقام، ليس حسب تعليمات الإمبريالية، بل على أساس القرار النابع من هذه الجماهير ذاتها والمتخذ بحرية والمرتبط بلا فِكاك بطموحها للتخلّص من نير الإمبريالية الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية. إن الجماهير الشعبية العربية تشعر أنه يتوجب عليها، من أجل إلقاء نير الإمبريالية، أن توحّد جهودها في ما هو مشترك بينها من وحدة اللغة والشروط التاريخية، واضعة نُصب عينيها عدوّها المشترك. إن تلاحم هذه الجماهير في النضال الثوري

ضد الإمبريالية واتساع نضالها هذا يظهران أنه تتوافر لدى الشعوب العربية كل الشروط التي لا غنى عنها من أجل إزالة النير الإمبريالي، والحصول على الاستقلال الوطني وخلق دول عربية تتمكن بعد ذلك، على أساس قرار متخذ بحرية، أن تتوحد على أُسس فدرالية .... من واجب الشيوعيين خوض النضال من أجل استقلالهم الوطني ووحدتهم القومية ليس فقط ضمن الحدود الضيقة والمصطنعة التي خلقتها الإمبريالية ومصالح الأسر الحاكمة في كل بلد عربي، بل أيضاً على النطاق العربي من أجل الوحدة القومية للشرق كله».

كان فؤاد الشمالي يمتلك ذكاء خارقاً، واقتناعاً عميقاً بانتمائه إلى الاشتراكية. كما كان يمتلك تجربة نضالية غنية. وقد ساعدته تلك المزايا في أن يكون قائداً حقيقياً للحزب، بإجماع رفاقه، منذ التأسيس حتى اللحظة التي جرت فيها تنحيته، ليس فقط عن موقع القيادة، بل من الحزب أساساً، بتهمة الخيانة. وقد لاحقته هذه التهمة حتى وفاته. وهي قضية مثيرة للغرابة في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، وفي تاريخ فؤاد الشمالي بالذات. إذ كيف توجّه مثل هذه التهمة إلى قائد كبير، لعب دوراً أساسياً في تأسيس الحزب وفي قيادته في أصعب الظروف وأدقّها. وتحوّل الشمالي منذ البدايات إلى شخصية لامعة في الحركة العمالية وفي حياة الحزب، على امتداد السنوات العشر الأولى من تأسيس الحزب. وارتبطت باسمه مواقف تاريخية، ووثائق تاريخية. وتعرّض للسجن عدة مرات. وواجه حكم الإعدام، بسبب موقفه وموقف الحزب المؤيد للثورة السورية. والجدير بالذكر أن رفيق فؤاد الشمالي في قيادة الحزب، منذ العام الثاني لتأسيسه، آرتين مادايان، الذي أشاد به في مذكراته التي صدرت تحت عنوان «حياة على المتراس»، هو صاحب الدور الأساسي في توجيه تهمة الخيانة إليه. وظلّ يتبنّى تلك التهمة ضد الشمالي حتى آخر حياته. ومعروف أن مادايان قد تحوّل، بالتدريج، إلى أحد القادة الأساسيين في الحزب على امتداد حياته.

بل هو كان، بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧، كما يشير إلى ذلك يوسف خطّار الحلو في كتابه «الدرب والرفاق»، المسؤول الأول عن الحزب، بفعل غياب خالد بكداش في موسكو وفرج اللّه الحلو في حلب، ونقولا شاوي في مهمات خاصة. لكن يوسف إبراهيم يزبك، رفيق فؤاد الشمالي في تأسيس الحزب الشيوعي و«حزب الشعب»، يرفض تلك التهمة ضد الشمالي بإصرار، ويدافع عنه باعتباره قائداً فذّاً في تاريخ الحركة العمالية وفي تاريخ الحزب. ويتفق مع يزبك في رفض التهمة، وفي الدفاع عن الشمالي، المؤرّخ الشيوعي الفرنسي جاك كولان في كتابه المهم «تاريخ الحركة النقابية في لبنان». ويستند كولان في رفض تلك التهمة إلى ما توفّر عنده من معطيات حول تلك الحقبة من تاريخ الحركة النقابية ومن تاريخ الحزب الشيوعي ومن تاريخ لبنان. أما فرج اللّه الحلو ويوسف خطّار الحلو فيشيران مرة واحدة إلى فؤاد الشمالي، عندما يتحدثان عن رعايته في عام ١٩٣١ في تأسيس أول منظمة شيوعية في منطقة جُبَيل. في حين أن نقولا شاوي في كتابه «طريقي إلى الحزب» يشير إلى قضية فؤاد الشمالي باستغراب. يقول شاوي بالنص في كتابه:

«علمت أن فؤاد الشمالي السكرتير العام للجنة المركزية وأحد مؤسسي الحركة، قد أُبعد عن الحزب، في خريف ١٩٣٢، بعد إدانته بتهمة ''الخيانة والتعاون مع رجال الأمن''. أحمد زكي الأفيوني، كما لاحظت، كان جدّ مرتاح للقرار ويعتبره انتصاراً شخصياً له. وقد تباهى أمامي بأنه أول من فضح علاقة الشمالي بالشرطة. وشاركه، من ثم، في هذا الرأي رفيق آخر من دمشق يدعى فوزي الزعيم، الذي كان قد اعتقله التحري ذات يوم في شتورا وهو ينقل منشورات حزبية سلّمها له في بيروت فؤاد الشمالي نفسه. أخبرني الأفيوني أيضاً أنه لاحق تلك القضية بكل حزم ودأب، حتى أنه أصرّ على قيادة الحزب أن تبعث إليه برفيق موثوق إلى سجن بعبدا حيث كان، لاطلاعه على

ما لديه من أدلّة وشبهات دامغة ضد الشمالي سردها لي بالتفصيل مرة بعد مرة... أما جورج عيّان فكان له موقف آخر. لم يكن مشككاً صراحة بالتهمة ولا معارضاً للقرار، لكنه، على ما بدا لي، غير مقتنع به. وكرر أكثر من مرة هذه العبارة: ''ما بحطو بذمتي''! كان آسفاً وحزيناً. مرة قال لي: ''أنا مدين لفؤاد الشمالي بكل ما في جعبتي من تعاليم أولية عن الماركسية. كنت أتردد عليه غالباً في بيته بزقاق البلاط المجاور لحيّنا، فيدعوني إلى شرب كأس معه، ويشرح لي بإفاضة كل ما أطلبه منه حول قضايا نظرية عويصة. أحياناً يستلقي على السرير ويأخذ بيده كرّاساً بالفرنسية، أظن لبوخارين، عنوانه 'ألف باء الشيوعية'، ويترجم لي منه مقاطع طويلة سجّلت بعضها على دفتر لا يزال عندي''. وكثيراً ما كان يتنهد ويقول: ''لا يمكن أن أصدّق أنّ هذا الإنسان الفقير المنتوف الذي أفنى زهرة شبابه في خدمة الطبقة العاملة وحزبها، والذي عرف الجوع والحرمان وشظف العيش ولا يزال، يمكن أن يصبح، في آخر عمره، عميلاً مأجوراً في خدمة أعداء حركتنا''...».

أما الأساس في تلك التهمة التي وجّهت إلى الشمالي فهو ما ورد في مذكرات آرتين مادايان، التي جاء فيها بالنص:

«في تلك الأيام وصل أبو زيام أمين عام الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى بيروت بطريقه إلى أوروبا. اتصل بنا واتفقنا على عقد اجتماع، أنا وفؤاد الشمالي وبيرغر في غرفة الأخير في الكسليك... بعد انتهاء الاجتماع كان أبو زيام أول من غادر المكان بأمان. ثم نزلنا وفؤاد الشمالي إلى جونية. استقلينا سيارة متوجهة إلى بيروت. ثم نزل فؤاد من السيارة عند أول جسر بيروت. وعند وصول السيارة إلى منتصف الجسر فوجئت بوجود حاجز للتفتيش. عندما رآني مفتش

> الأمن العام رشيد صرخ على الفور منادياً زميلاً له: ''سيّد دحداح، إنه هنا!'' والسيد دحداح هو مسؤول في الأمن العام. اعتقلوني وتوجهوا بي إلى مركز الأمن العام. سألوني من أين أتيت فقلت: ''جئت من حفلة زفاف أحد أقاربي في جونية''. لم يصدقوني. سألوا السائق من أين صعد معك؟ فأجاب: ''من جونية''. قال الصوت نفسه: ''أين اليهودي''؟ موجهاً لي السؤال. أجبته أن لا علم لي بهذا الموضوع. قال: ''نحن نعلم كيف نجده''. وأطلق سراحي... بعدها علمت أن غبريال ميرزا مفتش الأمن العام كان ينوي زيارتي في منزلي لقضاء الليل والحؤول دون قيامي بتبليغ بيرغر بما حصل. لكنه صرف النظر عن المجيء... واتضح أن فؤاد الشمالي الذي شاهد ما حدث معي واعتقالي على يد الأمن العام عاد فوراً إلى الكسليك ونقل بيرغر إلى المعاملتين عند إحدى العائلات لتمضية ليلته هناك. وفي اليوم التالي تواعدا للقاء في ضبية في مقهى مكشوف. وبينما كان بيرغر ينتظر قدوم الشمالي اعتقل من قبل الأمن العام. وبعد سجنه خمسة عشر يوماً أبعد من لبنان).

لكن لفؤاد الشمالي بالذات رأيه في هذه القضية التي تخصّه. فهو يتحدث بمرارة في كتابه الآنف الذكر «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية-اللبنانية» عن المؤامرة التي استهدفته، مؤكداً استمراره بعد خروجه من الحزب في مواقفه الفكرية والسياسية من دون تبديل. يقول الشمالي حول هذا الموضوع بالنص في مقدمة كتابه:

> «قضيت اثني عشر عاماً عضواً في الحزب الشيوعي في القُطر المصري وفي سوريا - ١٩٢٠- ١٩٣٢- ومن ثم استقلت من السكرتيرية العامة للحزب الشيوعي السوري وانفصلت من عضويته لأسباب وعوامل مبيّنة في هذا الكتاب. وبعد انفصالي عن عضوية

> الحزب لم أناهضه ولم أحاربه، كما فعل الكثيرون ممن انفصلوا من عضوية الأحزاب الشيوعية في مصر وفلسطين وسوريا وغيرهم. بل إني تركت الحزب وشأنه وانصرفت إلى وضع التآليف (البروليتارية) وتعريب الممكن تعريبه وطبعه وتوزيعه منها في دائرة القوانين المحلية... فعرّبت تاريخ (الإنترناسيونال- أو الأمميات الاشتراكية الثلاث). ووضعت كتيباً في بلاد البولشفيك. ونشرت بجريدة ''الصحافي التائه'' ريبورتاجاً عنوانه ''ماذا رأيت في موسكو''، ثم جمعت فصول هذا الريبورتاج وطبعتها في كتيّب خاص... وكان الواجب يقضي على زعماء الحزب الشيوعي السوري أن يعضدوني في ترويج مؤلفاتي البروليتارية الملأى بالدعاية (المشروعة). ولكنهم بدلاً من هذا وقفوا موقفاً سيئاً تجاه هذه المؤلفات، وعاكسوني في طبعها وبيعها معاكسات شديدة، وذلك تنفيذاً لخطة رسموها ضدي وهي تنحصر في أني خصمهم الواجب عليهم مقاومته ومعاكسته وسحقه. لكنهم أخطأوا في هذا لأني لم أخرج من عضوية الحزب الشيوعي بسبب اعتناقي نظريات ومبادئ مخالفة للنظريات والمبادئ الماركسية- اللينينية. بل إني خرجت من الحزب لأسباب وعوامل شخصية. وبعد خروجي منه لم أنضوِ تحت لواء الأممية الاشتراكية الثانية، أو أنضمّ إلى حزب أو هيئة أو فئة من الأحزاب والهيئات والفئات المعادية للمبادئ الشيوعية. بل إني واظبت على خدمة مبادئي (مستقلاً). فلهذا لم يكن يجوز لرفاقي القدماء أن يصلوني حرباً عواناً بدعوى أني من الخصوم الواجب عليهم محاربتهم وسحقهم، بل كان عليهم أن يستفيدوا من مؤلفاتي البروليتارية، فيستثمروا (مشروعيتها) في سبيل نشر الدعاية البروليتارية المشروعة بجانب دعاية الحزب الشيوعي (غير المشروعة)».

ويشير الشمالي في أماكن أخرى في الكتاب إلى بعض التفاصيل المتصلة بالتهم الموجهة إليه، والتي لا أساس لها من الصحة، متهماً «رفاقه القدماء» بالتآمر عليه لأسباب شخصية الخ...

ومن المعروف في تاريخ الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أن الشيوعيين الأرمن بقيادة آرتين مادايان كانوا قد هيمنوا على الحزب بعد انضمامهم إليه في عام ١٩٢٥، باسم منظمة «سبارتاك». وكانوا أكثر تكويناً من الناحية الفكرية والسياسية بالاشتراكية، وأكثر معرفة بتاريخ انتصار البلاشفة في ثورة أكتوبر. وقد وصفوا منذ ذلك التاريخ بالبلاشفة. وظلوا أصحاب القرار في الحزب حتى أوائل ثلاثينيّات القرن الماضي. إذ تدخل الكومنترن من أجل «تعريب» الحزب، أي نقل القيادة من الشيوعيين الأرمن إلى الشيوعيين العرب. وشملت عملية «التعريب» تلك أحزاباً عربية أخرى بقرار من الكومنترن في مؤتمره السادس المشار إليه. إلا أن عملية «التعريب» في الحزب السوري-اللبناني، كما يروي ذلك مادايان في كتاب مذكراته، كانت صعبة. إذ عارضها عدد من المسؤولين الأرمن بقوة. لكن مادايان تابع العمل لتحقيقها تنفيذاً لقرار الكومنترن، الذي ظل على امتداد حياته أميناً في الولاء له، وللحزب الشيوعي السوفياتي بعد حلّ الكومنترن كمؤسسة أممية ذات صفة ودور توجيهيين للأحزاب الشيوعية. وترافقت عملية التعريب، وتزامنت، مع انضمام ثلاثة من الشيوعيين العرب إلى الحزب هم خالد بكداش وفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي، وفي ما بعد فؤاد قازان وسعد الدين مومنة ومصطفى العريس ولويس صعب وآخرون. لكن فؤاد الشمالي كان قد طُرد من الحزب، في تلك الفترة، بتهمة الاتصال بالأمن العام. ولم يدافع عنه أحد من القادمين الجدد إلى مواقع القيادة بالتدريج. ويطرح هذا الأمر أسئلة لا مجال للإجابة عنها بعد أن غيّب الموت جميع من كان بإمكانه أن يقدّم مثل ذلك الجواب، باستثناء نقولا شاوي الذي أبدى في الفقرة التي أوردناها من كتاب سيرته، الذي لم يكتمل، شكوكه حول تلك التهمة الموجهة إلى الشمالي.

وقد يكون من السهل على من يتابع تطور الحركة الشيوعية بقيادة ستالين للحزب الشيوعي السوفياتي وللدولة السوفياتية وسطوته على الأممية الشيوعية، من السهل عليه أن يدرك كيف كانت توجّه التهم جزافاً إلى من كان يرتكب خطأ ما بحق القادة العظام أو لشبهة ما. لكنّ السرّ سيظلّ مسيطراً على الأسباب التي جعلت تلك التهمة توجّه إلى الشمالي، لأن أبطال تلك الحقبة قد رحلوا ولم يعد بالإمكان الاستناد إلى آراء شهود أحياء حول تلك القضية. ورغم كل الإساءات التي وجّهت إلى الشمالي فإن أحداً لم يُشر إلى ردّ فعله عليها، ربما باستثناء ما جاء على لسان سلام الراسي في كتابه «من كل واد عصا». يقول الراسي:

«تعرّفت إلى فؤاد الشمالي، بواسطة فؤاد جرداق، وكان الشمالي مؤسس ورئيس أول حركة شيوعية في لبنان، وكانت حرارة كلماته تطغى على برودة أعصابه. ثم بلغني أن الحزب الشيوعي طرد الشمالي من الحزب، فتعقبته حتى عثرت عليه في مطعم شعبي صغير على طريق الشام، وأمامه ورقة، وبيده قلم رصاص. قلت له: ''وماذا في مقدورك أن تكتب الآن''. قال: ''أكتب رسالة إلى الرتيلاء التي أكلها أبناؤها''. فاكتفيت بما سمعت».

قصة تلك التهمة التي واجهت فؤاد الشمالي وقضت بطرده من الحزب والتشهير به، هي قصة غريبة. لكنه سيكون من السهل على من يريد معرفة كيف تُساق التهم جزافاً ضد الكبار من قادة الحركة الشيوعية في بلداننا وفي العالم، أن يتذكر ما حصل لفرج اللّه الحلو في لبنان بسبب موقفه من قرار تقسيم فلسطين في أواخر أربعينيّات القرن الماضي، وأن يتذكر ما حصل لجورج حاوي في أزمة الحزب لعام ١٩٦٧، وأن يتذكر ما حصل لقادة أحزاب أوروبا الشرقية، الذين أُعدموا في تشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا ورومانيا، والذين طُردوا من الحركة الشيوعية وشُهّر بهم، لا سيما الرئيس اليوغوسلافي تيتو، وعدد من قادة الحزب الشيوعي السوفياتي الذين أعدمهم ستالين لأنهم خالفوا في فترات معيّنة بعض

أفكاره وبعض مواقفه، ولو بالهمس. وكانت تلك الممارسات في مقدمة الأسباب التي قادت إلى انهيار التجربة الاشتراكية في معقلها الأساسي، وفي العالم، بعد ثلاثة أرباع القرن من انتصار الثورة الاشتراكية العظمى في روسيا.

إلا أن من المهم أن نشير هنا، في الموضوع الخاص بفؤاد الشمالي، إلى أن هذا القائد التاريخي الكبير، والمؤسس الأول للحزب الشيوعي اللبناني، لم يتراجع عن أفكاره، حتى آخر لحظة من حياته. بل هو استمر مؤمناً بها، معلناً تمسّكه بالانتماء إليها. وهو ما عبّرت عنه كتبه وكتاباته التي صدرت بعد إخراجه تعسّفاً من صفوف الحزب. فقد أصدر في عام ١٩٣٣، أي في العام التالي لإقصائه من الحزب، كتابه «في بلاد البولشفيك». وأصدر في عام ١٩٣٦ كتابه «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية–اللبنانية». كما أصدر في عام ١٩٣٩، قبيل مغادرته الحياة فقيراً معدماً، ومنبوذاً ومشهّراً به من قِبل رفاقه، كتابه «الاشتراكية». في الكتاب الأول يتحدث الشمالي عن الأسس التي يقوم عليها النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي، ويدحض أكاذيب الخصوم، ويردّ فيه على الماسوني يوسف الحاج في كتابه «الشيوعية أو روسيا الحمراء» ويدحض الأكاذيب التي يمتلئ بها كتاب الحاج حول النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي. يقول الشمالي في الفقرة الأخيرة من مقدمة كتابه:

«وإذا أنا دافعت عن البلاد السوفياتية وأظهرت للعالم العربي شيئاً من الأكاذيب والدعايات الباطلة التي يذيعونها ضدها فلا أكون مأجوراً على عملي – كما يتهم الأخصام كل من يدافع عن الاتحاد السوفياتي – بل أكون قد قمت بقسط من الواجبات المفروضة على كل عامل، وكل فلاح، وكل ثائر مفكر. وما أنا سوى أحد أفراد الطبقة العاملة المستثمرة. لاقيت في حياتي الشيء الكثير من الظلم والاضطهاد. وما أزال ألاقي منهما ما لا يطاق».

ويحاول الشمالي في كتابه «الاشتراكية» أن يقدّم شروحاً مبسّطة حول أُسس الاشتراكية وأهدافها، مستنداً إلى أقوال ماركس وإنجلز. ونقتطف من هذا الكتاب النص الذي يتحدث فيه عن الأحزاب الاشتراكية. يقول الشمالي في هذا الفصل:

«. . . فالاشتراكيون الإصلاحيون يقولون بأن الوصول إلى تحقيق المبادئ الاشتراكية يكون بواسطة التعاون السلمي بين الطبقة العاملة وبين الطبقات الأخرى ومؤازرة الشعب للأحزاب الاشتراكية وتأييده المقررات التي تتخذها في سبيل الوصول إلى إقامة النظام الاشتراكي بواسطة البرلمان والنضال الحزبي المنظم. أما الاشتراكيون الثوريون فيقولون بأن من المستحيل تحقيق المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية، وأن ذلك لا يتم إلا بتنظم الطبقة العاملة تنظيماً حزبياً ونقابياً ثورياً، والقيام بثورة أهلية مسلحة بقيادة الحزب الاشتراكي الثوري لانتزاع زمام السلطة والحكم من أيدي الطبقات البورجوازية وإقامة ديكتاتورية البروليتاريا لتسير بالمجتمع سيراً حثيثاً إلى تشييد النظام الاشتراكي على أنقاض النظام الرأسمالي. وجميع الأحزاب الاشتراكية الإصلاحية تنتمي إلى الأممية الاشتراكية الثانية. أما الأحزاب الثورية فإنها تنتمي إلى الأممية الاشتراكية الثالثة التي يطلقون عليها لقب ''الكومنترن'' المختصر من كلمتي ''كومونيست انترناسيونال''. وبين هاتين الأمميّتين خصام شديد ونضال عنيف مستمر منذ انفصال الاشتراكيين الثوريين عن الأممية الثانية وتأسيسهم للأممية الثالثة. ولكنّ استفحال أمر الضائقة الاقتصادية العالمية، وقضاءها على عشرات الملايين من العمال وفقراء الفلاحين بحياة البطالة والبؤس والجوع، وتفاقم حركات الطبقة العاملة الثورية في جميع الأقطار الرأسمالية، وقيام الديكتاتوريات الفاشستية في إيطاليا وألمانيا وبولونيا . . . وتنظيم الأحزاب الفاشستية في كثير من الأقطار

> **كفرنسا والنمسا ورومانيا وبلغاريا الخ . . . كل ذلك جعل الأممية الاشتراكية الثالثة أي ''الكومنترن'' يقرر في مؤتمره السابع الأخير 'التعاون مع الأحزاب والمنظمات المنتمية إلى الأممية الثانية للنضال المشترك ضد الفاشستية التي نظمت خصيصاً للدفاع الدكتاتوري المسلح عن مصلحة الطبقات البرجوازية التي شعرت، بل لمست، أن حياتها باتت في خطر مؤكد تجاه تفاقم حركات الطبقة العاملة الثورية. وتنفيذاً لقرار الكومنترن المذكور، وتعليماته المشددة إلى جميع فروعه في العالم، تألفت ''الجبهة الشعبية المتحدة'' في كل من فرنسا وأسبانيا، واستلمت الأحزاب الاشتراكية ''الإصلاحية'' زمام الحكم - بمؤازرة الاشتراكيين الثوريين- في كل من القطرين المذكورين. ولقد كانت نتيجة ذلك قيام الثورة الفاشستية في إسبانيا ضد حكومة ''الجبهة الشعبية المتحدة''. ومن المنتظر جداً قيام ثورة مثلها في بلاد أخرى في القريب العاجل. (ومن شاء الوقوف على تاريخ تأسيس الأمميات الاشتراكية، وأسباب الخصام والنضال المتواصل بين الأمميتين الثانية والثالثة فليراجع كتيّبي: ''الأنترناسيونال'' أو الأمميات الاشتراكية الثلاث)».**

وهذا الكتيّب الذي يشير إليه الشمالي لم أستطع الحصول عليه. أما الكتاب الثالث «أساس الحركات الشيوعية في البلاد السورية-اللبنانية» فيكرّس الجزء الأول منه، الذي عرّفنا به محمد كامل الخطيب، للحديث عن تفاصيل المرحلة التي تمّت فيها عملية تأسيس الحزب. ولم نعرف ماذا جاء في الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي يشير إليه الشمالي، والذي لم يتم العثور عليه.

ظل اسم فؤاد الشمالي مغيّباً لفترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٦٨ ليعيد الاعتبار إلى ذلك القائد التاريخي، وليحرره من التهم التي وجّهت إليه، وليذكّر الشيوعيين خصوصاً،

واللبنانيين عموماً، بالوجه المشرق لواحد من أبطال حقبة مضيئة في تاريخ لبنان، حافلة بالنضالات، مليئة بالصعوبات. لكنها حقبة أسست لحِقبة لاحقة عليها، الحقبة التي انتقل فيها لبنان، بدور أساسي للشيوعيين، من السيطرة الاستعمارية إلى الحرية والاستقلال، وإلى حقبة من النضال حافلة بالإنجازات ومليئة بالإخفاقات، وكثيرة فيها التضحيات.

هذا هو فؤاد الشمالي، أول الشيوعيين الأربعة الكبار في تاريخ لبنان الحديث.

فرج الله الحلو

فرج اللّه الحلو هو اسم ورمز يختصران ملحمة كفاحية من أجل التحرر والتقدم في تاريخ لبنان الحديث، وفي تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، على وجه الخصوص. بدأت هذه الملحمة بالقلق وبالتمرد. واستمرت زمناً في التمايز والاختلاف عن السائد في الفكر وفي الممارسة، أو في محاولة التمايز والاختلاف. إلا أن هذه الملحمة انتهت باستشهاد بطلها فرج اللّه الحلو في تلك الليلة الطويلة الشديدة الظلمة، بكل المعاني التي تحملها الكلمة، تحت التعذيب الوحشي الذي تنوّعت أساليبه وأدواته المستقاة من ترسانة عهود الظلم والظلام في تاريخ البشرية القديم. وقف البطل يومها أمام جلاّديه منتصب القامة، مرفوع الهامة، شامخ الرأس، واثقاً بنفسه وبالقضية التي أعطاها كل عمره. وأطلق من فمه بصقة في وجه ذلك الكائن الشبيه بالرجال، رفيق رضا، الذي خانه. فأردى الخائن بتلك البصقة صغيراً ذليلاً محتقراً. فانهال الجلادون عليه ضرباً وتعذيباً إلى أن قتلوه. وإذ تحوّل الجسد العامر إلى جثة هامدة، سارع الجلادون إلى دفنه في بستان سامي جمعة، الذي قاد عملية الاعتقال. وكان الخائن رفيق رضا قد تحوّل، في وقت سابق، من دون معرفة فرج اللّه، من عضو في اللجنة المركزية للحزب إلى عميل للمخابرات التي كان يقودها عبد الحميد السرّاج في ظل الجمهورية العربية المتحدة الناشئة حديثاً. فمارس الخيانة للأمانة من دون أن

يرفّ له جفن. وعندما شاع نبأ اعتقال فرج اللّه، وبدأت تتوالى ردود الفعل اللبنانية والعربية والدولية على الاعتقال، طلبت سلطات الجمهورية العربية المتحدة من أجهزة مخابراتها السورية إخفاء أي أثر لفرج اللّه، لإثبات الادّعاء بأنه لم يكن في سوريا شخص اسمه فرج اللّه الحلو وأن نبأ اعتقال هذا الشخص كان عارياً عن الصحة! هكذا كانت تدار سوريا، في ذلك الزمن، أسوة بكل ما عرفته أنظمة الاستبداد العربية قديماً وحديثاً. فنُبش القبر، ونُقلت الجثة إلى أحد مراكز المخابرات في دمشق. ووضعت في حوض، وأحرقت بحامض كبريتي أذاب كامل الجسد. ثم سُرِّب الجسد المذوب إلى مجاري دمشق وغوطتها. وكانت دمشق واحدة من أكثر المدن التي أحبها فرج اللّه، وأمضى زمناً جميلاً وصعباً وطويلاً في ربوعها. فاستقبلت المدينة الطيبة المعذبة روح البطل، التي حوّمت في أجوائها، وبين شوارعها وفي أحضان غوطتها الغنّاء. استقبلت روح فرج اللّه، في ما يشبه التحدي لجلاديه ولسادتهم، معلنة لكل العالم أن روح الشهداء الأبطال من نوع فرج اللّه الحلو تستعصي على الفناء.

حصل ذلك في مدينة دمشق، في الخامس والعشرين من شهر حزيران/ يونيو من عام ١٩٥٩. وكانت دمشق، في ذلك التاريخ، عاصمة الإقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة. وكان فرج اللّه عضواً في قيادة الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. وكان مكلّفاً من قبل القيادة الاهتمام بالوضع الداخلي للحزب في سوريا، بعد أن غادر معظم قادته وكوادره إلى لبنان، خلال تلك الفترة المظلمة من حياتها، ومن حياة الحزب الشيوعي فيها. وقد جاء الاغتيال تتويجاً لما اعتبره سادة ذلك التاريخ العربي الهجين انتصاراً تاريخياً من قبلهم على من اعتبروهم أعداء تلك الوحدة الاندماجية بين مصر وسوريا. وهي الوحدة التي تمّت بالقسر، ضد الوقائع والشروط والخصوصيات المختلفة، التي أصرّ الشيوعيون على أخذها في الاعتبار، وعلى التمسّك بها واحترامها كشرط لنجاح الوحدة ولاستمرارها. وكان الهدف المعلن من تلك الوحدة بين مصر وسوريا الربط بين مشرق العالم

العربي ومغربه، ضد الأعداء الحقيقيين والوهميين لوحدة الأمة العربية، القدامى منهم والجدد. وكانت تلك من أخطر المغامرات التي وقع فيها الرئيس جمال عبد الناصر، وكررها أكثر من مرة، تتويجاً لأحلامه التي عبّر عنها بوضوح في كتابه «فلسفة الثورة». ودفع من رصيده ثمناً باهظاً لتلك المغامرات، حتى وهو في مجد صعود شخصيته كبطل تاريخي للشعب المصري وللشعوب العربية. وغادر الحياة حزيناً، وسط حزن عربي عظيم على غيابه، وعلى انهيار أحلامه في تحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة التي كانت قد تحولت إلى أحلام للملايين من أبناء عالمنا العربي الكبير.

قد يكون اللبنانيون والسوريون نسوا تلك الملحمة المتصلة بحياة هذا القائد الشيوعي المتميز، فرج اللّه الحلو. لكن التاريخ سيظل يتذكره مع أمثاله من الأبطال الذين وهبوا حياتهم، من خلال النضال، التزاماً بأفكارهم ووفاء لقضايا وطنهم وشعبهم ودفاعاً عنها. ولم يكن هذا العطاء شكلاً من أشكال التضحية بالنفس مجاناً، بل إن الاستشهاد جاء من خارج إرادة الشهيد، قسراً وظلماً وتوحشاً.

في العام ٢٠٠٥ بلغ عمر فرج اللّه الحلو المئة عام. وفي عام ٢٠٠٩ سيكون قد مضى على استشهاده نصف قرن. كان، إذن، حين استشهد، في الرابعة والخمسين من عمره. وهو عمر شباب. إنه العمر الذي يكون الإنسان، من نوع فرج اللّه خصوصاً، قد بلغ بتجاربه الغنية فيه مرحلة النضج في أرقى أشكالها.

أتذكر فرج اللّه اليوم، في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ لبنان، ومن تاريخ الحركة التي أنتمي إليها وكان من مؤسّسيها، أعني الحزب الشيوعي اللبناني بالتحديد، والحركة الوطنية التحررية اللبنانية والعربية، اليسارية الطابع والبرنامج، في آن، أتذكره، وأتذكر تاريخ حقبة من حياة لبنان والعالم العربي، معلناً اعتزازي بالإنجازات التي تحققت فيها، واعتزازي بأبطال هذه الإنجازات، ومشيراً، في الوقت عينه، إلى الخلل الذي ساد فيها، وإلى الأخطاء التي وقعنا فيها، وإلى

الإخفاقات التي أسست مع الزمن، عندنا وعند سوانا، للانهيار الكبير الذي دمّر أحلامنا وأبعدنا زمناً عن تحقيق طموحاتنا الكبرى في الحرية والتقدم لبلداننا والسعادة لشعوبنا.

إن استحضار اسم فرج اللّه الحلو، واستحضار التجربة التي ميّزت مسيرته، لا يرميان إلى التذكير بعواصف تلك الحقبة من تاريخ لبنان وسوريا ومن تاريخ العالم العربي، وحسب، فلهذه المسألة شروط وظروف أخرى. لكنّ لاستحضار اسم ومسيرة فرج اللّه وظيفتين، بالنسبة إليّ، تتصلان بحاضر أيامنا، وبمستقبلها، سواء على الصعيد اللبناني، أم على الصعيد اللبناني - السوري، أم على الصعيد العربي بعامة. **الوظيفة الأولى** هي للتذكير بأن شيوعيي الحقبة الماضية في بلداننا وفي العالم كانوا، برغم الأخطاء التي ارتكبوها، صادقين في انتمائهم إلى حركة تبتغي تغيير العالم، في اتجاه تحقيق الحرية والسعادة للبشر، باسم الاشتراكية، وباسم مرجعيتها المتمثلة بفكر ماركس. **الوظيفة الثانية** هي للاستفادة من تجربة فرج اللّه الحلو، التي قُمعت في المهد من قِبل الرفاق داخل الحزب أولاً، ثم أزيلت من الوجود بالقتل في أقبية التعذيب، على يد جلادي أنظمة الاستبداد العربية. والاستفادة من تجربة فرج اللّه تقضي بأن يتابع من هم في حركة اليسار اللبناني، وربما العربي، ما كان قد انقطع في عهد هذا القائد الشهيد، وما كان قد استعيد على يد رفاقه بقيادة نقولا شاوي بطل التجديد في الحزب، ورفاقه من الشباب الذين كان الشهيد جورج حاوي في مقدمتهم. وقد أصبح حاوي، بعد عقدين على غياب فرج اللّه، مكملاً لرسالته ولرسالة رفيقه نقولا شاوي في الأمانة العامة للحزب، بعد أن كان قد شارك، ابتداءً من أواسط ستينيّات القرن الماضي في معركة التجديد في الحزب التي انتهت بعقد المؤتر الثاني في عام ١٩٦٨.

كانت قرارات المؤتمر الثاني قرارات تاريخية. إذ هي حررت حزبنا من إرث تاريخي قديم، ووضعته على طريق جديد مختلف عن السائد من السياسات

والأفكار والطقوس التي كانت تهيمن على حياة الأحزاب الشيوعية في عالمنا العربي وفي العالم. وكانت تلك القرارات ذاتها في جوهرها وفي بعض تفاصيلها أشبه باعتذار من فرج اللّه الحلو عن الإساءة التي كانت قد وجّهت إليه، بسبب موقفه الشهير من قرار تقسيم فلسطين. إذ عوقب يومئذ بتجريده من كل مسؤولياته في قيادة الحزب، وتحوّل إلى عضو عادي فيه. وكان لسياسة الحزب في الحرب الأهلية أبطال هم أنفسهم أبطال تلك الحركة التاريخية المميزة المشار إليها، التي كانت قد أعادت الاعتبار لفرج اللّه الحلو ولنهجه. وقد كنت واحداً من هؤلاء المسؤولين عن تلك السياسة في الحزب، مثلما كنت في المؤتمرين الثاني والثالث للحزب، واحداً من قادة تلك الحركة المجيدة التي قامت بعملية التجديد في الحزب، فكراً وسياسة ووسائل نضال وأشكالاً جديدة للتنظيم أكثر ديمقراطية من العهود السابقة. إلا أن تلك السياسة التي اتّبعها الحزب في الحرب سرعان ما قادت عملياً إلى التراجع في سياسة الحزب عن عدد من إنجازات المؤتمر الثاني. ذلك أن الحرب الأهلية التي دُفع اللبنانيون إليها دفعاً، بإرادة منهم، وبالقسر خارج هذه الإرادة، وحاول الحزب الشيوعي تجنيب البلاد الوقوع فيها وفشل، ثم صار جزءاً منها بعد وقوعها، وأسيراً لمجرياتها، عادت، أي هذه الحرب، فأغرقت الحزب في ما كان يريد التخلّص منه في حركة التجديد الأولى المشار إليها. وهكذا بدأت تتبدد تدريجياً، من خلال سياسات الحزب في الحرب، الإنجازات التاريخية المتمثلة بقرارات المؤتمر الثاني (١٩٦٨) ثم في قرارات المؤتمر الثالث (١٩٧٢)، التي عمّقت وطورت قرارات المؤتمر الثاني.

إن لهذه الوظيفة الثانية من استحضار اسم وتجربة ومسيرة فرج اللّه الحلو أهميتها التاريخية بالنسبة إلى المستقبل، على وجه الخصوص. فهي تشير إلى ضرورة إحياء جديد لحركة اليسار، تُحرّر المنتمين إليها، باسم مرجعية ماركس، وتجاوزاً للكثير من أفكاره ومفاهيمه، تحرّرهم من كل ما ارتبط بهذا الفكر من صنمية حوّلته إلى عقيدة جامدة.

إلا أن الحديث عن فرج اللّه الحلو، بهذه المعاني وبهذه الإشارات، لا يعني أننا نتحدث عن شهيد قديس. فهو كان مثل كل الناس، ومثل كل القادة التاريخيين، يجمع بين البطولة ونقيضها، بين الصواب والخطأ، بين حب الذات والتفاني في الارتباط بالقضية. فهو، إذن، إنسان طبيعي، بكل المعاني.

كان فرج اللّه الحلو، على امتداد عمره السياسي، واحداً من أعرق الشخصيات اللبنانية التي شاركت في صنع استقلال لبنان، وفي النضال المتواصل دفاعاً عن الوطن اللبناني، ككيان سيّد وحرّ، وعن نظامه الديمقراطي، وعن تقدّمه في الميادين كافة، وعن سعادة شعبه. وهي المهمات التي لخّصها الحزب الشيوعي اللبناني بالشعار البسيط التالي: **وطن حرّ وشعب سعيد**.

تشير السيرة الأولى لفرج اللّه الحلو، سيرة شبابه الباكر، إلى أنه ينتمي إلى تلك النماذج من قادة الفكر والسياسة، الذين تبرز ملامح شخصيتهم منذ البدايات، وتتابع وضوحها وتطورها ورسوخها مع مرور الزمن ، وذلك في قلب الأحداث، صغيرها وكبيرها، انفعالاً عميقاً بها، وفعلاً يظل يتزايد ويكبر، مع تقدُّم العمر وتراكم التجارب، إلى أن يكتمل بنيان الشخصية.

وُلد فرج اللّه في عام ١٩٠٥ في بلدة «حصرايل»، في ساحل قضاء جبَيل في محافظة جبل لبنان. ونشأ، منذ الولادة، في وسط عائلة فقيرة. فوالده كان ملاّكاً ريفياً صغيراً. ووالدته كانت ابنة ملاَّك ريفي صغير. وحين كبرت العائلة شعر الأبوان بالعجز عن القيام بأودها. فقررا أن تسافر الوالدة إلى أميركا الشمالية مع اثنين من الأولاد، حيث كان يقيم أحد أخويها. وكان السائد في تلك الأيام في مناطق الجبل أن تسافر الزوجة إلى الخارج، بدلاً من الزوج، خلافاً لما كان سائداً في جنوب لبنان. هناك مارست الأم العمل كبائعة جوّالة. وكانت تقسم الدخل من عملها بينها، ومعها ابناها المرافقان لها، وبين زوجها والأولاد المقيمين معه في لبنان. وكان فرج اللّه أصغرهم جميعاً.

مع بداية الحرب العالمية الأولى أصيب والد فرج اللّه بمرض أقعده عن

العمل. فضاقت سُبل العيش أمام العائلة. وكان فرج اللّه لا يزال دون العاشرة من عمره. فاهتمّ بتربيته والعناية به شقيقه الأكبر غالب. ولم يتسنَّ لفرج اللّه الذهاب إلى المدرسة إلاّ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. فالتحق بمدرسة البلدة المجاورة «جدايل»، التي يفصلها عن بلدته «حصرايل» وادٍ عميق. وكان على الأولاد الصغار أن يجتازوا ذلك الوادي إلى المدرسة، ومنها إلى قراهم، كل يوم مشياً على الأقدام. قضى فرج اللّه ثلاث سنوات في تلك المدرسة حيث تعلّم مبادئ اللغتين العربية والإنكليزية وأجاد التعبير بهما معاً. ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة أعلى في بلدة «عمشيت» المجاورة. وقد أكسبه اجتهاده في الدروس وتفوّقه في المدرسة احترام المعلمين والتلاميذ. إذ حصل على ثمانين جائزة من الدرجة الأولى في مختلف الموادّ الدراسية التي أدّى الامتحان فيها. واختير بالإجماع لمنصب رئيس الجمعية التي أسّستها المدرسة. ثم انتقل من مدرسة «عمشيت» إلى مدرسة «ميفوق» للرهبان الواقعة في أعالي جبال منطقة جبيل. ورغم أنه كان مثابراً كعادته على متابعة التحصيل العلمي في تلك المدرسة فإنه لم يستطع أن يتحمَّل استبداد إدارة الرهبان، الأمر الذي اضطره إلى الهرب من المدرسة والعودة إلى بلدته «حصرايل». وفي عام ١٩٢٧، وكان قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، تفاقمت ظروفه الاقتصادية، فاضطر إلى التوقف عن متابعة الدراسة لمدة عامين. وانتقل إلى التدريس الذي لم يمارسه طويلاً. إذ اختار العمل في مصلحة المساحة التي كانت في عهدة الفرنسيين، متنقلاً بين مدن وقرى لبنان وسوريا. وكان، كلما اختار ميداناً للعمل، يشعر بما لا يرضيه، إما في ظروف العمل أو في طبيعته، وإما في ظروف الحياة والعلاقات التي كان يسيئه فيها طابع ونظام الاستبداد في سلطتي الانتداب والإقطاع معاً. وراودته فكرة الهجرة إلى أميركا. إلاّ أن ارتباطه بوطنه جعله يفضِّل المعاناة في الأزمة الاقتصادية على المغامرة في الهجرة إلى الخارج. وقرَّر في عام ١٩٣١، بعد طول بحث ومعاناة، الالتحاق بالمدرسة

الإنجيلية في مدينة حمص في سوريا لمتابعة الدرس والتدريس في آن. وتمكّن من الحصول على القسم الأول من الشهادة الثانوية، رغم أنه لم يكن قد مارس الدراسة إلاّ لسنوات معدودة وفي فترات متقطعة.

كان فرج الله، خلال تنقّله من مدرسة إلى مدرسة ومن عمل إلى عمل آخر ومن قرية ومدينة إلى قرية ومدينة أخريين بين لبنان وسوريا، يراكم تجارب ومعارف ووعياً وطنياً متقدماً، بالمعنى اللبناني للوطنية وبالمعنى القومي للعروبة. وكانت معارفه تزداد اتساعاً وعمقاً. وكان شغفه بالقراءة وبالاطلاع على الأفكار يتعاظم. وكان من أكثر الذين قرأ لهم وتأثر بأفكارهم كتّاب لبنانيون ومصريون وكتاب عرب من بلدان أخرى. وكانت جريدة «الوطن» التي أنشأها وديع عقل في لبنان، وهي جريدة تميّزت بنهجها العروبي الواضح، المصدر الأول لقراءاته. لكنه كان يتابع أيضاً ما كان يصدر في مجلة «الهلال» المصرية من كتابات لسلامة موسى ونقولا حدّاد، رائديّ الاشتراكية الكبيرين. كما كان يقرأ لجبران خليل جبران، لا سيّما كتاباته التي كان يعبّر فيها عن تمرُّده، وأبرزها قصة «خليل الكافر». وكان يبحث عن المعرفة في كل ما كان يتوفَّر له من كتب في محيطه. وهكذا أصبح، في أفكاره وفي تحوّلاته السياسية، قومياً عربياً تقدمياً ذا نظرة علمية إلى المجتمع والكون والحياة. وقادته مجمل تلك التحوّلات إلى اتخاذ قرار حاسم بالعودة إلى الدراسة لاستكمال معارفه. فانتقل من مدرسة حمص الإنجيلية إلى الكلية الأرثوذكسية في دمشق حيث تمكّن من الحصول على القسم الثاني من الشهادة الثانوية، التي تؤهّله للانتقال إلى المرحلة الجامعية.

لكنه لم يتابع دراسته الجامعية. إذ كان قد دخل، بين حمص ودمشق، في طريقه إلى الالتزام بالشيوعية، من خلال انتسابه إلى الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان. فقد تعرَّف، وهو في حمص، إلى ناصر حدة، أحد المسؤولين في الحزب الشيوعي، وإلى أعضاء آخرين في الحزب. وكانت تلك بداية الطريق إلى مستقبله كشخصية سياسية لبنانية، وأحد القادة الأساسيين في الحزب الشيوعي في

سوريا ولبنان. وكانت المحطة الثانية، بعد حمص، في الطريق إلى الشيوعية، بلدته حصرايل ومنطقة بلاد جبيل، حيث شارك مع رفيقه ونسيبه يوسف خطار الحلو في تأسيس أول منظمة حزبية بحضور فؤاد الشمالي، أمين عام الحزب آنذاك. أما المحطة الثالثة من هذا الطريق إلى الشيوعية فكانت في دمشق حيث تعرَّف إلى عدد من الشخصيات الوطنية، وكان من بينها خالد بكداش، الذي كان قد أصبح، وهو طالب في الجامعة السورية، شخصية معروفة. كان بكداش، بانتقاله من الجامعة إلى الحياة السياسية، قد تحوّل إلى واحد من رموز الحركة الشيوعية مع ناصر حدة ورشاد عيسى وآخرين ممن أصبحوا القادة الأساسيين للحزب في سوريا، ثم في سوريا ولبنان.

بدأ فرج الله، خلال تلك المحطات الثلاث وبعدها، يرسّخ أقدامه. وبدأ وعيه يسابق معارفه المتراكمة، التي عزَّزها انتماؤه إلى الفكر الماركسي، وعمَّقتها قراءاته المتنوّعة باللغة العربية واللغة الفرنسية التي كان قد أتقنها، وسعيه الدؤوب إلى الإحاطة بقضايا بلده وأمته، وبالقضايا التي كانت تشغل العالم. وهكذا استقرَّ به المقام، بعد دمشق، كمسؤول حزبي في منطقة بلاد جبيل. وظل من موقعه هذا على علاقة متواصلة مع المركز في بيروت. ومارس نشاطه في المنطقة، ليس كقائد حزبي وحسب، بل كمحرّض وقائد للعديد من المعارك الاجتماعية دفاعاً عن مصالح الفلاحين والمصالح العامة للقرى، سواء في ما يتعلق بقضايا التعليم أم ما يتعلق بقضايا الصحة والمياه وسوى ذلك من القضايا الاجتماعية التي كانت مطالب عامة لأهل القرى والبلدات في تلك المنطقة.

وإذ أصبح فرج الله شخصية حزبية جيدة التكوين، ووجهاً بارزاً من وجوه المنطقة، أرسلته قيادة الحزب في عام ١٩٣٣ إلى موسكو للالتحاق بدورة في أحد المعاهد السياسية العليا التي كانت تُعدّ فيها الملاكات الحزبية السوفياتية، وملاكات الأحزاب الشيوعية المنتسبة إلى الأممية الشيوعية. وبقي في موسكو عاماً كاملاً عاد بعده إلى منطقة بلاد جبيل ليساهم، استناداً إلى ما اكتسبه من

معارف وتجارب في العمل الحزبي، في تعزيز موقع الحزب في المنطقة، وإشراك منظمات الحزب التي طالت ٢٢ بلدة وقرية في النشاط العام دفاعاً عن مصالح الفئات الشعبية. ونظراً للنجاح الذي حققه في توسيع قاعدة الحزب في منطقته طلبت إليه قيادة الحزب أن يذهب إلى حلب ليمارس الدور ذاته. وبقي في مهمته الجديدة عاماً ونصف العام. وقادته نجاحاته إلى دمشق للمهمة ذاتها. وكان ذلك في عام ١٩٣٦، العام الذي كانت قد انفجرت فيه حركة إضرابات ومظاهرات ضد الانتداب الفرنسي كان أبرزها الإضراب الخمسيني الذي كان له دور كبير في حياة سوريا في تلك المرحلة. وقد لعب فرج اللّه الحلو في هذا الإضراب دوراً مهماً باسم الحزب الشيوعي مع رفاقه الآخرين. وقد اعتقل فرج اللّه مع ثلاثين من رفاقه الشيوعيين، وجرى إبعاده إلى بيروت.

من دمشق انتقل فرج اللّه إلى بيروت ليستقر فيها، وليصبح أحد القادة الأساسيين في الحزب مع نقولا شاوي وآرتين مادايان وفؤاد قازان، قبل أن يعود خالد بكداش في عام ١٩٣٧، ويمارس مهمات الأمين العام بعد خمس سنوات من تنحية فؤاد الشمالي بقرار تعسّفي من الأمانة العامة للحزب. وكان يجري إعداد بكداش لذلك الموقع في المدرسة الحزبية في موسكو، ثم خلال وجوده في الكومنترن. ومعروف أن بكداش كان في عام ١٩٣٦ يعمل في جهاز اللجنة التنفيذية الكومنترن (الأممية الشيوعية) في موسكو، مع عدد آخر من ممثلي الأحزاب الشيوعية. وفي عام ١٩٣٧، وبعد عودة خالد بكداش من موسكو، جرى اجتماع للجنة المركزية للحزب السوري اللبناني، أو الكونفرانس الرابع كما جرت تسميته في أدبيات الحزب. وتقرر في هذا الاجتماع إنشاء قيادة مركزية (سكرتاريا) من خالد بكداش وفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى. كما تقرَّر انتقال الحزب من العمل السرّي إلى العمل العلني. وكان أول ما قام به الحزب في هذا المجال السعي للحصول على ترخيص بإصدار جريدة علنية هي «صوت الشعب». وقد حصل الحزب على الترخيص للجريدة باسم نقولا

شاوي، في عهد ميشال زكّور الذي كان وزيراً للداخلية. وكان مشهوداً لزكّور بمواقفه الوطنية والديمقراطية. وبدأت الجريدة على الفور تمارس دورها الوطني الديمقراطي بامتياز. وقد صدرت الجريدة في العام ذاته، ١٩٣٧.

في تلك الفترة العلنية بالذات بدأت المرحلة الجديدة المثيرة للاهتمام في مسيرة حياة فرج اللّه الحلو. ففي هذه المرحلة، التي أصبح فيها فرج اللّه شخصية لبنانية عامة، إلى جانب كونه شخصية شيوعية أساسية، بدأت تندمج في شخص الرجل، وفي نشاطه، وفي مواقفه، بدون افتعال، ثقافته العامة وأخلاقه، بممارسته لنشاطه السياسي في المجالات كافة. وبدأت تصبح القضايا الوطنية في النضال من أجل الاستقلال، وفي مكافحة الصهيونية والفاشية، شديدة الارتباط إلى حدود التوحد مع القضايا ذات الصلة بمصالح العمال والفلاحين وسائر الكادحين في المدينة والريف. وبدأت تتحدد، منذ ذلك التاريخ، الملامح الخاصة لشخصية فرج اللّه الحلو، الإنسان والقائد الحزبي والزعيم الوطني، وصاحب المواقف التاريخية التي ارتبطت باسمه، وجعلت من شخصيته، على امتداد الأعوام العشرين التي تلت تلك المرحلة من حياته، بطلاً من الأبطال التاريخيين لذلك الزمان.

كان الوضع في لبنان وسوريا في الفترة الممتدة بين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٩ قد بدأ يختلف عن السنوات السابقة، بفعل المفاوضات التي كانت تجري بين الحكومتين اللبنانية والسورية من جهة، والحكومة الفرنسية، من جهة ثانية، من أجل توقيع معاهدتين، لم يتم الاتفاق بشأنهما. تميَّز الوضع في تلك الفترة بشيء من الانفراج الذي أتاح للقوى السياسية أن تنشط بقدر من الحرية. الأمر الذي استفاد منه الحزب الشيوعي، فوسَّع نشاطه في البلدين. وكان من أبرز إنجازات الحزب في تلك الفترة، بعد أن كان فرج اللّه قد أصبح عضواً أساسياً في قيادة الحزب، ومعه عدد من القادة الآخرين، السابقين عليه مثل آرتين مادايان، والآخرين الذين رافقوا صعوده، مثل نقولا شاوي ويوسف خطار الحلو وفؤاد

قازان ومصطفى العريس وسعد الدين مومنة ولويس صعب، كان من أبرز تلك الإنجازات في الميدان السياسي والاجتماعي تصعيد موقف الحزب المطالب بالاستقلال، وتوسيع وتعميق دور الحركة العمالية، والربط بين هذين الجانبين الأساسيين من نضال الحزب. يضاف إلى هذا الإنجاز في سياسة الحزب، بعد أن وسّع صفوفه، إنجاز آخر تمثل بإصدار مجلتين، الواحدة منهما تلو الأخرى: الأولى هي مجلة «الدهور» التي أصدرها إبراهيم حدّاد في عام ١٩٣٤ واستمرت عاماً واحداً، والثانية هي مجلة «الطليعة» في عام ١٩٣٥ واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٣٩. وكان قد سبق إصدار هاتين المجلتين صدور مجلة «الثقافة» في عام ١٩٣٢ بإشراف كامل عيّاد. لكنها لم تعش طويلاً. وكانت «الدهور» و«الطليعة» مجلتين فكريتين جريئتين في معالجة موضوعات مهمة. وقد لعبتا دوراً مميزاً في تنشيط الحركة الثقافية والفكرية، والتفّ حولهما عدد كبير من الكتّاب من لبنان وسوريا، ومن سائر البلدان العربية. لكن المهم في هاتين المجلتين أنهما شكّلتا منبرين التقت فيهما اتجاهات فكرية مختلفة.

الجدير بالذكر هنا أن مجلة «الطليعة» قد صدرت في أعقاب المؤتمر الذي بادر في الدعوة إليه الحزب الشيوعي السوري- اللبناني وشارك فيه مثقفون وسياسيون لبنانيون وسوريون، تحت شعار الوحدة العربية. وقد عقد هذا المؤتمر في مدينة زحلة في منزل النائب والوزير الأسبق يوسف الهراوي. وكان من بين المشاركين في المؤتمر، كما يشير إلى ذلك آرتين مادايان في مذكراته ويوسف خطّار الحلو في كتابه «أوراق من تاريخنا»، إلى جانب سليم خياطة، كل من ميشال عفلق وصلاح البيطار وفؤاد الشايب وكامل عيّاد وناصر حدة من سوريا، ونقولا شاوي ويوسف خطّار الحلو ومصطفى العريس من لبنان، وعدد آخر لم يذكر أحد أسماءهم. وكان سليم خياطة، الأديب والمفكر العلماني اللبناني، عضو الحزب الشيوعي، لولب المؤتمر. وقد صدر عن ذلك المؤتمر بيان تاريخي صاغه سليم خياطة، يدعو إلى الوحدة العربية ويحدد شروطها وأهدافها.

وكان قد سبق ذلك المؤتمر مؤتمر آخر من نوعه دعت إليه ونظّمته «عُصبة العمل القومي» التي كان يرأسها علي ناصر الدين. ونشير هنا إلى النقاط التي جرى التأكيد عليها في البيان الصادر عن مؤتمر زحلة (١٩٣٤):

«نحن العرب نعتقد أن:

١- القضية العربية قضية قومية بحتة، وهي قضية أمتنا العربية:

٢- أمتنا العربية هي القاطنة في العالم العربي والمرتبطة بصِلات اللغة والثقافة والتاريخ والتقاليد والمصالح والآمال الواحدة.

٣- وطننا العربي هو البلاد الواقعة ضمن الحدود التالية: جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط من الشمال والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط عند سواحل الشام من الغرب، وجبال إيران وخليج البصرة من الشرق.

٤- العربي هو كل من لغته الأصلية العربية أو يسكن الأقطار العربية وليست له في الحالتين أية عصبية تمنعه من الاندماج في القومية العربية.

٥- هدف القضية العربية إيقاظ قوى أمتنا وتنظيم عناصرها في دولة مستقلة متحدة متحضرة.

٦- القضية العربية وحدة تامة لا تتجزأ ولا يمكن أن تتنافر أجزاؤها.

٧- كل عصبية إقليمية أو جنسية أوطائفية تنشأ في وطننا العربي هي قوى هدّامة يجب القضاء عليها أو إذابتها في العصبية القومية الجامعة.

٨- البلاد العربية ملكنا، وكل اعتداء عليها اعتداء على أنفسنا.

٩- لأمتنا العربية تاريخ مجيد، ولها على المدنية فضل كبير. فنحن نفتخر بكوننا عرباً.

١٠-أشد أعداء بلادنا الاستعمار والفقر والجهل والرجعية الاجتماعية والتعصب الديني فلنحاربها بكل جهودنا.

١١-لا يفصلنا عن إخواننا العرب دين أو مذهب، بل تتحد عقائدنا في خدمة قضيتنا.

١٢-حياة بلادنا برفاهها الاقتصادي. فليكن هذا هدفنا في جميع أعمالنا.

١٣-كل من يخلّ بواجبه نحو أمتنا هو عضو فاسد في جسمنا فلنقطعه ولندسه بأقدامنا.

١٤-تدخُّل الدين في السياسة والدولة أساس مصائب بلادنا. فواجبنا أن نسعى لفصلهما فصلاً تاماً مطلقاً».

تجدر الإشارة هنا إلى أنه أوكل إلى ناصر حدة إدارة تحرير مجلة «الطليعة» في مرحلة أولى، ثم صار رجا حوراني مدير التحرير فيها إلى أن توقفت عن الصدور. وكان من أركان هيئة التحرير، إلى جانب ناصر حدة ورجا حوراني، كل من سليم خياطة وميشال عفلق وكامل عيّاد.

في تلك الفترة بالذات التي أعقبت انعقاد المؤتمر المذكور ببضع سنوات أصدر الحزب جريدة يومية هي جريدة «صوت الشعب» (١٩٣٧)، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل، وكلّف نقولا شاوي إدراتها. وكانت افتتاحيات الجريدة التي كان يكتبها فرج اللّه ونقولا تعالج مجمل القضايا السياسية والاجتماعية، الخاصة بالبلدين، والعامة المتصلة بالوضعين العربي والدولي. وتحوّلت الجريدة بسرعة إلى الجريدة الأولى في البلاد. ومعروف أن تلك الفترة من تاريخ العالم كانت قد شهدت صعود الحركة الفاشية في كل من ألمانيا وإيطاليا. إذ أصبح كل من هتلر وموسوليني الزعيمين الأولين للبلدين، حاملين معهما مطامحهما لتغيير العالم، استناداً إلى نظريتهما التوسعية العدوانية ذات الطابع العنصري. وكانت قد وصلت

إلى الحكم لفترة قصيرة في فرنسا «الجبهة الشعبية» المؤلفة من الحزبين الاشتراكي والشيوعي. وكانت قد قامت في إسبانيا في الوقت ذاته الجمهورية الفتية بمشاركة الاشتراكيين والشيوعيين وسائر القوى اليسارية والديمقراطية في البلاد. وإذ انهار حكم الجبهة الشعبية في فرنسا وبدأت تترنّح الجمهورية الإسبانية الفتية تحت ضربات قوى اليمين الفاشي بقيادة الجنرال فرانكو وبمساندة عسكرية من حكومة هتلر في ألمانيا، برغم جيش المتطوعين الأممي الذي ذهب إلى إسبانيا لمساندة الجمهورية، فقد تحولت الأوضاع في العالم في اتجاه حرب قادمة، سرعان ما اندلعت في أواخر عام ١٩٣٩. واجتاحت جحافل الجيش النازي بولونيا وفرنسا. وانتصر فرانكو على الجمهورية الإسبانية. وبدأ يسود وضع جديد في لبنان وسوريا نقيض لفترة الانفراج السابقة. وكان قد تهيأ الحزب الشيوعي لذلك الوضع. فشكّل من عدد من المثقفين الديمقراطيين عصبة لمكافحة الفاشية والنازية وجمعية لمناهضة الصهيونية. وباشر معركة حقيقية للنضال من أجل الاستقلال. وأقام تحالفات سياسية واسعة، كان أبرزها تحالف الحزب مع رياض الصلح في انتخابات عام ١٩٣٧. إذ ضمّت القائمة الانتخابية في بيروت، إلى جانب رياض الصلح ورفاقه في اللائحة، كلاً من نقولا شاوي وسعد الدين مومنة ممثلين للحزب الشيوعي. وبادر الحزب بواسطة النقابيين المنتمين إليه إلى تشكيل اتحاد عام للعمال والمستخدمين. وكان النقابي الشيوعي مصطفى العريس أول رئيس لهذا الاتحاد. ومعروف في تاريخ لبنان الحديث أن قانون العمل الذي صدر في عام ١٩٤٦ جاء ثمرة نضال هذا الاتحاد على امتداد عقد كامل.

كان لفرج اللّه الحلو دور في كل تلك النشاطات والمبادرات التي ارتبطت باسم الحزب الشيوعي. ولأن فرج اللّه كان قد أصبح قيادياً بارزاً في الحزب فقد كُلّف في عام ١٩٣٧ تقديم تقرير إلى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الذي عُقد في دمشق بعنوان: «قوة الحزب في تنظيمه الديمقراطي وفي قيادته الديمقراطية». وكان هذا التقرير صرخة مدوّية في وجه السائد من الممارسات المخالفة

للديمقراطية، الموروثة من السائد في الحركة الشيوعية. كما كان تعبيراً عن طموح حقيقي عند فرج الله لجعل الديمقراطية القاعدة الأساسية في العلاقات داخل الحزب وفي علاقات الحزب بالقوى الأخرى وفي علاقاته بالجماهير. وكان سلوكه، وكانت ممارساته، شاهداً على ذلك الطموح. وكان التقرير المشار إليه مليئاً بالإصرار على جعل الحزب الشيوعي مدرسة نموذجية في الديمقراطية.

في عام ١٩٣٩، وفي خِضمّ الحملة التي قادها الحزب من أجل الاستقلال، جرى تعطيل جريدة «صوت الشعب» لمدة شهر. لكن اندلاع الحرب العالمية الثانية في أواخر عام ١٩٣٩ ووصول حكومة فيشي إلى السلطة في فرنسا قلب الأوضاع في لبنان وسوريا رأساً على عقِب. وسادت في البلدين حملة قمع ضد الشيوعيين والوطنيين عموماً. واعتقل فرج الله الحلو ونقولا شاوي وآرتين مادايان وعدد من الشيوعيين، وأقاموا داخل السجن مدرسة لمحو الأمية قادها نقولا شاوي. وصدرت بحق المعتقلين أحكام قاسية. ولم يدم ذلك الوضع طويلاً. ففي عام ١٩٤١ هُزم جيش فيشي في البلدين بعد معركة ضارية جرت بين جيش التحالف البريطاني- الفرنسي وبين جيش فيشي. واستعادت الحياة السياسية في لبنان طبيعتها السابقة. وأُفرج عن المعتقلين. وبدأت حملة وطنية واسعة للمطالبة باستقلال سوريا ولبنان كان الحزب الشيوعي في مقدمتها. نذكّر، هنا، على سبيل المثال لا الحصر، بوثيقتين. الوثيقة الأولى هي المذكرة التي رفعها فرج الله باسم قيادة الحزب في عام ١٩٤١ إلى المفوّض السامي مطالباً بتحقيق الاستقلال الوطني. أما الوثيقة الثانية فهي البيان الذي وجّهه الحزب في عام ١٩٤١ إلى الشعب في سوريا ولبنان باسم المجلس الوطني العام الرابع للحزب. نكتفي بالإشارة إلى عناوين القضايا التي وردت في ذلك البيان وإلى دلالاتها:

«كل شعوب الدنيا تريد انكسار هتلر- أباطيل الدعاية النازية- النظام السوفياتي صخرة لا تتزعزع- لقد ثبت الشعب السوفياتي وسيثبت وسينتصر- هتلر يحمل معه الجوع والحرب والتجنيد

الإجباري- في سبيل خبزنا وحريتنا واستقلالنا- الحركة الثورية في أوروبا خنجر في ظهر هتلر- ما كان العرب يوماً مطيّة لاستعمار على استعمار- كبار المحتكرين يريدون انتصار هتلر- يجب مكافحة الاحتكار وفرض ضريبة على أرباح الحرب- في سبيل الوطن العربي! في سبيل شرف العروبة!»

تطورت المعركة من أجل استقلال سوريا ولبنان. ولم يمض عامان على صدور الوثيقتين حتى كان البلدان يحققان انتصارهما في انتزاع استقلالهما برغم التدخل الاستعماري الفرنسي، الذي تمثل في لبنان في عام ١٩٤٣ باعتقال حكومة الاستقلال، وتمثل في سوريا في عام ١٩٤٥ بقصف البرلمان السوري بالدبابات. وتشكّل في لبنان «المؤتمر الوطني»، الذي ضم أربعاً وأربعين شخصية من كل الاتجاهات السياسية في البلاد. وتمثّل الحزب الشيوعي في المؤتمر بفرج الله الحلو وبأنطون ثابت وبآرتين مادايان، بصفته ممثلاً للأرمن، وبشخصيات أخرى حزبية وصديقة للحزب، مثل الدكتور جورج حنا والدكتور جورج كرم. كما تمثل الاتحاد العام للعمال والمستخدمين برئيسه القائد الشيوعي مصطفى العريس. وقد ذكر آرتين مادايان في كتاب مذكراته «حياة على المتراس» بعض أسماء أعضاء المؤتمر وهم، مصباح سلام وميشال فرعون وأحمد الداعوق وجورج كرم وعمر بيهم وتقي الدين الصلح وألفرد نصر وإيلي خيّاط ومحي الدين نصولي. وكان لهذا المؤتمر دور أساسي في النضال للإفراج عن حكومة الاستقلال، ثم في تثبيت دعائم الاستقلال، وفي الدفاع عنه، وفي استكمال عناصره بإجلاء القوات الأجنبية عنه غداة انتهاء الحرب.

كان للحزب الشيوعي دور أساسي في المعركة الوطنية لتحقيق الجلاء عن لبنان وسوريا، الذي ساهم في تحقيقه الفيتو السوفياتي الذي استخدم لأول مرة في مجلس الأمن في عام ١٩٤٦ لصالح البلدين. وكان لدور الحزب الشيوعي ولفرج الله الحلو ونقولا الشاوي في معركة الاستقلال أثر بالغ في توسيع قاعدة

الحزب السياسية والجماهيرية. وقد عقد المؤتمر الأول للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان في نهاية ذلك العام بالذات، أي بين ٣١ كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٤٣ و٣ كانون الثاني/يناير من عام ١٩٤٤. وكانت قد تشكلت لجنة تحضيرية للمؤتمر قِوامها: خالد بكداش وفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى ويوسف خطّار الحلو ومصطفى العريس وعبد القادر اسماعيل (شيوعي عراقي) ومير مسعد وآخرون لم أعثر على أسمائهم. وكان انعقاد المؤتمر بذاته، والقرارات التي صدرت عنه، تأكيداً لذلك الدور الذي لعبه الحزب في البلدين، ولترسيخ وتثبيت وجوده كمكوّن أساسي من مكوّنات الحياة السياسية في البلاد. ودلّ على ذلك بوضوح ارتفاع عضوية الحزب في لبنان إلى ما يزيد عن عشرين ألف عضو، في حين لم يكن يزيد عدد سكان البلاد عن مليون نسمة.

انتُخب فرج اللّه الحلو في ذلك المؤتمر رئيساً للحزب اللبناني ونقولا شاوي سكرتيراً، وخالد بكداش رئيساً للحزب السوري ورشاد عيسى سكرتيراً. وأقرّ المؤتمر لكل من الحزبين ميثاقاً وطنياً تضمّن كل منهما مهمات وطنية واجتماعية تخص كلاً من البلدين. كما أقرّ العلم اللبناني والعلم السوري علمين لكل من الحزبين، والنشيد الوطني في البلدين نشيداً لكل من الحزبين. وكان من أولى القرارات التي اتخذها المؤتمر «الموافقة على حل الأممية الشيوعية (الكومنترن) كمركز قيادي لحركة العمال الأممية ما يجعل فروع الأممية في حلٍّ من الواجبات التي تقتضيها قوانين وقرارات الأممية الشيوعية». وكان لهذا القرار تأثيره المباشر في المثقفين. وكان من أبرز الذين عبّروا عن ارتياحهم لذلك القرار وللقرارات الأخرى التي اتخذها المؤتمر الدكتور جورج حنا، الشخصية السياسية والفكرية المرموقة. إذ وجّه إلى قيادة الحزب رسالة يعلن فيها انضمامه إلى صفوف الحزب. وصدر عن المؤتمر ميثاق وطني لكلٍّ من الحزبين. وفي ما يلي البنود الأساسية التي تضمّنها الميثاق الوطني للحزب الشيوعي اللبناني الذي أقره المؤتمر بالإجماع في جلسة أول كانون الثاني/يناير ١٩٤٤:

١- استقلال لبنان وسيادته وتعزيز كيانه وتحرره الوطني الكامل.

٢- نظام جمهوري ديمقراطي صحيح.

٣- توثيق صلات التضامن الأخوي بين سوريا ولبنان وسائر الأقطار العربية وتوطيد الروابط الاقتصادية والثقافية بينه وبينها.

٤- المساواة بين جميع اللبنانيين على اختلاف أديانهم وعناصرهم وتمتين روابط الإخاء والتضامن بينهم.

٥- بسط السيادة الوطنية على المؤسسات المالية والصناعية والتجارية الأجنبية.

٦- تأمين الحريات الديمقراطية العامة والفردية، وفي مقدمتها حرية الضمير والكلام والصحافة والنشر والاجتماع والجمعيات والأحزاب والنقابات، وحرية العبادة واحترام عقائد الناس الدينية.

٧- تنظيم شؤون الإدراة والقضاء بروح ديمقراطية صحيحة والسهر على تسهيل مصالح المواطنين ونشر العدل بين الجميع.

٨- تربية النشء تربية وطنية والعناية بالشباب وتشجيع الرياضة البدنية وتعميمها ونشر الثقافة في البلاد وإحياء التراث الفكري القومي.

٩- تعزيز مكانة رجال الفكر والعلم والفن وحماية الأساتذة والمعلمين.

١٠- تعميم المدارس الرسمية في المدن والقرى وتوحيد برامج التعليم بروح وطنية ديمقراطية، وجعل التعليم الابتدائي مجّانياً وإجبارياً.

١١- العناية بالصحة العامة وضمانة المعالجة والمداواة مجّاناً للمواطنين المعوزين.

١٢- حماية العائلة اللبنانية من أخطار البؤس والجهل ورفع مستوى المرأة والعناية بصحة الأم والطفل.

١٣- رفع مستوى البلاد الاقتصادي وتنشيط التجارة وترقية الزراعة وتعميم الري وحماية المشاريع الصناعية الوطنية وتشجيع الاصطياف وتحسين المواصلات.

١٤- حماية صغار المنتجين في المدينة والقرية ومساعدتهم.

١٥- معالجة البطالة ومكافحة البؤس والفقر وتأمين معيشة الشعب.

١٦- حماية العمال بوضع تشريع للعمل يحفظ حقوقهم ويسوّي العلاقات بينهم وبين أصحاب العمل على أساس العدل والمصلحة الوطنية.

١٧- العناية بحالة الفلاح اللبناني وتحريره من البؤس والجهل والتأخر.

١٨- رفع مستوى الموظفين والمستخدمين وتعزيز شأن المهن الحرة.

١٩- توزيع الضرائب توزيعاً عادلاً بين المكلّفين وتخفيف العبء عن صغار التجار وصغار المنتجين بوجه عام.

كان قرار المؤتمر الأول للحزب الشيوعي في سوريا ولبنان بتشكيل قيادتين منفصلتين لكل من الحزبين ولجنة مركزية لكل منهما وبرنامجاً وطنياً خاصاً، إقراراً موضوعياً بقيام بلدين مستقلين، لكل منهما خصوصياته وأوضاعه. وتشكلت في الآن ذاته قيادة مشتركة للحزبين برئاسة خالد بكداش. ورغم القرارات التي اتخذت في المؤتمر وفي كونفرانسات الحزب، التي كانت تقضي بانفصال الحزبين، استمر خالد بكداش في موقعه قائداً للحزبين، بحجة

الاستمرار في علاقة خاصة تربط بين البلدين والشعبين وتحافظ على الأخوّة والمصير المشترك بينهما. وكان ذلك التاريخ الذي سبق انعقاد المؤتمر وتلاه شاهداً على المرحلة التي بلغها فرج اللّه في تطوره، وفي الموقع الذي احتله في حياة الحزب وفي حياة البلد. وصار مركز الحزب من المراكز التي تلتقي فيها الشخصيات السياسية على اختلافها، ومن بينها عدد من المسؤولين الحكوميين على اختلافهم من رئيس حكومة الاستقلال رياض الصلح إلى رئيس الحكومة الثانية ابن عمه سامي الصلح، إلى الزعماء الآخرين من عبد الحميد كرامي إلى حبيب أبي شهلا وكمال جنبلاط وحميد فرنجية وسائر زعماء البلاد الكبار. وكان القائدان فرج اللّه الحلو ورفيقه نقولا شاوي محور العديد من تلك اللقاءات والاجتماعات والتحالفات والصراعات. ويمكن القول بأن قمة مجد فرج اللّه تجسدت في الفترة الممتدة بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٧. وتعبِّر عنها مواقف أساسية في ثلاث قضايا جوهرية: القضية المتعلقة بمفهوم فرج اللّه للتنظيم في الحزب ولمكوّناته وقواعده، والقضية المتعلقة بمفهومه للوطنية اللبنانية في ارتباطها بالعروبة وبالديمقراطية، والقضية المتعلقة بفهمه للقضية الفلسطينية كقضية عربية مركزية.

تشير إلى القضية الأولى النقاط البارزة الآتية التي وردت في التقرير الذي قدّمه فرج اللّه في المؤتمر الأول للحزب حول التنظيم، وفيه تأكيد على علمانية الحزب وعلمانية أهدافه وسياساته. يقول التقرير بالنَّص:

«... **وأشكال التنظيم في الحزب تخضع لظروف الحياة. ولا يمكن إخضاع ظروف الحياة لأشكال التنظيم. وليس لأي حزب جدي أن يزعم أنه يستطيع ذلك. وكل محاولة من هذا النوع تعطي تنظيم الحزب طابعاً انعزالياً وتقوده حتماً إلى الفشل والإفلاس. ولذلك يجب أن يقوم تنظيم الحزب بصورة تعطي الحزب الحد الأعلى من الإمكان لتنفيذ خطته السياسية وأهدافه الوطنية. فلا بد إذن**

من إجراء تعديلات في قانون الحزب الداخلي، تجعله أكثر انطباقاً مع سياسة الحزب الحاضرة، وأشد ملاءمة للنضال في سبيل ميثاق الحزب الوطني، وأكثر انسجاماً مع ظروف حياتنا الوطنية والسياسية في المرحلة الراهنة. وتستهدف هذه التعديلات تسهيل الدخول للحزب. فيصبح لكل مواطن حق الدخول للحزب الشيوعي. ولا يطلب منه سوى إقرار الميثاق الوطني للحزب والانتماء إلى إحدى منظماته، وتقديم مساعدة مادية له، كل عضو حسب طاقته. إنَّ الحزب الشيوعي هو حزب تحرر وطني. وهو لذلك لا يمكن أن يكون حزب جماعة أو طائفة أو فئة اجتماعية معيّنة. بل هو حزب الشعب كله، حزب الأمة كلها، حزب كل وطني صادق مهما كان دينه ومهما كانت منزلته الاجتماعية. وهكذا يكون لكل وطني يبغي التحرر من نير الاستعمار مكانه الحق في حزبنا. ونحن نعلم أن الأفكار والآراء ليست أشياء ثابتة جامدة. بل هي تتأثر بالحوادث وتتطور في احتكاكها بهذه الحوادث. وقد أدّت حوادث الحرب، من جهة، وسياسة حزبنا ونشاطه، من جهة ثانية، إلى إحداث تطور بالغ في نظرة الناس إلى الأشياء وإلينا. وهذه الحوادث تفعل فعلها كل يوم باستمرار. فينبغي على رفاقنا، في جميع نواحي نشاطهم، أن ينظروا إلى الناس نظرة متطورة أيضاً، وأن يعيّنوا موقفهم من الناس حسب تطورهم. وإذا كنا نعلم أن البلاد ما خلت بعد، ويصعب أن تخلو بسهولة، من الرجعيين والخونة وأنصار النازية والفاشستية، فيجب أن نعلم أيضاً أن ليس كل من أُعجب، من قبل، بقوة ألمانيا العسكرية، غير وطني، ولا كل مَنْ شكَّ، في البدء، بانتصار الاتحاد السوفياتي، فاشستياً، ولا كل مَنْ لم يصوّت لنا في الانتخاب رجعياً. ويجب أن نعلم أن الناس لم يولدوا خونة أو وطنيين، نازيين أو

شيوعيين. وإنما يصيرون كذلك تبعاً للظروف التي تحيط بهم والبيئة التي يعيشون فيها، وتبعاً للمؤثرات التي تفعل فيهم فعلها. وطبيعي جداً أن يزداد إقبالهم على حزبنا بعد الذي شهدوه وعرفوه من الحوادث.

إننا بحاجة إلى رفاق مسلحين بالمعرفة والثقافة والاطلاع، بحاجة إلى حزب مثقف مطّلع عارف، إذا كنا نريد أن نقوم بواجبنا الوطني الخطير، إذا كنا نريد أن نصبح حقاً طليعة الحركة الوطنية الصاعدة، إذا كنا نريد فعلاً تحقيق الاتحاد الوطني الصحيح في سبيل الاستقلال الوطني الصحيح. وليس يكفي الشيوعيين أن يعرفوا نظريتهم العلمية، وأن يرفعوا مستواهم السياسي، بل ليس يستطيع الشيوعيون أن يفهموا ويهضموا نظريتهم العلمية، إذا لم يكن لهم معارف عامة وثقافة عامة. ولا يستطيع الشيوعيون أن يرفعوا مستواهم النظري والسياسي، إذا لم يدرسوا أحوال وطنهم وتاريخ شعبهم. يجب أن نعرف بلادنا، أن ندرسها بكل بقعة من بقاعها، بجميع مميزاتها وخاصيّاتها، بثروتها وجمالها وبكل ما حبتها الطبيعة من منح غالية عزيزة. يجب أن ننفض غبار الأجيال عن مخلّفات شعبنا الديمقراطية، وأن ننقّب عن كل آثاره الثقافية وثروته الفكرية. يجب أن نبعث أمجاد آبائنا العرب وبطولاتهم في نضالهم التحريري خلال الأجيال الطويلة، مهما كانت أشكال ذاك النضال ومهما تنوّعت مظاهره».

وكان من روائع ما قاله فرج اللّه الحلو في المعنى الذي ترمز إليه علاقة لبنان بأشقائه العرب، في الماضي وفي الحاضر، ولا سيما في المستقبل، هذه الكلمة التي حوّلها الحزب الشيوعي، في أعقاب المؤتمر الثاني وفي وهج قراراته، وتخليداً لذكرى القائد الشهيد، إلى شعار الدرع الذي حمل صورة فرج اللّه،

من إجراء تعديلات في قانون الحزب الداخلي، تجعله أكثر انطباقاً مع سياسة الحزب الحاضرة، وأشد ملاءمة للنضال في سبيل ميثاق الحزب الوطني، وأكثر انسجاماً مع ظروف حياتنا الوطنية والسياسية في المرحلة الراهنة. وتستهدف هذه التعديلات تسهيل الدخول للحزب. فيصبح لكل مواطن حق الدخول للحزب الشيوعي. ولا يطلب منه سوى إقرار الميثاق الوطني للحزب والانتماء إلى إحدى منظماته، وتقديم مساعدة مادية له، كل عضو حسب طاقته. إنَّ الحزب الشيوعي هو حزب تحرر وطني. وهو لذلك لا يمكن أن يكون حزب جماعة أو طائفة أو فئة اجتماعية معيّنة. بل هو حزب الشعب كله، حزب الأمة كلها، حزب كل وطني صادق مهما كان دينه ومهما كانت منزلته الاجتماعية. وهكذا يكون لكل وطني يبغي التحرر من نير الاستعمار مكانه الحق في حزبنا. ونحن نعلم أن الأفكار والآراء ليست أشياء ثابتة جامدة. بل هي تتأثر بالحوادث وتتطور في احتكاكها بهذه الحوادث. وقد أدّت حوادث الحرب، من جهة، وسياسة حزبنا ونشاطه، من جهة ثانية، إلى إحداث تطور بالغ في نظرة الناس إلى الأشياء وإلينا. وهذه الحوادث تفعل فعلها كل يوم باستمرار. فينبغي على رفاقنا، في جميع نواحي نشاطهم، أن ينظروا إلى الناس نظرة متطورة أيضاً، وأن يعيّنوا موقفهم من الناس حسب تطورهم. وإذا كنا نعلم أن البلاد ما خلت بعد، ويصعب أن تخلو بسهولة، من الرجعيين والخونة وأنصار النازية والفاشستية، فيجب أن نعلم أيضاً أن ليس كل من أُعجب، من قبل، بقوة ألمانيا العسكرية، غير وطني، ولا كل مَنْ شكَّ، في البدء، بانتصار الاتحاد السوفياتي، فاشستياً، ولا كل مَنْ لم يصوّت لنا في الانتخاب رجعياً. ويجب أن نعلم أن الناس لم يولدوا خونة أو وطنيين، نازيين أو

شيوعيين. وإنما يصيرون كذلك تبعاً للظروف التي تحيط بهم والبيئة التي يعيشون فيها، وتبعاً للمؤثرات التي تفعل فيهم فعلها. وطبيعي جداً أن يزداد إقبالهم على حزبنا بعد الذي شهدوه وعرفوه من الحوادث.

إننا بحاجة إلى رفاق مسلحين بالمعرفة والثقافة والاطلاع، بحاجة إلى حزب مثقف مطّلع عارف، إذا كنا نريد أن نقوم بواجبنا الوطني الخطير، إذا كنا نريد أن نصبح حقاً طليعة الحركة الوطنية الصاعدة، إذا كنا نريد فعلاً تحقيق الاتحاد الوطني الصحيح في سبيل الاستقلال الوطني الصحيح. وليس يكفي الشيوعيين أن يعرفوا نظريتهم العلمية، وأن يرفعوا مستواهم السياسي، بل ليس يستطيع الشيوعيون أن يفهموا ويهضموا نظريتهم العلمية، إذا لم يكن لهم معارف عامة وثقافة عامة. ولا يستطيع الشيوعيون أن يرفعوا مستواهم النظري والسياسي، إذا لم يدرسوا أحوال وطنهم وتاريخ شعبهم. يجب أن نعرف بلادنا، أن ندرسها بكل بقعة من بقاعها، بجميع مميزاتها وخاصيّاتها، بثروتها وجمالها وبكل ما حبتها الطبيعة من منح غالية عزيزة. يجب أن ننفض غبار الأجيال عن مخلّفات شعبنا الديمقراطية، وأن ننقّب عن كل آثاره الثقافية وثروته الفكرية. يجب أن نبعث أمجاد آبائنا العرب وبطولاتهم في نضالهم التحريري خلال الأجيال الطويلة، مهما كانت أشكال ذاك النضال ومهما تنوّعت مظاهره».

وكان من روائع ما قاله فرج اللّه الحلو في المعنى الذي ترمز إليه علاقة لبنان بأشقائه العرب، في الماضي وفي الحاضر، ولا سيما في المستقبل، هذه الكلمة التي حوّلها الحزب الشيوعي، في أعقاب المؤتمر الثاني وفي وهج قراراته، وتخليداً لذكرى القائد الشهيد، إلى شعار الدرع الذي حمل صورة فرج اللّه،

والذي قُدِّم للمتميزين من نشطاء الحزب في تلك الحقبة التاريخية: «**نريد أن يكون هذا الساحل العربي منبت حركة وطنية جديدة أكثر وعياً وأسلم محتوى تحتل مكاناً في الطليعة بين الحركات الوطنية في الأقطار العربية الشقيقة**».

أما في المسألة الوطنية اللبنانية فتشير إلى موقف فرج اللّه كتاباته المتعددة في جريدة «صوت الشعب». ويبرز في مقدمة مواقفه تأكيده على ضرورة إنهاء الجدل بشأن الكيان اللبناني، وحول هويّته وحول موقعه في المنطقة، الجدل الذي كان يدور بين اللبنانيين وأحزابهم وزعاماتهم السياسية والدينية خلال النضال من أجل الاستقلال، وبعد تحقيق الاستقلال، داخل المجلس النيابي وخارجه. وهو الجدل الذي حسمه بيان رئيس حكومة الاستقلال رياض الصلح، وحسمه الميثاق الوطني غير المكتوب، البيان والميثاق اللذان يقرّان بأن لبنان وطن حقيقي لجميع اللبنانيين، وأنه ذو وجه عربي، وأنه لن يكون مقرّاً ولا ممرّاً للعدوان على سوريا أو على أي بلد عربي آخر. يقول فرج اللّه بالنص حول هذا الجدل في مقال نُشر في جريدة «صوت الشعب» بعنوان «لبنان في طريقة تطوّره الديمقراطي»:

«... ولا يخفى على أحد أن بين النواب الذين أولوا حكومة الصلح ثقتهم وتأييدهم عدداً غير قليل من أصحاب النزعتين المتطرفتين في لبنان. إحداهما هي التي يقول أصحابها أو كانوا يقولون إن لبنان يجب أن يولّي وجهه شطر البحر، أي نحو الدول الأوروبية أو نحو إحداها، ويقيم بينه وبين البلاد العربية سوراً كسور الصين، وينعزل عنها عزلة تامة. فالخطر كل الخطر على لبنان واستقلاله، في نظر أصحاب هذه النزعة، كان في تقرّب لبنان من كل ما هو عربي أو سوري أو شرقي. والنزعة الثانية هي التي ينكر أصحابها أو كانوا ينكرون وجود لبنان السياسي، ويسعون إلى هدمه ومحوه مهما كلّفهم ذلك. فالاعتراف بشيء لبناني كان في نظر هؤلاء خروجاً على الوطنية، بل خيانة. ومهما تكن الدوافع التي

حفزت كلاً من الفريقين إلى موقفه ذاك، فيمكن القول، بعد تجربة السنين الطويلة، إنهما أضاعا وقتهما عبثاً وأضاعا على لبنان وقتاً ثميناً في تطرفهما وإغراقهما وبعدهما عن واقع الحياة وجهلهما طريق التطور الطبيعي الذي لا مندوحة للبنان من سلوكه. وقد قلنا ولا نزال نقول إن السياسة الوطنية الرشيدة ليس معناها احتقار لبنان وكره لبنان وبغض لبنان. وقلنا ولا نزال نقول إن السياسة اللبنانية الرشيدة، أيضاً، ليس معناها مقاطعة جيران لبنان، والنفور من جيران لبنان، وتفضيل الأباعد عاى جيران لبنان. كما أن لبنان المستقل، المتمتع بحريته الوطنية، لا يشكّل أي خطر على سوريا أو على أي قُطر عربي آخر، بل هو عون وقوة لجميع الأقطار العربية. وسوريا والأقطار العربية الأخرى تشكّل بدورها ضمانة لاستقلال لبنان وحريته الوطنية وعزّته بمقدار ما تتمتع به من حرية وطنية ومن استقلال. لقد كان هذا صحيحاً منذ أن كانت هناك أقطار عربية متجاورة. وإذن فاللبنانيون والسوريون، وسائر العرب في سائر أقطارهم، يجب أن يتعاونوا ويتساندوا تعاوناً صريحاً وتسانداً متيناً في نضالهم من أجل حرية أوطانهم واستقلالها ومن أجل توطيد حرية أوطانهم وتوطيد استقلالها».

ويعود فرج اللّه فيؤكد، في مقال آخر، بعد انتصار الشعب اللبناني في انتزاع استقلاله، وبعد الإفراج عن حكومة الاستقلال التي كانت قوات الانتداب الفرنسي قد اعتقلتها بعد تشكيلها إثر الانتخابات النيابية وإعلان قرارها باستقلال لبنان، يعود فرج اللّه ليؤكد أن ذلك الانتصار لا يعود إلى عوامل دولية فقط، بل إلى وحدة اللبنانيين على اختلاف أديانهم ونزعاتهم وميولهم السياسية، صوناً لحقوقهم الوطنية ولكرامتهم الوطنية. ويشيد، في الوقت نفسه، بالدور الذي لعبه «المؤتمر الوطني» المشار إليه آنفاً في معركة الاستقلال.

وإذ نتذكر دور الحزب الشيوعي وفرج اللّه الحلو في معركة الاستقلال، فإننا لا نستطيع إلا أن نعبّر عن الأسف والمرارة والاستغراب والاستنكار لكون المسؤولين اللبنانيين قد مارسوا طمساً متعمداً لتلك الأدوار التاريخية لقادة الحزب الشيوعي اللبناني، وفي مقدمتهم فرج اللّه الحلو، في صنع الاستقلال، وفي استكماله بتحقيق الجلاء. لكنّ هذا الطمس المتعمد لتلك الأدوار لن يغيّر من الوقائع التاريخية، ومن الأدوار التي لعبها قادة تلك الحقبة من تاريخ لبنان. وسيظل دور الحزب الشيوعي ودور قياداته محفوظاً بأمانة في تاريخ وطننا، وفي ضمير شعبنا.

لم ينسَ فرج اللّه، وهو يهلّل للانتصار الذي حققه الشعب اللبناني في انتزاع حريته واستقلاله، أن يُعلن في مقال نشر في «صوت الشعب» في عام ١٩٤٥، إثر العدوان الذي تعرَّض له البرلمان السوري في دمشق وتعرَّضت له مدينة حلب من قبل قوات الانتداب الفرنسية، أن يُعلن وقوف الشعب اللبناني بكل قواه إلى جانب شقيقه الشعب السوري. ويؤكد، في السياق ذاته، بأن الشعبين سيتابعان نضالهما المشترك للدفاع عن استقلال بلديهما، معتبراً أن الدماء التي سالت في دمشق وحلب لم تبذل في سبيل حرية سوريا وحدها بل في سبيل حرية لبنان، وأن لبنان سيقف إلى جانب سوريا في نضالها من خلال تمسّكه باستقلاله وسيادته وصون جمهوريته الفتية.

ولعل من أكثر المفارقات في ذلك التاريخ الأول من استقلال البلدين، أنه، في الوقت الذي كان فيه الحزب الشيوعي اللبناني يعلن موقفه المشار إليه، على لسان فرج اللّه الحلو، وفي البيانات الرسمية للحزب، دعماً لسوريا ولنضال شعبها، وتأكيداً على العلاقات التاريخية بين البلدين والشعبين، كان الوفد السوري إلى اجتماع الإسكندرية الذي عقد في عام ١٩٤٤، لتوقيع بروتوكول تأسيس الجامعة العربية، يتحفظ على توقيع لبنان، لأن هذا البلد كان، في نظر ذلك الوفد الرسمي للدولة السورية الجديدة، غير مكتمل العناصر التي تؤهله لأن

يكون واحداً من البلدان العربية، التي يوقّع معها على بروتوكول تأسيس الجامعة. وحين واجه رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا ذلك الوفد السوري بالتأكيد أنّ للبنان كياناً مستقلاً، وشخصية واضحة المعالم، حتى في ظل السلطنة العثمانية، وأنه سبق سوريا في الحصول على استقلاله، وقّع ذلك الوفد البروتوكول المشار إليه مرفقاً بالتحفظ. ويشير هذا الموقف القديم للنظام السوري، الذي تكرر في العهود المختلفة، إلى أن إلحاق لبنان بسوريا، أو اتخاذ صفة الوصاية عليه، هو هدف سوري دائم. وهو ما نشهد في أيامنا هذه أمثلة صارخة عليه. إذ يفضّل أهل النظام في سوريا توجيه كل سياساتهم في اتجاه منع لبنان من العيش بسلام، وحرية، ومنعه من تعميق ديمقراطيته التي هي تقليد عريق في تاريخه، يفضّلون ذلك على الاهتمام بتحرير أرض لهم محتلة من قبل إسرائيل منذ أربعين عاماً، هي الجولان التي تبلغ مساحته ١٤٠٠ كلم[2]. ويستخدمون في سياساتهم هذه إزاء لبنان كل ما لديهم من وسائل وأدوات تخريب. يساعدهم في سياساتهم هذه حلفاء لهم في لبنان، وخارج لبنان. ويساعدهم عملاء لهم من أهل لبنان مستقيلون من انتمائهم إلى وطنهم ومن واجبهم في الدفاع عن حريته وسيادته واستقلاله. إلا أننا نأمل في أن تؤدي زيارة الرئيس اللبناني ميشال سليمان إلى سوريا ولقائه الرئيس السوري بشار الأسد إلى فتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين، تقوم على النديّة وعلى احترام خصوصيات كل منهما، وعلى المصالح المشتركة التي تقود، في حال احترامها، إلى إقامة علاقات مميّزة بين البلدين والشعبين الشقيقين.

لكنّ فرج اللّه، إذ يحرص على التأكيد على استقلال لبنان وسيادته وحريته، وإذ يؤكد للأشقاء السوريين تضامن الشعب اللبناني معهم من أجل صيانة استقلالهم وحريتهم وسيادتهم الوطنية، يحرص على إظهار موقف الشيوعيين اللبنانيين غير القابل للجدل من التضامن العربي في المعركة المشتركة من أجل الحرية والاستقلال والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ومواجهة العدوان الخارجي.

وهو يعلن ذلك في أكثر من مناسبة وفي أكثر من مقال افتتاحي في «صوت الشعب». ويبدو ذلك بوضوح في مقاله الذي نشر في عام ١٩٤٧ في مجلة «الديمقراطية الجديدة» الفرنسية التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي. وكان عنوان المقال «الشرق العربي يتحرك». فهو يستعرض في هذا المقال الأحداث التي كانت تجري في البلدان العربية، بلداً بلداً، ويعلن تضامنه مع الشعب العراقي ضد المؤامرات الاستعمارية التي كان يتعرض لها، ومع الشعب المصري في مقاومته في منطقة القنال ضد الوجود العسكري البريطاني، ومع الشعب الفلسطيني في نضاله من أجل إقامة دولته الوطنية الديمقراطية المستقلة، أسوة بالشعوب العربية الأخرى التي حققت استقلال بلدانها. وكان يدعو إلى وحدة الشعوب العربية في النضال من أجل الحرية والديمقراطية والتقدم. فقد كان موقف الحزب الشيوعي واضحاً منذ البدايات من موضوع الوحدة العربية. يشير إلى ذلك البيان المشترك الذي صدر في عام ١٩٣١، بين الشيوعيين السوريين واللبنانيين والشيوعيين الفلسطينيين. وقد أوردنا في الفصل الخاص بفؤاد الشمالي الفقرة التي تعبّر عن مفهوم الشيوعيين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين للوحدة العربية. وهو مفهوم ديمقراطي متقدم، لم يسبقهم إليه أحد من المنادين بالوحدة العربية.

هذا الموقف الذي كرره الشيوعيون السوريون واللبنانيون في عام ١٩٥٦، ثم بعد قيام الوحدة في عام ١٩٥٨، حرصاً على نجاح الوحدة وديمومتها، قوبل بالقمع من قِبل دُعاة الاندماج. ودفع فرج اللّه حياته ثمناً لذلك.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الحزب كان قد تقدم باقتراح إلى قادة البلدين (مصر وسوريا) يتضمن ثلاثة عشر بنداً، يؤدي الأخذ بها إلى تعزيز الوحدة، من خلال احترام الشروط التي تؤمّن نجاحها كتجربة أولى من نوعها، وتحصّنها ضد خطر التصدّع والانهيار. لكن هذه الاقتراحات رُفضت، واعتُبرت من قِبل أنصار الوحدة الاندماجية شكلاً من أشكال الاعتراض على قيامها من الأساس. وقد

أدّى هذا الرفض لتلك البنود، وتحوّل سلطات الوحدة إلى ممارسة القمع بكل الوسائل الوحشية للمعترضين عليها، وبالأخص الشيوعيين، أدّى ذلك بالحزب إلى اتخاذ موقف معلن وصريح يدعو إلى إعادة النظر في الوحدة من الأساس. وكان من نتائج ذلك الموقف تزايد القمع، الذي كان فرج اللّه من ضحاياه، إلى جانب عدد من الشيوعيين الآخرين الذين اعتقلوا وعذّبوا، من بينهم بيار شدرفيان وسعيد الدروبي، اللذان ماتا تحت التعذيب في أقبية المخابرات.

على أنني، إذ أشير إلى الموقف المبدئي منذ البدايات للحزب الشيوعي من الوحدة، فلكي أؤكد أن عدم حضور خالد بكداش جلسة المجلس النيابي بصفته نائباً عن الحزب، تلك الجلسة المكرّسة لاتخاذ قرار بشأن الوحدة، كان خاطئاً في المبدأ وفي التكتيك السياسي. وكانت لغيابه هذا عن تلك الجلسة آثاره السلبية اللاحقة على الحزب. ونورد هنا فقرة من كتاب «ذكريات ومواقف» ليوسف الفيصل، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي السوري، ورئيس الحزب حالياً، وهي فقرة يتحدث فيها الفيصل عن ذلك الحدث بالتحديد. يقول بالنص:

«يذكر أكرم الحوراني في مذكراته أن خالد بكداش زاره في مكتبه وسأله فيما إذا كان سيسمح له بإعلان رأي الحزب الشيوعي بالوحدة، فأجاب الحوراني بالإيجاب، وأعلن خالد بكداش أنه سيحضر الجلسة. وعقدت الجلسة في اليوم الثاني وغاب عنها خالد بكداش... لقد ألحق غياب خالد بكداش عن هذه الجلسة التاريخية، أثراً سلبياً ومثيراً، رافق مسيرة الحزب طويلاً، ولم تمح آثاره حتى الآن. وقد فتشت في أرشيف الحزب، عسى أن أجد أية إشارة إلى اجتماع بحث فيه الموضوع واتخذ فيه القرار. ولم أجد أي قرار مكتوب، ولكن الدكتور مصطفى أمين الذي رافق هذه المرحلة بأدق تفاصيلها أخبرني بما يلي: مساء الرابع من شباط عقدت القيادة اجتماعاً حضره الرفاق: خالد بكداش، فرج اللّه

الحلو، نقولا شاوي، آرتين مادايان، حسن قريطم، فوزي الشلق، وحضره الدكتور مصطفى أمين نفسه، وناقش الاجتماع موضوع جلسة المجلس النيابي المخصصة لإقرار الوحدة الاندماجية بين سوريا ومصر، وقد أكد الرفاق جميعاً أهمية وضرورة حضور الرفيق خالد بكداش الجلسة، وعارض الرفيق خالد بكداش هذا الرأي، وأصرّ على ضرورة مغادرة البلاد، ولم تفلح جميع الجهود في ثني الرفيق خالد بكداش عن موقفه. وفي صبيحة يوم الخامس من شباط غادر الرفيق بكداش دمشق إلى الاتحاد السوفياتي... إن هناك منعطفات حاسمة في التاريخ. وإذا لم يكن الإنسان أو الحزب أو الجماعة، مستعدة لمجابهة هذه المنعطفات، فإنها ستفقد تأثيرها ويضيع موقفها. وهذا ما وقع مع حزبنا يوم الخامس من شباط من عام ١٩٥٨..».

لكنّ الفيصل يروي في فقرة ثانية وقائع اللقاء الذي حصل بين وفد الحزب القومي والرئيس عبد الناصر. يقول:

«يروي الرفيق جورج عويشق الواقعة التالية: 'في ١٨ كانون الأول ١٩٥٨، كان عبد الناصر في دمشق، واستقبل في قصر الضيافة ممثلين عن الأحزاب السياسية السورية. واستقبل في إطار هذه العملية الرفيقين أحمد محفل وجورج عويشق ممثلين للحزب الشيوعي السوري. وطلب عبد الناصر من الرفيقين إعلان حلّ الحزب الشيوعي السوري، وأبلغهم أن جميع ممثلي الأحزاب التي سبق اللقاء معها وافقت على حلّ نفسها. فردّ عليه الرفيقان، بأنه لا توجد هيئة في الحزب مخوّلة بحلّه، حتى ولا اللجنة المركزية، ولا توجد سابقة في هذا الموضوع، وأن الحزب سيبقى يعمل. دام اللقاء أكثر من ساعة في جوّ متوتّر وانتهى من دون أي اتفاق. وذهب

الرفيقان للتفتيش عن أكرم الحوراني لإبلاغه بما جرى، عسى أن ينقذ الموقف، فردّهما بموقف قاس وخرجت جريدة (الاشتراكي) في اليوم التالي تهاجم الحزب الشيوعي... وواضح أن حل الأحزاب في سوريا يعني إغلاق العمل السياسي وتحويل جماهير الشعب السوري إلى كتلة بشرية يجري تسييرها حسب مشيئة الحاكمين، وواضح كذلك أن حل الأحزاب هذا تدمير للتجربة الديمقراطية الرائعة التي نشأت في سوريا...».

ذلك كان الموقف المبدئي والعملي من الوحدة، كقضية ثابتة في تاريخ الحزب في كل المراحل، أخذاً في الاعتبار أن لكل مرحلة ظروفها وشروطها وأشكال التعبير فيها عن الموقف الملموس من الوحدة. إلا أن الاهتمام بالقضية الوطنية بشقّيها، الاستقلال والوحدة العربية، لم يقلل مقدار ذرّة من اهتمام الحزب بالقضية الاجتماعية. وهو اهتمام رافق الحزب منذ تأسيسه، وكان لفؤاد الشمالي ورفاقه العمّال دور أساسي في ذلك. ومعروف أن الحركة العمالية ازدادت قوة، واتسع نفوذها، وطرحت مهمات متقدمة تتعلق بمصالح العمال. وتمكنت تلك الحركة، التي قادها اتحاد العمال والمستخدمين، من تحقيق أول قانون للعمل في لبنان في عام ١٩٤٦.

وكان من الطبيعي أن تبقى قضية الحرية هاجساً مهمّاً عند فرج اللّه كقائد أساسي للحزب، واتخذت لها موقعاً خاصاً في كتاباته. ذلك أن بوادر الالتفاف على الديمقراطية كانت تبرز منذ السنوات الأولى لحصول لبنان على استقلاله. وكانت انتخابات ٢٥ أيار/مايو لعام ١٩٤٧ المزوّرة المشهد الخطير الذي يعبّر عن ذلك الاتجاه. وقد نال فرج اللّه في تلك الانتخابات أكثر من عشرة آلاف صوت. وكان قد نال في انتخابات ١٩٤٣ الرقم ذاته. ووقع بالوتاج بينه وبين مرشح آخر. لكن الآخر هو الذي فاز بالمقعد النيابي. وقد كتب فرج اللّه حول التزوير الذي رافق انتخابات ١٩٤٧ العديد من المقالات التي حذّر فيها من

الانزلاق في ذلك الطريق. وجاء بالنص في مقال له نشر في أواخر عام ١٩٤٦ تحت عنوان «لبنان سيبقى في واجهة الحرية»:

«. . . فاتّساع الحريات الديمقراطية في لبنان، بعد تحرره من الاحتلال الأجنبي، شرط ضروري لتوطيد استقلاله وتثبيت نظامه الجمهوري، كما هو شرط ضروري لتوطيد الاتحاد والإخاء بين جميع اللبنانيين وإحباط المؤامرات الأجنبية ومحاربة التدخل الأجنبي في شؤون لبنان. ولا يمكن أن يسود الاستقرار الداخلي في البلاد إلاّ على أساس احترام حرية الرأي والفكر وحرية الصحافة والاجتماع وسائر الحريات الدستورية الديمقراطية. ولا يمكن أن تنجح خطة إصلاحية إن لم تكن قائمة على احترام الحرية. ولا يمكن أن تربح حكومة في لبنان ثقة الشعب واحترامه إن لم يكن إطلاق الحرية أساس سياستها الوطنية. ونحن الشيوعيين اللبنانيين موطدو العزم على الدفاع عن الحرية، تراث الآباء والأجداد. ولسنا وحدنا في نضالنا. ففي لبنان نُخبة لها شأنها من كبار رجال السياسة أنفسهم والذين قاموا بدور كبير في الانتصارات التي أحرزها لبنان في عهده الاستقلالي هذا، نواباً وزعماء وكتّاباً وشعراء وأدباء وصحافيين وألوفاً من العمال التقدميين والفلاحين الواعين والشباب، يؤمنون بأن الحرية كانت ويجب أن تبقى طابع لبنان الأساسي. وجميع اللبنانيين يدركون أن قضية الحرية ليست قضية حزب أو هيئة أو كتلة، بل هي قضية الشعب اللبناني كله، قضية الاستقلال والسيادة في الحاضر والمستقبل».

ويعلّق فرج اللّه على الانتخابات المزوّرة التي جرت في ٢٥ أيار/مايو من عام ١٩٤٧ في مقال نشره في جريدة «صوت الشعب» بالكلمات التالية:

«حقاً إنني كلبناني وكعربي لم أشعر بمثل الخجل والخِزي اللذين شعرت بهما أمس لمّا التقيت ببعض المناضلين العرب من فلسطين فقالوا لي: أهكذا تصنعون بلبنان؟ لقد جعلتمونا موضع شماتة المستعمرين والصهيونيين وأتباعهم الذين يتهمون العرب بعدم الأهلية لتفهم الديمقراطية ولممارسة الاستقلال».

ويذهب فرج اللّه في دفاعه عن الحرية إلى اعتبارها مهمة عامة وشاملة لكل قوى المجتمع، وفي المقدمة من هذه القوى المثقفون، معتبراً أن أقدس مهمات الثقافة هي النضال من أجل الحرية، حرية الأفراد وحرية الشعوب. ولا يحصر مهمة دفاع المثقفين عن الحرية في بلدهم، بل يعتبر هذه المهمة عامة وشاملة. لذلك فهو يكتب العديد من المقالات دفاعاً عن حرية الفكر والمفكرين في مصر، وعن حرية الشعب العراقي في النضال ضد القوى التي تريد تكريس ارتباطه بمعاهدات مع المستعمرين، ويحيي انتفاضة الشعب العراقي ضد «معاهدة بورتسماوث» التي أرادت الحكومة العراقية ربط العراق بها. وهي الانتفاضة التي أسقطت الحكومة والمعاهدة معاً، وكان ذلك في مطلع عام ١٩٤٨. لكن فرج اللّه، بما تميّز به من سعة أفق، ومن ربط عميق عنده بين القضايا التي كانت تواجه الحزب في المرحلة التي أعقبت حصول لبنان على استقلاله، أبدى اهتماماً خاصاً بالجانب الثقافي في سياسة الحزب. وكانت مجلة «الطريق» قد بدأت بالصدور في أواخر عام ١٩٤١. واستمر هذا الاهتمام لديه بالثقافة على امتداد حياته. وبرز ذلك في رعايته في عام ١٩٥٢ لمجلة «الثقافة الوطنية». إذ كان يحضر اجتماعات الهيئة المصغرة لتحريرها التي كانت تضم كلاً من حسين مروة ومحمد دكروب وحسن عواضة وعدداً من المثقفين الذين اتخذوا أسماء مستعارة وقّعوا بها مقالاتهم نظراً إلى أنهم كانوا يشغلون وظائف رسمية حسّاسة، بما في ذلك في القضاء. وقد انعكس ذلك الربط بين مختلف القضايا التي تواجه البلاد مزيداً من نفوذ الحزب في مختلف الأوساط.

مجمل هذه المواقف التي أعلنها فرج اللّه من موقعه كرئيس للحزب الشيوعي اللبناني، وكعضو في القيادة المشتركة للحزبين اللبناني والسوري، أثار حفيظة خالد بكداش الذي كان يمارس دور القائد الأعلى للحزب. ذلك أن تلك المواقف كانت قد أعطت فرج اللّه صورة فيها بعض الاختلاف عن الذي كان سائداً في الحركة الشيوعية العربية والعالمية، بمعنى التركيز على الطابع الوطني، بكل المعاني، للانتماء إلى الشيوعية وإلى مرجعيتها الماركسية. وسيظهر ذلك في مواقف لاحقة عند فرج اللّه أدّت به إلى فقدان كل مواقعه في الحزب. ففي أواخر عام ١٩٤٦ طلبت القيادة الحزبية المشتركة من فرج اللّه الذهاب إلى فرنسا، في ما اعتبر معاقبة له على مواقفه المتميّزة المشار إليها آنفاً. ورغم الطابع الانتقامي الذي اتخذه القرار بحقه فإن فرج اللّه قد نفّذه مثلما كان ينفّذ كل القرارات التي كانت تُتخذ بالأكثرية، حتى ولو كان غير موافق عليها. وكان في وداعه على ظهر الباخرة التي أقلّته إلى فرنسا عدد من كبار المسؤولين في الحزب اللبناني والحزب السوري، وفي مقدمتهم خالد بكداش ونقولا شاوي. وربما كان ذلك للتقليل من الآثار السلبية لذلك القرار في وسط القاعدة الحزبية. فقد صدر في اليوم ذاته عن المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني البيان الآتي نصّه:

«عقد المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني اجتماعاً في بيروت حضره كل من فرج اللّه الحلو ونقولا شاوي وفؤاد قازان وحسن قريطم وهاشم الأمين ومير مسعد ويوسف خطار الحلو وأرتين مادايان. وقد تقرر بالإجماع الموافقة على سفر فرج اللّه الحلو إلى باريس ولندن. وقرر المكتب السياسي بالإجماع انتخاب نقولا شاوي رئيساً للحزب الشيوعي اللبناني».

إلاّ أنّ فرج اللّه لم يبقَ أكثر من ثلاثة أشهر في الخارج، عاد بعدها إلى لبنان، بعد أن كان قد حضر مع خالد بكداش مؤتمراً للأحزاب الشيوعية في

بلدان الكومنولث. وقد استقبل فور عودته استقبالاً جماهيرياً من الشيوعيين ومن مناصريهم الكثر.

ويذكر نقولا شاوي في بعض أحاديثه الشفهية لرفاق الجيل الثاني من قياديي الحزب اللبناني، بعد انفصاله عن الحزب الشيوعي السوري، أنه، أي نقولا، ارتكب خطأً فادحاً بموافقته على إقصاء فرج اللّه من موقعه في رئاسة الحزب والحلول محله في ذلك المركز الذي كان يملأه فرج اللّه بامتياز.

إلاّ أن قضية فرج اللّه لا تنحصر في تلك الحادثة التي تشير إلى أساليب ذلك الزمان، الستالينية الطابع. بل هو سرعان ما وقع في مشكلة من نوع آخر، كان مصدرها والسبب في وقوعها ما أشرت إليه من نزعة تجديدية تحررية في فهمه لمعنى أن يكون الإنسان شيوعياً، وأن ينتمي إلى حزب شيوعي في بلده، الذي هو في مثالنا لبنان الخارج حديثاً من الانتداب إلى الاستقلال، والمرتبط، بفعل موقعه، بمحيطه العربي، تاريخاً وثقافة ومصالح مشتركة في النضال من أجل التحرر والتقدم. وكانت المشكلة هذه المرة ذات صلة بالقضية الفلسطينية. فعندما اتُّخذ قرار تقسيم فلسطين في الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧، بموافقة الاتحاد السوفياتي، صدر بيان مشترك من الأحزاب الشيوعية المشرقية بالموافقة على قرار التقسيم. وكان لفرج اللّه الحلو تحفُّظ حول موافقة الحزب الشيوعي اللبناني السوري على ذلك القرار، لكونه ينال من حقوق شعب فلسطين، معتبراً أن للاتحاد السوفياتي ظروفه ومصالحه واعتباراته التي يقدّرها هو ويتحمل مسؤوليته فيها. لكنّ فرج اللّه تحفّظ ثم صوّت. أما رشاد عيسى سكرتير الحزب السوري فقد أصرّ على موقفه برفض القرار معتبراً أن الموافقة عليه خطأ سياسي. ورفض عيسى أي تراجع عن موقفه. ورفض تقديم أي نقد ذاتي، بخلاف فرج اللّه الذي أذعن لقرار قيادة الحزب، وكتب نقداً ذاتياً أدان فيه موقفه، وبالغ في الحديث عن الجذور البرجوازية في أفكاره التي قادته إلى اتخاذ ذلك الموقف. وقد أصبح ذلك النقد الذاتي معروفاً بـ«رسالة سالم». وكان إصرار رشاد عيسى

على موقفه سبباً في خروجه من الحزب. وظل خارج الحزب إلى أن توفّي. ويقال إن فرج اللّه لم يكن يرمي إلى اتخاذ موقف عدائي من الاتحاد السوفياتي. يضاف إلى ذلك، في تبرير فرج اللّه لموقفه، أن كل سياسة الحزب وكل مواقفه كانت على امتداد أعوام طويلة، لا سيما في الفترة التي سبقت قرار التقسيم، تندّد بالتقسيم وتعتبره مشروعاً استعمارياً. ونشير هنا إلى البيان الذي صدر عن قيادة الحزب في ١٣ من شهر كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٤٧، أي بعد أقل من شهر من صدور قرار التقسيم. وننقل العناوين التي تصدّرت الصفحة الأولى من البيان:

بيان من المكتب السياسي للحزب الشيوعي اللبناني

تضامن الشعوب العربية مع فلسطين
يمكن أن يحبط قرار التقسيم

*

إلى اليقظة والحذر لإفشال المؤامرات الأجنبية الموجّهة لتنفيذ التقسيم، وتفريق صفوف العرب، والقضاء على استقلال سوريا ولبنان

*

إلى الاتحاد والنضال لأجل صون الحرية في لبنان
والدفاع عن الخبز والاستقلال

كان هذا الموقف الذي عبّر عنه البيان الآنف الذكر يقضي بألاّ يتغيّر موقف الحزب إلى نقيضه لمجرّد أن الاتحاد السوفياتي غيّر موقفه، لأسباب كان يبرّرها القادة السوفيات بتفاقم الصراع بين العرب واليهود، أي من دعوتهم الأولى إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة لسكانها العرب واليهود إلى الموافقة على قرار

التقسيم، الذي اشترط السوفيات أن تُتخذ خطوات لاحقة لإنشاء اتحاد فدرالي بين الدولتين وصولاً إلى إنشاء دولة فلسطين ثنائية القومية. لكن كل تلك التبريرات التي قدّمها فرج اللّه بعدم التبنّي الحرفي لقرار التقسيم لم تقنع القوى المسيطرة داخل الحزبين اللبناني والسوري، بقيادة خالد بكداش. وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحفّظ فرج اللّه على قرار التقسيم ترافق ومواقف انتقادية له في قيادة الحزب في سوريا ولبنان، مواقف كانت تتهمه أحياناً بانعزالية لبنانية. وكانت تتهمه في أحيان أخرى بميول برجوازية صغيرة، وباعتداد مفرط بالنفس، وبفقدان الروح الثورية، وبضعف الثقافة الماركسية. وبدأت عملية تجريده من المسؤوليات الحزبية تحصل بالتدريج، وصولاً إلى المحاكمة الحزبية التي جرت له في نهاية الأربعينيّات، وتوّجت برسالة سالم (اسم فرج اللّه السرّي في حينه). وهي رسالة النقد الذاتي التي أمليت عليه أفكارها إملاءً. وفُرض عليه أن يكتبها عدّة مرّات لكي تأتي متطابقة مع ما كان مطلوباً منه بالتحديد، لإذلاله. والشاهد الحيّ على ذلك الأمر هو غسّان الرفاعي، الذي كان في ذلك الحين مكلّفاً طبع بيانات الحزب السرّية وبعض وثائقه في مكان إقامته السرّية. وهو المكان الذي كان يلتقي فيه قيادة الحزب. وكانت هذه الرسالة والظروف التي أحاطت بها وبفرج اللّه الحلو النموذج الصارخ لهذا النمط الستاليني في معاقبة الخارجين عن سلطة القائد الأوحد. واستناداً إلى هذه الرسالة جُرِّد فرج اللّه من كل مسؤولياته، وفُرض عليه أن يتحوّل من قائد سياسي أساسي في الحزب إلى مجرّد مترجم لمجلة الحركة الشيوعية العالمية في ذلك الحين: «في سبيل سلم دائم في سبيل ديمقراطية شعبية».

ومعروف أن السلطات في سوريا ولبنان حلّت الحزبين وأقفلت الجريدة الناطقة باسمهما «صوت الشعب» عقاباً للحزبين على موافقتهما على قرار التقسيم. وكان الحزبان قد أدانا تواطؤ الحكومات العربية في ما سُمّي الحرب العربية، التي خاضتها ستة جيوش ومعها جيش شعبي، جيش الإنقاذ، لمنع تطبيق

قرار التقسيم. فانهزمت هذه الجيوش جميعها هزيمة نكراء أمام العصابات الصهيونية. فتكرّس، بفعل هذه الهزيمة التي أعطيت صفة «النكبة» في الأدبيات السياسية العربية، قيامُ دولة إسرائيل. واستكملت الحكومات تواطؤها المشار إليه بعد هزيمتها بمنع الشعب الفلسطيني من إقامة دولته على الجزء من أرض فلسطين الذي يشير إليه قرار التقسيم. وكانت حجة الحكومات في ذلك متابعة الحرب فيما بعد لإزالة إسرائيل وإقامة دولة فلسطينية على كامل أرض فلسطين. وعملت على توزيع ما تبقّى من أرض فلسطين بين مصر، قطاع غزّة، والأردنّ، الضفّة الغربية. أما الشيوعيون اللبنانيون فقد عوقبوا على موقفهم المشار إليه، أي الموافقة على قرار التقسيم وانتقاد خيانة الحكومات العربية في الحرب وتحمّلها مسؤولية «النكبة»، باعتقال عدد كبير من قادتهم وكوادرهم في معتقل خاص في بعلبك. وفي ما يلي أسماء الذين شملهم الاعتقال من كوادر الحزب: يوسف خطّار الحلو وفاروق معصراني ومحمد عدرة وسميح علم الدين ورينيه غنطوس وموريس دوماني ومصطفى مراد وأحمد المير الأيوبي وحليم خياطة وأكرم عويضة ومحمد الديب ورضى الراضي وحنا الهراوي وعثمان الشركسلي ومتري حلاّج وحنّا الزرقا وعبد اللطيف حمادة وبارور يرتسيان وبيرام اللزيان وستراك عباجيان وسلام الراسي، الذي كان قد ترك الحزب في حينه، وكان مؤيداً لقرار التقسيم فاعتقل بسبب موقفه. أما مصطفى العريس فقد اعتُقل بعد خروجه من اجتماعات مؤتمر الأونسكو. في حين أن المظاهرة التي جرت على أبواب الأونسكو كان يقودها نسيب نمر. وقد اعتُقل نمر مع عدد من المتظاهرين. وإذ انضم العريس إلى معتقلي بعلبك، فإن نسيب نمر والمعتقلين الآخرين في المظاهرة دخلوا سجن بيروت. وقد ساهم في حملة الاعتقالات ضد الشيوعيين رياض الصلح الذي كان في فترات سابقة صديقاً وحليفاً للشيوعيين في النضال من أجل الاستقلال ومن أجل تحقيق الجلاء.

كان فرج اللّه من أغزر الذين كتبوا حول القضية الفلسطينية إنتاجاً، ومن

أشدّهم تنبيهاً إلى المخططات الاستعمارية والصهيونية، وتنديداً بها ورفضاً لوعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وكان من أبرز الذين اعتبروا أن فلسطين عربية وأن حصول الشعب الفلسطيني على استقلال بلاده وإقامة دولته الفلسطينية عليها هو حق شرعي له لا ينازعه فيه أحد، آخذاً في الاعتبار وجود أقلّية يهودية، لها الحق في الوجود، ضمن الدولة الفلسطينية المنشود قيامها. يقول فرج اللّه في مقال له نُشر في عام ١٩٤١ بالنص:

«... والصهيونية بحكم كونها حركة استعمارية فهي تناقض أهداف العرب التحررية الاستقلالية على خط مستقيم. فهدفها السياسي هو خلق نقطة ارتكاز متينة للنفوذ الاستعماري الأجنبي في فلسطين أولاً، ونقاط ارتكاز أخرى أو طابور خامس للاستعمار في بقية الأقطار المجاورة، يستخدمها ضد الحركة العربية الوطنية. ومن هنا أيضاً خطر الصهيونية في الوقت الحاضر على الحقوق الوطنية التي نالها كل من لبنان وسوريا والبلاد العربية بدرجات مختلفة، وخطرها في المستقبل القريب على نضال العرب في سبيل استكمال معالم استقلالهم والتحرر من كل نفوذ أجنبي. ولذلك فتضامن العرب في مختلف أقطارهم مع فلسطين لم تدفع إليه العاطفة الأخوية فقط، ولم تدفع إليه اعتبارات أخلاقية وحقوقية فحسب، بل أيضاً وقبل كل شيء تضامن وطني في النضال ضد عدو واحد يهدد مصالح العرب جميعاً تهديداً مباشراً شديداً. ولعلَّ أقرب بلد عربي يتناوله الخطر الصهيوني هو لبنان. فقد كان هذا القُطر الخصب الجميل محط أنظار الصهيونيين والاستعماريين، وهدف مطامعهم. وقد أخذ الرأسمال الصهيوني، لا سيما خلال هذه الحرب، يتسرب هنا وهناك في بعض المرافق والصناعات اللبنانية، متستراً بأستار متنوعة. لقد كنا وما زلنا نقول إن نضال العرب في فلسطين ضد

الصهيونية هو نضال سياسي، نضال وطني ضد شكل من أبشع أشكال الاستعمار الأجنبي. وجميع العرب في لبنان وفي كل مكان يعتبرون نضال فلسطين هذا جزءاً من نضالهم الوطني جميعاً في سبيل تحرر أقطارهم وسيادتهم واستقلالها».

ويقول فرج اللّه بالنَّص في الكلمة التي ألقاها في الاجتماع الذي تأسس فيه في عام ١٩٤٤ اتحاد الأحزاب اللبنانية المناهضة للصهيونية:

«إذا اتحدت أحزاب لبنان المتعددة وهيئاته المتنوعة ونقابات عماله الكثيرة لمكافحة الصهيونية، وإذا أقبل اللبنانيون اليوم إلى هذا الاجتماع الذي يعقده اتحاد الأحزاب اللبنانية احتجاجاً على وعد بلفور المشؤوم وعلى المحاولات الرامية إلى تجديد هذا الوعد وبعثه إلى الحياة، فذلك لا يُعدّ مظاهرة للعدل على الظلم والحق على الباطل فقط، ولا مظاهرة لمتانة التضامن العربي والإخاء بين فلسطين ولبنان وحسب، بل هو، قبل كل شيء وأكثر من كل شيء، مظاهرة لبنانية ديمقراطية للدفاع عن أرض لبنان وكيان لبنان وسيادة واستقلال لبنان. أقول ذلك لأن الصهيونية ليست خطراً موضعياً سيتناول بُقعة دون غيرها من هذا الشرق العربي، بل هي حركة رجعية استعمارية غرضها جعل فلسطين رقبة جسر للاستعمار ولكل استعمار أجنبي، يبسط فيها نفوذه الاقتصادي والسياسي وسيطرته على جميع الأقطار العربية وما جاورها من بلاد الشرق».

ويضيف بالنص إلى ما سبق تأكيداً على مخاطر إنشاء دولة يهودية في فلسطين، في مقال نشره في عام ١٩٤٦ ما يلي:

«أما مشروع إنشاء دولة صهيونية أو وطن قومي لليهود في فلسطين فهو يشكل اعتداءً صارخاً على حقوق فلسطين. كما أنه لا

يؤدي لا إلى حلّ القضية الفلسطينية ولا إلى حلّ ما سمّوه القضية اليهودية المزعومة. بل هو يزيد الموقف تعقيداً وخطورة. إذ يساعد على استمرار جو العداء والحذر المتبادل بين سكان فلسطين أنفسهم، من جهة، وبين الدول العربية والدولة الصهيونية الاصطناعية، من جهة ثانية».

لم يكن بمقدور فرج اللّه، كما أتصوّر اليوم، من دون معرفة رأيه الحقيقي، أن يتراجع عن مواقفه تلك في رفضه قيام دولة يهودية في فلسطين، بمجرّد أن الاتحاد السوفياتي اتخذ قراراً في الاتجاه المعاكس. وكان يستند في ذلك، كما أتصوّر ذلك اليوم أيضاً، إلى ما كان قد سبق للحزب ولفرج اللّه بالذات أن اتخذوه من مواقف واضحة بعد قرار التقسيم قبل أن يُطلب منهم من قِبل السوفيات إصدار ذلك البيان التاريخي باسم الأحزاب الشيوعية في المشرق العربي بالموافقة على قرار التقسيم. وكان فرج اللّه يرى بحسّه العميق مدى الأثر السلبي الذي كان سيتركه على الحزب ذلك الموقف الخاطئ في حينه بالموافقة على قرار التقسيم، والتراجع الكامل عن المواقف السابقة المعترضة على ذلك القرار. وقد حصل بالفعل ما كان يخشاه فرج اللّه. وحين وافق على كتابة رسالة النقد الذاتي فإنه فعل ذلك تلافياً منه لاحتمال وقوع مشكل في الحزب، وتمسكاً بعضويته فيه، وليقينه بأن الظروف ستتغير في زمن لاحق قريب، فيعود عندئذ إلى موقعه، ويعيد معه الحزب إلى ذلك الموقف. وبالفعل فقد عاد فرج اللّه إلى موقعه القيادي، لكن في صورة مختلفة. ففي المرحلة التي أعقبت دخول الحزبين اللبناني والسوري في السرّية، ذهبت أدراج الرياح كل الاعتبارات التي كانت في أساس تشكيل حزبين. إذ صار الحزبان حزباً واحداً بقيادة جديدة واحدة هي قيادة خالد بكداش. وكان بكداش شخصية كبيرة في كل من البلدين. وكان زعيماً وطنياً حقيقياً. وكان حضوره مميزاً في كل من البلدين. كما كان قد أصبح شخصية شيوعية عالمية، فضلاً عن كونه قد أصبح الشخصية الشيوعية الأولى

على الصعيد العربي. وقد أهّله لذلك، إلى جانب سطوته الستالينية، كفاءاته السياسية وثقافته الواسعة وشخصيته القوية.

ورغم أن الحزب كان قد اتخذ قرارات عدة في استقلال الحزبين اللبناني والسوري في سياساتهما وفي نشاطهما، فإن بكداش ظلّ يعطّل تلك القرارات، ليظل محتفظاً بسطوته على الحزب في البلدين. وقد أدّى ذلك، خلال النصف الأول من الخمسينيّات، إلى التركيز في سياسة الحزب على سوريا، انطلاقاً من الفكرة التي سادت خلال تلك الفترة بأن الثقل الأساسي في الحركة الوطنية والديمقراطية في المنطقة هو سوريا. فانتقلت القيادة الأساسية للحزب اللبناني إلى سوريا، وانصبّ اهتمامها على الوضع في سوريا. واستلم القيادة في لبنان حسن قريطم وصوايا صوايا وآرتين مادايان ويوسف خطار الحلو. واستمر الوضع على هذا النحو إلى أن تم انفصال الحزبين قسراً، في عام ١٩٦٤، بدلاً من أن يتم بتطبيق القرارات التي تكرر اتخاذها منذ المؤتمر الوطني الأول للحزب في عام ١٩٤٣، وفي عام ١٩٥٦، ثم في عام ١٩٥٨.

في عام ١٩٥٤ أتيحت لي أول فرصة للالتقاء بفرج اللّه الحلو. كنت قادماً إلى بيروت من مركز عملي في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في بودابست، حيث كنت أمثل في قيادة ذلك الاتحاد الشبيبة الديمقراطية العربية. استقبلني فرج اللّه في شكل سري للغاية، في أحد الشوارع الضيقة في شرق العاصمة بيروت. أخبرته بمهمتي الشبابية الأممية. واستمعت إلى نصائحه. ثم عدت فالتقيته بعد أيام في دمشق في منزل خالد بكداش، الذي كان قد انتُخب نائباً في دمشق بعد سقوط حكم أديب الشيشكلي الدكتاتوري العسكري وانتقال سوريا إلى النظام الديمقراطي. وكان لقائي ببكداش في ذلك الوقت أول لقاء مباشر معه. استقبلني بكداش والحلو بحفاوة. وجلست أحدثهما عن انطباعاتي عن المجر وعن العمل في الاتحاد، وعن أمور سياسية وفكرية كانت تمتلئ بها جعبة الشاب القادم من مركز أممي إلى حزبه ووطنه. وكان ذلك اللقاء مصدر اعتزاز بالنسبة إليَّ،

تحدثت عنه طويلاً إلى أصدقائي ورفاقي. ثم عدت فالتقيت فرج اللّه في مدينة سوتشي السوفياتية على البحر الأسود في صيف عام ١٩٥٧، حيث كنت أقضي فترة إجازتي الصيفية. أما هو فكان خارجاً من الاجتماع الأول للأحزاب الشيوعية الذي عُقد في موسكو في ذلك التاريخ، الاجتماع الذي هيّأ الشروط للانقسام الكبير في الحركة الشيوعية بين المعسكر السوفياتي والمعسكر الصيني. لكنّ فرج اللّه لم يحدثني عن ذلك الاجتماع، الذي علمت به وعرفت بعض أسراره من أصدقائي في الاتحاد، الهنود والإيطاليين على وجه الخصوص.

عاد فرج اللّه بعد تلك النكسة التي أصابته بسبب موقفه من قرار التقسيم إلى الصعود مجدداً في مراتب الحزب العليا. وعادت معه تقاليده في التعبير عن مواقفه في شكل مختلف هو الشكل الذي كان قد اختاره منذ وقت مبكر، أي الشكل الذي يحدد فيه فهمه الصحيح للانتماء إلى الشيوعية وإلى مرجعيتها الماركسية، والذي يراعي فيه ظروف بلاده، ليس في مستوى تطورها الاقتصادي والاجتماعي وحسب، بل كذلك في كل ما يتصل بالثقافة وخصوصياتها القديمة والحديثة. وكان أول بروز علني لعودة فرج اللّه إلى موقعه في القيادة وجود اسمه إلى جانب نقولا شاوي وحسن قريطم وآرتين مادايان في التوقيع على البيان الموجّه إلى الشعب اللبناني الذي صدر في عام ١٩٥٤ تحت عنوان: «في سبيل حكومة وطنية ديمقراطية». وبدأت بعد ذلك التاريخ تطرح شعارات واضحة وصريحة، إلى جانب مناهضة الأحلاف الاستعمارية، تدعو إلى محاربة الصهيونية ورفض الصلح مع إسرائيل: «لا أحلاف عسكرية، لا صلح مع إسرائيل».

ومعروف أن فترة الخمسينيّات قد شهدت تطورات عاصفة في المنطقة وفي العالم. أبرز تلك التطورات في المنطقة كان قيام ثورة يوليو الناصرية، ثم تأميم قناة السويس، والعدوان الثلاثي الذي تعرّضت له مصر، والإنذار السوفياتي المعروف بإنذار بولغانين الذي، بالاشتراك مع الموقف الأميركي برئاسة أيزنهاور، فرض على المعتدين الانسحاب من مصر خاسرين. وفي تلك الفترة بالذات برز

مشروع أيزنهاور كأحد المشاريع الاستعمارية التي تستهدف المنطقة، بعد حلول أميركا محل بريطانيا وفرنسا إثر هزيمتهما في حرب السويس. أما أبرز الأحداث على الصعيد العالمي فتمثل بوفاة ستالين وصعود خروتشوف إلى موقع الزعيم السوفياتي الأول بعد ستالين، ثم انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي الذي شكلت قراراته ثورة في الحركة الشيوعية العالمية في اتجاه التحرر من القيود الستالينية السابقة والتجديد في فهم الاشتراكية وفي تعدّد طرق الانتقال إليها وتعدّد نماذجها. وفي ظل تلك التطورات، وانسجاماً معها وارتباطاً بها، جرت تحوّلات في سياسة الحزب السوري اللبناني في اتجاه الانفتاح على القضايا العربية والدولية.

في ذلك المناخ الجديد في الحركة الشيوعية عُقد اجتماع موسّع للجنة المركزية في عام ١٩٥٦ للبحث في مجمل القضايا التي تهمّ الحزب، المحلية منها والعربية والدولية. واتُّخذت قرارات جديدة ذات أهمية كبيرة تتعلق بالقضية الفلسطينية، وبقضية الوحدة العربية، لجهة التأكيد على أهميتها كقضية مشتركة للشعوب العربية، لكن على قاعدة الديمقراطية، في ما يشبه التذكير بما كان قد اتخذه الحزب في عام ١٩٣١ في بيان مشترك مع الحزب الشيوعي الفلسطيني. وهو البيان الذي أشرت إليه آنفاً. كما اتخذت قرارات أخرى هامة في ذلك الاجتماع، اجتماع ١٩٥٦، تتعلق بالمهمات الخاصة بكل من الحزبين في لبنان وسوريا. وكان الموقف من قضيتي فلسطين والوحدة هو الأساس في السياسة التي سلكها الحزب في الأعوام اللاحقة، بما في ذلك في فترة الوحدة المصرية - السورية. وكان بين تلك القرارات قرار يدين ظاهرة عبادة الفرد، التي كانت سائدة في الأحزاب الشيوعية، تقليداً للدور الذي كان لستالين في الاتحاد السوفياتي وفي مجمل الحركة الشيوعية. والغريب في هذا القرار أنه، إذ يدين الظاهرة، فإنما يحمّل مسؤولية وجودها إلى الرفاق في قيادة الحزب، كبارهم وصغارهم، ويبرّئ القائد المعبود من المسؤولية عنها. وكان فرج الله من الذين

وافقوا على القرار، وساهموا في صياغته. وتلك كانت إحدى مفارقات شخصية هذا القائد، أسوة بسواه من القادة الشيوعيين في ذلك العصر.

في أواخر عام ١٩٥٧ عدت من عملي في اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي. وسرعان ما تلقيت دعوة للذهاب إلى دمشق للعمل في جريدة الحزب «النور» التي كان يرأس تحريرها فرج الله الحلو. وقد استقبلني فرج الله كعادته بحفاوة. وطلب مني أن أكون شريكاً له في العمل في الجريدة، حاملاً معي كل ما اكتسبته من تجربة في عملي في تلك المنظمة العالمية. إلاّ أنه نبّهني إلى ضرورة أن أكون واقعياً، وألاّ أنقل تجربة غربية في شكل ميكانيكي إلى العمل في بلد عربي مختلفة فيه الظروف عن البلدان الأوروبية. وكانت تجربة العمل معه غنية. إذ كان يعلّمني الكتابة الصحفية المكثفة الواضحة، التي تختلف عن الكتابة الأخرى، بسبب خصوصيتها، من حيث كونها تتطلب إيصال الموقف ببساطة، ومن دون تعقيد، وبأكثر ما يمكن من الوضوح وبأقل ما يمكن من الكلمات. وبفضل نصائحه وتوجيهاته تحوّلت في ما بعد إلى كاتب افتتاحيات قصيرة في الصحف الحزبية التي عملت فيها عدة سنوات في الستينيّات والسبعينيّات وما بعدها.

ثم دخلت سوريا في الوحدة مع مصر في ذلك الشكل المتسرّع الذي لم يُخضِع القرار بإعلانها للوقت الكافي من الدرس لكي تتمكن من النجاح والاستمرار، كخطوة أولى في طريق الوحدة العربية المنشودة. وأدّى ذلك التسرّع إلى الخلل الذي قاد الوحدة إلى الانهيار. وكان من مآسي تلك المرحلة دخول الشيوعيين في حالة صراع مع دولة الوحدة ومع الرئيس عبد الناصر، بسبب موقفهم الذي عبّروا عنه في البنود الـ ١٣، التي كانوا يرمون من ورائها إلى جعل هذه الوحدة أكثر ديمقراطية وأكثر احتراماً لخصوصيات البلدين، لكي تكون قادرة على الحياة. ومعروفة النتائج لذلك الصراع بين الحزب الشيوعي وقادة الوحدة ولا سيّما منهم الرئيس جمال عبد الناصر، وكان فرج الله الحلو الضحية الأساسية لهذا الصراع. ولم يكن الرئيس عبد الناصر على علم باعتقال فرج الله، كما قال

لكل من تيتو ونهرو اللذين تدخّلا لمعرفة مصير فرج اللّه، معتبراً أن عبد الحميد السرّاج، وزير الداخلية في ذلك الحين، هو الذي وضع دولة الوحدة والرئيس عبد الناصر في إحراج كبير باعتقال ذلك القائد الشيوعي اللبناني. إلا أن الذين عذّبوا فرج اللّه حتى الموت اضطروا إلى الاعتراف بالجريمة خلال المحاكمة التي جرت لهم في أعقاب الانفصال. وكان قرار الاتهام الذي أصدرته النيابة العامة واضحاً. كما أصدر قبل بضعة أعوام أحد المساهمين في اعتقال فرج اللّه (سامي جُمعة) كتاباً يروي القصة الكاملة حول اعتقال القائد الشيوعي، لكن على طريقته هو، وبكثير من التصرّف، من دون أن يتجاوز الحقيقة في موضوع الاعتقال والتعذيب حتى الموت وتذويب جسد فرج اللّه بالحامض الكبريتي لإخفاء الجريمة وآثارها. غير أن تحميل السرّاج المسؤولية عن قتل فرج اللّه الحلو لا يلغي المسؤولية عن الرئيس عبد الناصر الذي كثرت في تلك المرحلة خطبه التي يتهم فيها الشيوعيين بالخيانة. بل إن الرئيس عبد الناصر ذاته حاول تبرئة أجهزة مخابرات الجمهورية العربية المتحدة في سوريا عندما قال بصراحة إنه لا يعلم بوجود شخص اسمه فرج اللّه الحلو معتقلاً في السجون السورية. وكان للشهيد فرج اللّه الحلو رفاق في الشهادة في مصر، كان أبرزهم أحد قادة الحركة الشيوعية شهدي عطية الشافعي الذي قضى تحت التعذيب في إحدى زنزانات تلك الحقبة من تاريخ مصر.

وكانت قد تشكّلت لجنة عالمية للدفاع عن فرج الله الحلو، ضمّت أربعين شخصية سياسية وثقافية من ٢٠ بلداً. وزار وفد من هذه اللجنة لبنان عام ١٩٦١، حيث أجرى سلسلة من اللقاءات مع المسؤولين في الدولة بينهم رئيس الجمهورية ومع العديد من الشخصيات اللبنانية. وكنت قد كلفتُ بأن أرافق الوفد في لقاءاته واتصالاته. وكان الوفد مؤلفاً من شخصين: السيناتور الاشتراكي الإيطالي ماريو برلنغور، والد أنريكو برلنغور الذي أصبح فيما بعد، أي أنريكو، الأمين العام للحزب الشيوعي الإيطالي، والكاهن الكاثوليكي الفرنسي الأب بيار. وقد كان

لزيارة الوفد وللجنة العالمية دور مهم في الكشف عن حقيقة اعتقال فرج الله الحلو وعن الطريقة التي تمّت فيها تصفية جسده كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

كان فرج اللّه خلال فترة طويلة مسؤولاً عن الحزب في سوريا. وكان ذلك واحداً من تقاليد الحزب في البلدين. إذ كان يرسل قادة من كلا البلدين إلى البلد الآخر بهدف تعميق الوحدة السياسية والفكرية والتنظيمية داخل صفوف الحزب. لكن فرج اللّه كان ينتقل بين البلدين، ذهاباً وإياباً، لا سيما خلال فترة الوحدة.

اختلف الحزب مع دولة الوحدة حول طريقة إقامتها. لكن الحزب دعا جماهيره إلى الاشتراك في مظاهرات التأييد لها. وقدِمت وفود حزبية جماهيرية من لبنان لتحية الرئيس عبد الناصر عندما زار دمشق. كما أمّت دمشق من كل أنحاء سوريا جماهير حزبية للغرض ذاته. لكن الخلاف بدأ عندما امتنع خالد بكداش عن حضور جلسة المجلس النيابي السوري التي أقرّت الوحدة، وازداد الشرخ بين دولة الوحدة والحزب الشيوعي بعد أن صدر عن الحزب البيان المشهور ذو البنود الثلاثة عشر الذي يتضمن اقتراحات ترمي إلى تصحيح الوحدة من أجل ترسيخها وثباتها. ثم صار ما صار من صراع، ثم من انهيار للوحدة بعد ثلاثة أعوام من قيامها. وكان للذين شاركوا في قيامها من دُعاة الوحدة الاندماجية من السوريين دور أساسي في وأدها. وكان البعثيون في مقدمة هؤلاء الانفصاليين. لكنهم ظلوا يعتبرون أنفسهم وحدويين، وظلوا يعتبرون الشيوعيين انفصاليين.

ظلّت علاقتي بفرج اللّه تتطور خلال تلك الفترة إلى أن أصبحتُ واحداً من أكثر الرفاق اللبنانيين من الجيل الجديد ارتباطاً به. وعندما أصدر الحزب جريدة «النداء» اليومية في مطلع عام ١٩٥٩ دعاني فرج اللّه، الذي كان المسؤول الأول عن سياستها، إلى أن أكون عضواً في هيئة تحريرها. وكانت لي زاوية يومية كنت أتناول فيها قضايا عربية ودولية. وكان كلما أعجب بمقالة من تلك المقالات يأتي إليَّ مهنئاً ومشجعاً. وقبل يومين من مغادرته بيروت إلى دمشق في واحدة من

رحلاته المتكررة إليها للقيام بمسؤولياته الحزبية، جاءني فرج اللّه مهنئاً إياي على مقال أذكر أنه كان يتعلق بأحداث ذات صِلة بولاية كرالا الهندية التي كان يتولى قيادتها الحزب الشيوعي في ذلك الحين. لكنني فوجئت بعد يومين بالخبر الفظيع: اعتقال فرج اللّه في دمشق. وكانت تلك نهاية ذلك القائد الشجاع، الذي تميّز بالجرأة في قول ما كان يعتقد أنه الموقف الصواب. وتميّز في رغبته في التجديد في الفكر وفي السياسة وفي أشكال التنظيم. وتميز بالتحديد الدقيق للوطنية اللبنانية التي لا تتعارض، بل تكمل بشكل صحيح، الالتزام بالموقف العربي المشترك. وتميّز بأخلاق رفيعة، وبدماثة قلّ نظيرها، وبعلاقة إنسانية يصعب أن توجد عند الزعماء الكبار، سواء داخل الأحزاب أم على مستوى السلطات الرسمية.

هذا هو فرج اللّه الحلو، وتلك هي ملحمة حياته. وتشير سيرة هذا القائد، وسيرة قائد آخر من النمط ذاته هو كمال جنبلاط، وسيرة آخرين من الكبار في لبنان، كم أن لبنان الحديث، لبنان ما بعد الحرب الأهلية على أقلّ تقدير، لبنان الزمن الحالي، زمن الاستقلال الثاني، يفتقد في هذه الظروف الصعبة الراهنة أمثالهم من أجل إعادة صياغة مشروع بناء وطن لبناني حقيقي، ديمقراطي تعددي، ومن أجل تحرير المجتمع اللبناني من الآفات العديدة التي تفتك به من جرّاء هيمنة الطائفية على مصائر السياسة فيه، ومحاولات تحكيم الخارج في مصيرنا، الخارج بكل تنويعاته، الشقيق منه والصديق والعدو، القريب من حدودنا والبعيد منها، على حدّ سواء. وهذا التحكم الخارجي في مصير لبنان إنما تستدعيه قوى طائفية بعينها، وتمنع بذلك قيامة لبنان الوطن، بعد كل الأعوام السابقة من تاريخه، الحافلة بالانقسامات والصراعات وبالحروب الأهلية على اختلاف أنواعها، وبالحروب مع إسرائيل، حتى بعد تحرير أرضنا من احتلال قواتها لها.

إن لاستحضار سيرة فرج اللّه الحلو الملحمية أهمية خاصة في هذا المنعطف الصعب في تاريخ لبنان الحديث.

نقولا شاوي

يختلف نقولا شاوي عن كثيرين ممن قادتهم ظروف تاريخية معيّنة إلى تبوّؤ مراكز قيادية في أحزابهم، ولعبوا أدواراً سياسية مرموقة في بلدانهم. وفي ظني فإن من الممكن تعميم هذا الاختلاف في شخصية نقولا شاوي، متجاوزاً في ذلك حدود بلداننا العربية إلى بلدان أخرى من شتى الأنواع، ومن شتى المستويات في التقدم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري. والاختلاف الذي أشير إليه عند نقولا شاوي، بالمقارنة مع زملائه في قيادات الأحزاب السياسية، الشيوعية وسواها، إنما يتمثل في أن المكوّن الأساسي لشخصيته، قبل الجانب السياسي فيها، هو الجانب الثقافي الفائق الغنى المطعّم بموقف إنساني عميق الأغوار. وكان قد بدأ يبرز هذا الجانب في شخصيته منذ السنين الأولى من شبابه، أي في المرحلة المتوسطة من دراسته. وتكرّس ذلك الجانب بوضوح في المرحلة الثانوية. ولم تستطع أن تقلل من أهمية هذا الجانب في شخصيته السنوات اللاحقة التي أصبح فيها، بالتدرّج السريع، واحداً من القياديين الأساسيين في الحزب الشيوعي السوري اللبناني، مع خالد بكداش وفرج اللّه الحلو وآخرين ممن كانوا، في المرحلة التي صعد فيها شاوي إلى مواقع القيادة في الحزب، شخصيات سياسية مرموقة في كل من لبنان وسوريا. أسوق كلامي هذا استناداً إلى ما توفّر عندي من معرفة مباشرة بشاوي على امتداد ما يقرب من

ثلاثة عقود. إلا أن السياسة في بلداننا، في الشروط التاريخية التي عرفتها قديماً وحديثاً، كانت تغطي، من دون أن تطغى، الجوانب الأساسية الأخرى في حياة الأفراد المتميزين المرموقين في بلدانهم.

إن هذا الاختلاف في شخصية نقولا شاوي هو الذي يجعل الكتابة عنه تتجاوز، من دون أن تلغي، الجانب السياسي والحزبي في حياته، لتركّز على الجوانب الأساسية المشار إليها في شخصيته، الثقافية والإنسانية، متّحدة اتحاداً عميقاً وراسخاً.

وأبادر إلى القول، قبل أن أبدأ الحديث عن نقولا شاوي، إنه سيكون من المتعذر قطعاً إيفاء هذه الشخصية اللبنانية العربية المرموقة حقها، إذا ما قورن هذا الحديث بما سجّله شاوي في كتابه الوحيد «طريقي إلى الحزب» من تفاصيل مذهلة في دقّتها وغناها وشمولها عن سيرته الأولى، التي قادته إلى أن يصبح عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني، وهو في العشرين من عمره. فهذا الكتاب، الشديد المتعة لغةً وثقافةً وتفاصيل سياسية واجتماعية وإنسانية وتاريخية عن مرحلة كاملة من حياة لبنان وسوريا والمنطقة العربية، إنما يشكّل في نظري قراءة عميقة التحليل لتاريخ حِقبة تمتد إلى عدة قرون. إذ يبدأ شاوي كتابه بالحديث في تكثيف لا يخلّ بالوقائع عن الحقبة العثمانية. ثم ينتقل بعد ذلك، وبالتوالي، إلى مرحلة الحرب العالمية الأولى، ثم إلى المرحلة التاريخية في بلداننا التي انتهت بانتهاء الأمبراطورية العثمانية. وهي المرحلة التي تتمثل بدخول الدول الغربية بالتدريج، قبل الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها، إلى المنطقة العربية المشرقية، بلداً بلداً، وبالتفاصيل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحتى النفسية بجوانبها المختلفة. وهي كانت محور صراعات وأحداث وتطورات ما تزال مفاعيلها قائمة حتى هذه اللحظة التاريخية من حياتنا. ويتناول الكتاب في الفصول الأخرى سيرة شاوي مرحلة مرحلة إلى أن يدخل في العمل السياسي من خلال انتمائه إلى الحزب الشيوعي. لذلك فإن أفضل سبيل إلى معرفة المكوّنات

الأساسية في شخصية نقولا شاوي تقضي بالرجوع إلى هذا الكتاب الوحيد الذي تركه لنا في الأيام الأخيرة من حياته، قبل أن ينتهي من كتابة كامل فصوله. فهذا الكتاب إنما يشكّل سجلاً رائعاً لتكوّن وتعدّد شخصية شاوي في شبابه، الشخصية التي استمرت عناصرها في التكون والتطوّر مع مرور الأعوام، برغم كل ما ساد في السياسة وفي ممارستها، ولا سيما من موقع المسؤولية في القيادة الحزبية، من عناصر كانت تتعارض في بعض المراحل مع تلك المكوّنات الأساسية المشار إليها، إنسانياً وثقافياً.

ولتعريف القارئ بالطريقة التي عالج بها شاوي في هذا الكتاب الأحداث التاريخية التي سبقت نشأته، ورافقتها، أقتطف مقطعين منه. المقطع الأول يشير فيه إلى بدايات اهتمام الدول الكبرى بلبنان قبل تكوّنه كدولة حديثة، وصراعاتهم حوله:

«قبل ذلك بقليل، كان الصراع قد انتقل إلى لبنان بين الدول الكبرى والسلطان الذي عزم بعد جلاء المصريين ونفي الأمير بشير الثاني إلى مالطة سنة ١٨٤٠، أن ينتقص من الاستقلال الذاتي الذي كان ممنوحاً لجبل لبنان، فقرر تعيين حاكم عثماني عليه بدلاً من حاكمه اللبناني. فأثار ذلك سخط اللبنانيين، فيما نشط ممثلو الدول الكبرى، وعلى الأخص فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية، إلى تسعير النقمة والهياج بين السكان، بينما كان الباب العالي ماضياً في التصعيد من جهته، إلى أن ساءت الأمور واشتعلت نيران فتنة طائفية تحولت في سنة ١٨٦٠ إلى مذابح واسعة النطاق بين الدروز والنصارى وامتدت إلى دمشق. فأسرعت الدول الأوروبية إلى التدخل وفرضت على السلطان إنشاء لجنة من ممثلي بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا لإيجاد حل. فوضعت اللجنة نظاماً خاصاً لإدارة شؤون جبل لبنان عُرف باسم بروتوكول ١٨٦١، منح الجبل

اللبناني استقلالاً ذاتياً واسعاً وعهد بإدارته إلى حاكم عثماني مسيحي يعيّنه السلطان بموافقة الدول الموقّعة على البروتوكول. وقد أدّى 'نظام المتصرفية' هذا، كما سُمّي، إلى توسيع النفوذ الأجنبي في بلادنا وإعطائه صفة شرعية... وفي مطلع السبعينات، ظهر تبدّل جديد في ميزان القوى في أوروبا. إذ نجحت الإمارات الألمانية من جهة، والدوقيات الإيطالية من جهة أخرى، كل بطرقه وأساليبه الخاصة، في التغلب على عوامل التجزئة التي كانت سائدة في بلديهما، وتحقيق وحدتها القومية. فنزلت كلتاهما- ألمانيا وإيطاليا- إلى المسرح الدولي من بابه العريض واحتلتا مكانهما، إلى جانب الدول الاستعمارية الأخرى، في الصراع الدائر عليه ونشطتا فوراً، لا سيما الأولى، في البحث عن مغانم تجنيانها من السلطنة المخلخلة الأركان».

المقطع الثاني يتحدث فيه شاوي عن بداية نشاطه في مدينته طرابلس:

«في تلك الحقبة الصاخبة، الحُبلى بالمفاجآت، تبدأ قصتي... تبدأ أصلاً في بيروت، ثم تتحوّل إلى طرابلس. فتحت سماء طرابلس أبصرت النور، وفي ربوعها نشأت وترعرعت. ولا تزال تشدّني إليها روابط حنين دافئ، تعمّق باستمرار وزاد تأصّلاً وتوثّقاً على مرّ السنين... كانت طرابلس لواء تابعاً لولاية بيروت، يوم حلّ فيها والدي في مستهلّ العقد الأول من هذا القرن. زارها، بادئ الأمر، رائداً مستكشفاً، إذا صح التعبير، بتكليف من أبيه. ثم استقر واستوطن. وكان جدّي الذي أمضى قِسطاً وافراً من حياته في دمشق، قد انتقل مع عائلته إلى بيروت، في أواخر القرن الماضي، للإقامة فيها، ورافقه ثلاثة من أخوته. كانوا كلهم يتعاطون التجارة على أنواعها، وعلى وجه الخصوص تجارة الحرير، ويضطرون إلى السفر

والتنقل في الأقاليم للتسوّق والبيع... في ذلك الحين، كان الوضع في البلاد ثقيلاً مرهقاً. فالمظالم التي حفلت بها السنوات الأخيرة من عهد السلطان عبد الحميد، كانت تقضّ مضاجع السكان، لا سيّما بعد أن استشرت بشكل جامح أعمال العسف واغتصاب الحقوق والتعدي على أرزاق الناس. فاسودّت الدنيا، كما يقال، في وجه الكثيرين من المواطنين واندفعوا، وحداناً وزرافات، يفرّون من البلاد ويهاجرون إلى الخارج سعياً وراء لقمة العيش والحفاظ على الحياة. وقد نالنا رشاش من هذه ''الطفشة'' الجماهيرية التي اجتاحت المدن والقرى واتسع نطاقها على وجه الخصوص بين النصارى من مختلف الطوائف والفئات الاجتماعية. فرحل اثنان من أعمامي إلى البرازيل، ثم لحق بهما فيما بعد صغرى عمّاتي وعمّ ثالث. حتى والدي كان يفكر دوماً بالسفر».

إلا أن كون هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد لنقولا شاوي لا يعني أنه لم يكتب سواه. فإن كتاباته في شبابه في جريدة «صوت الشعب» كانت في قمة الأدب السياسي. كذلك كانت تقاريره أمام هيئات الحزب القيادية ذات نكهة ثقافية، وكانت تتميز بعمق التحليل السياسي. كذلك كانت خطبه في المناسبات السياسية اللبنانية وفي المحافل الدولية. وكانت تحمل الصفة ذاتها الأحاديث التي أدلى بها إلى وسائل الإعلام اللبنانية والأجنبية. وكان الكرّاس الذي كتبه عن إيران في أعقاب الزيارة التي قام بها في أواسط أربعينيّات القرن الماضي، برفقة وفد النقابات العمالية اللبنانية الذي كان يرأسه القائد النقابي الكبير مصطفى العريس، من أمتع وأغنى ما كُتب عن إيران في تلك المرحلة من تاريخها التي كانت فيها الحركة الديمقراطية بقيادة الشيوعيين في ذروة مجدها. فهو يؤرّخ في هذا الكرّاس لنهضة إيران الجديدة التي ترافقت مع نهاية الحرب العالمية الثانية.
لنقرأ هذه الفقرة ذات الدلالة في نهاية أحد فصول الكرّاس:

«إن الأهداف المباشرة الموضوعة أمام إيران في المرحلة التاريخية الحاضرة من تطوّرها، لا تختلف كثيراً عن أهداف بلادنا في الظرف الراهن، مع ملاحظة الفرق بين اتجاهات حكومة إيران وحكوماتنا. وفي رأس هذه الأهداف: توطيد الاستقلال السياسي، منع التدخّل الأجنبي، توطيد أُسس النظام الديمقراطي وتعزيز الحريات الشعبية، وإحداث إصلاح اجتماعي يشمل جميع نواحي الحياة ويؤدي إلى الخلاص من نُظم الإقطاع البالية، تحقيق المطالب الرئيسية لأبناء الشعب وخصوصاً لطبقتي الفلاحين والعمال، نشر الثقافة والعناية بالصحة والقيام بمشاريع عمرانية ورفع مستوى السكان عموماً الخ . . . ، أي بكلمة واحدة بناء دولة ديمقراطية عصرية يكون لها وزن في العلاقات الدولية وتكون لها شخصية مستقلة في المؤتمرات العالمية وتساهم إلى جانب غيرها من الدول الصغيرة والكبيرة في صيانة السلم وتنظيم السلامة الاجتماعية في العالم!»

بعض هذه المقالات والخطب والأحاديث التي أشرنا إليها واقتطفنا فقرات من بعضها جُمعت في كتاب خاص صدر في عام ١٩٧٤ بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني.

تعرّفت إلى نقولا شاوي في النصف الأول من خمسينيّات القرن الماضي. كان في ذلك الحين أحد القياديين الأساسيين في الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا. تعرفت إليه أولاً في لبنان، ثم بعد ذلك في عام ١٩٥٦، في بودابست. كنت حينذاك أمثل الشبيبة الديمقراطية العربية في الهيئة القيادية لاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي. وكان هو عائداً من بوخارست حيث كان يمثل الحزب الشيوعي اللبناني في «الكومنفورم» المركز الإعلامي للحركة الشيوعية العالمية، الذي كان يُصدر مجلة أسبوعية باسم «في سبيل سلم دائم في سبيل ديمقراطية شعبية». كان نقولا شاوي عائداً من بوخارست بعد أن تقرر حل هذا المركز

الأممي في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي بقيادة خروتشوف، المؤتمر الذي أُدين فيه ستالين وأُدينت سياساته، ونُشر تقرير يتحدث بالتفصيل عن الجرائم التي ارتكبها ضد الحزب والدولة والشعب على امتداد سنوات حكمه التي استمرت من عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٥٣، وانتهت بوفاته.

خلال زيارت نقولا لبودابست في ذلك العام العاصف بالأحداث الكبرى، وفي مقدمتها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي، كانت المجر تتحوّل بالتدريج إلى مسرح كبير للأحداث سرعان ما انفجرت في خريف ذلك العام في شكل «ثورة» ضد النظام الاشتراكي وضد قادته في المجر وفي الاتحاد السوفياتي. أخبرت نقولا بما كان قد تكوّن عندي من معلومات ومن انطباعات عن الأجواء المشحونة، التي كانت تعبّر عنها النقاشات الحادة في النوادي الصحفية والثقافية. فشاركني القلق، بخلاف ما كنت قد سمعته من عضويّ القيادة في بيروت، حسن قريطم وصوايا صوايا، اللذين رأيا في قراءتي لما كان يجري في المجر تضخيماً للأمور وتجاوزاً للوقائع.

توطدت علاقتي مع شاوي في الفترة التي أعقبت عودتي من بودابست. وكنت أحظى برعايته، بعد فرج اللّه الحلو، الذي كنت أعمل تحت قيادته في الصحافة خصوصاً، وفي قضايا ومهمات أخرى. وكان لنقولا شاوي الدور الأول والأساسي في اختياري إلى مواقع قيادية أساسية في الحزب، في أعقاب انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري، وتحوّل الحزب اللبناني بقيادته إلى حزب مستقل ومختلف عن الكثير من الأحزاب الشيوعية العربية. وظلت علاقتي بشاوي وطيدة حتى آخر أيام حياته. ولن أدخل هنا في تفاصيل كبيرة وذات أهمية بالنسبة إليّ وإلى دوري في الحزب الشيوعي اللبناني خلال الفترة التي كان فيها شاوي الأمين العام للحزب، ثم رئيس الحزب في السنوات الأربع الأخيرة من حياته. فهي كثيرة، ولا ضرورة للتوقف عندها في هذا الحديث عن شخصية نقولا شاوي الإنسان والمثقف والسياسي والقائد الحزبي.

إن هذه المعرفة الطويلة والوثيقة الصلة بالحياة اليومية مع نقولا شاوي في العمل السياسي والحزبي والفكري المشترك هي التي تؤهلني لأن أتحدث عن السمات التي اتصلت بشخصيته، في جوانبها المختلفة.

لنبدأ أولاً بعرض سريع لسيرة حياته، منذ الولادة وصولاً إلى المرحلة التي انتهى إليها، في الأيام التي سبقت وفاته المفاجئة، في كتابة سيرته التي لم يستطع إكمالها بسبب الوفاة، واقتصرت على المرحلة الأولى ، مرحلة الشباب التي قادته في سنّ العشرين إلى الانتساب للحزب الشيوعي كمناضل.

وِلد نقولا شاوي في مدينة طرابلس في عام ١٩١٢. تلقّى دراسته في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة في طرابلس. أما المرحلة الثانوية فقد تلقّاها في مدرسة الفرير. وسكن، عندما جاء إلى بيروت، في منزل عمّته والدة إبراهيم وفؤاد سعد وكانا وكيلَي سيارات في ذلك الحين. وكان يستخدم الرونيو الموجود في مستودعات ابنَي عمته لطباعة جريدة الحزب السرّية «نضال الشعب» وعدد من المنشورات. وانتقل في عام ١٩٣٢ بعد حصوله على شهادة البكالوريا إلى دراسة الحقوق في الجامعة اليسوعية. لكنه لم يكمل دراسته الجامعية. ففي عام ١٩٣٢ بالذات كان اهتمامه بالسياسة قد بلغ ذروته. وقاده ذلك إلى العمل مناضلاً في صفوف الحزب الشيوعي. ويعود ذلك التحوّل في حياته إلى العلاقة التي نشأت بينه وبين سليم خياطة، أحد أهم مثقفي الحزب الشيوعي في تلك الفترة، وصاحب الكتب والمقالات العديدة التي تناولت قضايا أدبية وفكرية وقضايا سياسية عربية وعالمية. وكانت العلاقة بين شاوي وخياطة قد بدأت قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام. إذ كانا يلتقيان إما في مدينة طرابلس أو في بلدة حصرون الشمالية حيث كانت العائلتان تقضيان العطلة الصيفية. وكانت لدى شاوي الشاب رغبة جامحة في التعرف إلى الأشياء الجديدة، ولا سيّما في الكتب. فكان قارئاً نهِماً منذ بدايات تعرّفه إلى القراءة. وكان يقرأ بالعربية والفرنسية. وكان قد تعرّف إلى عدد من المثقفين والمناضلين السياسيين من تيارات مختلفة، قومية عربية

ويسارية وشيوعية تحديداً أو قريبة من الشيوعية. وساعدته معارفه تلك في إرواء عطشه إلى المعرفة بجوانبها المختلفة.

دخل شاوي بعد انتسابه إلى الحزب الشيوعي في العمل النضالي اليومي. لكن ثقافته واهتمامه المتواصل بالشأن الثقافي جعلاه مؤهّلاً للعمل الثقافي والإعلامي والتثقيفي، منذ البداية. وكان يترقّى تدريجياً في العمل الحزبي، وفي المواقع القيادية في الحزب. ولذلك كان من الطبيعي أن يشارك مع صديقه سليم خياطة في الكتابة في مجلة «الدهور» الثقافية التي أصدرها إبراهيم حدّاد في عام ١٩٣٤ والتي كان يغلب على الكثير من الكتابات فيها الطابع الفكري. لكنها لم تعش طويلاً. كما كان من الطبيعي أن يُدعى للمشاركة مع سليم خياطة وعدد كبير من المثقفين الشيوعيين والقوميين المتأثرين بالفكر الماركسي من سوريا ولبنان في الإعداد لمؤتمر عُقد في مدينة زحلة اللبنانية في منزل الوزير والنائب الأسبق يوسف الهراوي. كان ذلك في عام ١٩٣٤. وقد صدر عن المؤتمر بيان تاريخي يدعو إلى وحدة البلدان العربية على أُسس ديمقراطية. وتقرر في المؤتمر إصدار مجلة فكرية هي «الطليعة» التي صدرت في عام ١٩٣٥ وشارك شاوي مع العديد من المثقفين في الكتابة فيها. وكان الهدف من إصدار تلك المجلة في تلك الفترة تحويلها إلى منبر يلتقي حوله أكبر عدد من المثقفين الديمقراطيين العرب، للإسهام في الدعوة عبر النقاش الحر إلى الأفكار التي تضمنها ذلك البيان التاريخي الصادر عن المؤتمر. وقد قدّمنا في الفصل السابق فقرات من ذلك البيان التاريخي. كانت تلك المجلة بالفعل من أهم المنابر الثقافية في تلك الحقبة. واستمرت في الصدور بدون توقّف حتى عام ١٩٣٩، العام الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية، ووقعت فيه فرنسا في قبضة الفاشية، في ظل حكومة فيشي. فقد عطّل الانتداب الفرنسي على لبنان في ظل حكومة فيشي الحياة السياسية، وأغلق وسائل الإعلام. وطال التعطيل مجلة «الطليعة». ولم تعد إلى الصدور. وأطبق الظلام على البلاد في تلك الفترة حتى عام ١٩٤١، العام الذي

تمكن فيه الحلفاء من تحرير فرنسا وتحرير لبنان من قبضة حكومة فيشي. وفي ذلك العام بالذات بدأت المعركة الحقيقية من أجل استقلال لبنان، التي كان للحزب الشيوعي ولقادته، وبالأخص لفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي، دور أساسي فيها.

إلا أن نقولا شاوي المثقف والسياسي والمناضل الحزبي كان قد بدأ يكتب في الصحافة اليومية في أكثر من صحيفة حتى وهو في مرحلة الدراسة الثانوية. لذلك كان من الطبيعي أن يكلّف في عام ١٩٣٤ الإشراف على تحرير جريدة الحزب السرّية «نضال الشعب» في الفترة التي سافر فيها فرج اللّه الحلو، الذي كان يشرف على الجريدة، إلى موسكو. وعندما توفّرت الشروط لإصدار جريدة يومية علنية، كلّفه الحزب العمل للحصول على امتياز جريدة يومية. وتمكن من ذلك. فأصدر في عام ١٩٣٧ جريدة «صوت الشعب» التي كان شاوي صاحبها ورئيس تحريرها. وكانت ناطقة باسم الحزب الشيوعي. وظلت تصدر بانتظام إلى أن عطّلتها سلطات حكومة فيشي في عام ١٩٣٩. لكنها عادت إلى الصدور في عام ١٩٤١، العام الذي تحررت فيه فرنسا من حكومة فيشي ومن الاحتلال النازي، إذ انعكس ذلك إيجابياً على موقف سلطات الانتداب في لبنان من الحريات العامة بما فيها حرية الصحافة. وكانت «صوت الشعب» بقيادة نقولا شاوي تُعدّ، من حيث شكلها ومضمونها، من أهم صحف تلك المرحلة. وقد لا يكون معروفاً بالنسبة لكثيرين أن نقولا شاوي هو الذي أدخل الحرف الجديد الذي ما تزال تعتمده الصحف اللبنانية حتى يومنا هذا. ويقول نقيب الصحافة محمد البعلبكي في رثائه لنقولا شاوي في الذكرى العاشرة لوفاته، والذكرى الأولى لوفاة رفيقه خليل الدبس، إن عدداً كبيراً من الصحفيين اللامعين قد تخرّجوا من مدرسة «صوت الشعب» بقيادة نقولا شاوي، وإنه هو، أي النقيب بعلبكي، قد تعلّم مهنة الصحافة على يد شاوي في الجريدة ذاتها.

وأقتطف هنا فقرات من المقال الافتتاحي الذي كتبه شاوي في العدد الأول

من «صوت الشعب» تحت عنوان «في سبيل الحرية»:

«أخي القارئ... إن «صوت الشعب» هي صوتك. صوتك الرنّان الداوي منذ ١٧ عاماً في كل سهول وجبال هذا الوطن العربي العزيز. صوتك الذي ارتفع على الدوام في كل بقاع سوريا ولبنان، وفي كل شارع وساحة وسجن ومنفى، بين قطرات الدماء وأزيز الرصاص مطالباً بالحرية والرغيف. صوتك الذي أرعب أفظع القوى الغاصبة وظل عالياً رغم كل اضطهاد وتنكيل وإرهاب. صوتك الذي انتزع في النهاية هذا العهد الذي نشيّد أركانه اليوم... هذا الصوت، يا أخي، صوت جماهير شعبنا الغفيرة، صوت كفاحها وأمانيها وآمالها الغنية ستجده في هذه الجريدة، في هذه الجريدة الفتية التي أوجدها الشعب بإرادته الغالية ودُرَيهماته القليلة... ولذلك ثق، يا أخي، بأن هذه الجريدة ستحيا. أجل ستحيا لأنها لك ولي ولكل الشعب وصوت الشعب لا يمكن إخماده. ستحيا لأنها لن تُباع ولن تُشترى، لأنها ستقول دائماً وأبداً الكلمة التي تعتقد فيها مصلحة الشعب وفائدته، لأنها ستدافع عن حريات الشعب وخبز الشعب وثقافة الشعب، لأنها ستعمل على توحيد صفوفه وتقوية كيانه ومحاربة كل أعدائه... هذه كلمتنا الأولى! وسنعيدها ونعيدها طالما نرى فيها خدمة لوطننا الناشئ الذي نريده حراً سعيداً زاهراً، بعيداً عن الأهواء الطائفية ونزاعات الزعامات المتطاحنة التي تمزّق صفوفه... وشعارنا الدائم سيبقى ويظل: اتحاد الشعب بكامله في جبهة شعبية وطنية منظمة للدفاع عن حريته وخبزه واستقلاله..».

(صوت الشعب العدد الأول/ السبت ١٥ أيار ١٩٣٧)

وفي ذلك العام بالذات، عام ١٩٤١ الذي تحررت فيه فرنسا وتحرر فيه لبنان من حكومة «فيشي» النازية، تعاون نقولا شاوي مع صديقه ورفيقه المهندس

أنطون ثابت على إصدار مجلة «الطريق» الثقافية التي سُجّلت باسم أنطون ثابت. وكان ثابت عضواً في هيئة تحرير المجلة مع عدد من كبار أدباء لبنان وسوريا: عمر فاخوري ورئيف خوري ويوسف إبراهيم يزبك وكامل عيّاد وقدري قلعجي. وهي المجلة التي استمرت في الصدور على امتداد اثنين وستين عاماً متواصلة. ولم تتوقف عن الصدور إلا في مطلع عام ٢٠٠٤. وقد تعاقب على إدارة تحريرها منذ صدورها حتى توقفها عن الصدور كل من: قدري قلعجي ورضوان الشهّال وبيار شدرفيان وميشال سليمان ومحمد دكروب (الذي شغل هذا الموقع أطول فترة من الزمن وغاب وعاد أكثر من مرة) والياس شاكر وسمير مراد وطوني فرنسيس وسنا أبو شقرا ونزار مروّة. وقد تحولت المجلة على امتداد تلك الأعوام الطويلة من صدورها إلى ملتقى للعديد من كبار مثقفي لبنان والعالم العربي. وشكلت في المرحلة الأولى من صدورها ثم في مراحل لاحقة ظاهرة ثقافية متميزة. وعبّرت، في مراحل معيّنة، في صيغة من الصيغ، عن التفاف أعداد كبيرة من المثقفين اللبنانيين حول الحزب الشيوعي اللبناني. لكنّ التغيّرات التي كانت تشهدها سياسة الحزب كانت تترك تأثيراتها في مواقف المثقفين من الحزب، صعوداً وهبوطاً، التصاقاً به وانكفاءً عنه.

إلى جانب تلك المهمات الثقافية والفكرية كُلّف شاوي، من الموقع الجديد الذي كان قد احتله منذ عام ١٩٣٧ كعضو في قيادة الحزب إلى جانب فرج اللّه الحلو وخالد بكداش ورشاد عيسى وآرتين مادايان وآخرين، كُلّف كتابة كراريس تثقيفية في الماركسية، وترجمة كراريس تصب في الاتجاه ذاته. وكان شريكاً له في هذا الهم الثقافي والتثقيقي رفيقه فؤاد قازان.

غير أن تلك الاهتمامات الثقافية والفكرية بدأت تتراجع نظراً لانشغال شاوي في المهمات العامة، بعد أن أصبح قائداً مرموقاً في الحزب، وشخصية سياسية بارزة في البلاد. تراجعت الاهتمامات الثقافية والفكرية في عمل شاوي الحزبي. لكنها ظلت ملازمة له في حياته الخاصة. ظل قارئاً نهماً، لا يرتوي ظمأه إلى

المعرفة في مجالاتها كافّة، لا سيّما في الإبداع الأدبي والفني والفكري. وكانت له آراؤه في كل هذه الشؤون التي كان يعلن عنها في الأحاديث الخاصة. وكانت كتاباته بالعربية والفرنسية تشير إلى مدى عمق وسعة ثقافته التي كانت موضع الإعجاب والتقدير.

ربما يكون من المفيد والضروري أن نستشهد ببعض كتابات شاوي في أربعينيّات القرن الماضي لكي نتعرف إلى مواقفه البالغة الوضوح والدقّة في ما يتصل بالقضية الوطنية اللبنانية، وبموقف لبنان من بعض القضايا العربية.

يقول شاوي في مقال له نُشر في جريدة «صوت الشعب» في عام ١٩٤٢، تحت عنوان «دعامة الاستقلال الوطني»:

«الاستقلال الذي لا يبدل شروط الشعب الاقتصادية، ولا ينهض بجماهيره الكادحة إلى المستوى اللائق بهم كمواطني جمهورية ديمقراطية حرّة، لا يكون استقلالاً وطنياً صحيحاً، مهما اعترفت به دول وحكومات أجنبية. واستقلال لا يساعد على نشر الثقافة بين أبناء البلاد، ومحو الأمية من القرية والمدينة ولا يشيع الحريات الديمقراطية الكاملة بين جميع أبناء الشعب ليتمكن كل فرد من ممارسة حقوقه وإبداء رأيه، إن استقلالاً من هذا النوع لن يكون إلا صورة ممسوخة لما ينشده لبنان في هذا الظرف العصيب من تاريخه. ونحن على ثقة من أن أعضاء الحكومة أنفسهم، ومعهم نواب البلاد، يفقهون جيداً هذه الحقيقة. والذي نطلبه منهم وتطلبه البلاد بأسرها هو أن يبذلوا كل ما في وسعهم لجعل لبنان اليوم ولبنان الغد أحسن وأرقى وأهنأ من لبنان الأمس».

ويقول في مقال نشر في جريدة «صوت الشعب» في عام ١٩٤٤، تحت عنوان «حزبنا الشيوعي والسلطة»:

«كتبت إحدى الصحف المحلية العربية، في الأسبوع الماضي، مقالاً افتتاحياً بعنوان: ''قوة أيّدت الحكومة ورئيس الدولة دوماً''، أشادت فيه بموقف الحزب الشيوعي من قضية الاستقلال وأثنت على تأييده النزيه المجرد للحكومة. وذكرت أن الشيوعيين ''لما جاء الاستقلال كانوا الأولين في العمل لتوطيده والتعاون مع رجاله والإيمان به'' لأنهم''وطنيون سياسيون- وليس متاجرين ولا مساومين-''. . . وقد أثار هذا المقال تعليقات شتى في بعض الأوساط وحدّثنا عنه كثير من الأصدقاء. ونحن إذ نشكر صاحب المقال على ثقته وحسن ظنه، لا بد لنا من قول كلمة حول هذا الموضوع. إن موقف الحزب الشيوعي اللبناني من قضية الاستقلال واضح جليّ لا نقاش فيه ولا جدال. . . . معروف أن الحزب الشيوعي لا يعتمد على العاطفة أو الصداقات الشخصية أو التيارات الطارئة في خطته السياسية وتقرير موقفه من هذا المرجع أو ذاك أو من هذه الحكومة أو تلك. إنه يأخذ باعتبارات أرفع وأعمق، فهو ينظر أول ما ينظر إلى طبيعة البلاد، وظروف تطورها التاريخي، والأوضاع الاجتماعية السائدة فيها، والقوى المختلفة التي توجه حياتها اليومية، في مرحلة معيّنة. كما ينظر إلى الظروف الدولية العامة والاتجاهات البارزة فيها وتأثيراتها القريبة والبعيدة على حياة بلادنا».

ويقول في مقال نُشر في جريدة «صوت الشعب» في عام ١٩٤٥ تحت عنوان «فلتسقط البربرية الاستعمارية»، تضامناً مع سوريا ضد العدوان الفرنسي عليها:

«إن سوريا ولبنان متمسكان بما نالاه من استقلال وحقوق وطنية وعازمان، مهما كانت المحاولات الرجعية الاستعمارية على متابعة النضال لأجل صون استقلالهما وتوسيعه وتوطيد دعائم سيادتهما الوطنية ونشر لواء الديمقراطية والحرية في ربوعهما. . . . إننا واثقون

من أن أخواننا السوريين سيخرجون من هذه المعركة، كعادتهم في ماضي نضالهم المجيد الطويل، وهم أقوى عزيمة وأمتن اتحاداً وأشد استعداداً لتوطيد استقلالهم وحريتهم وسيادتهم، وصون جمهوريتهم العربية الفتية الحبيبة. . . . واللبنانيون يعلمون أن الدماء العزيزة التي أريقت في ساحات دمشق وشوارع حلب، لم تُبذل في سبيل حرية سوريا وحدها، بل في سبيل حرية لبنان أيضاً. ولبنان يعاهد سوريا الشقيقة اليوم أنه إلى جانبها ولن يتخلّف عن النضال في سبيل حريته واستقلاله وسيادته، وصون جمهوريته الفتية الحبيبة. . . . عاشت سوريا جمهورية ديمقراطية مستقلة. وعاش لبنان جمهورياً ديمقراطياً مستقلاً. ولتسقط الفاشستية والطغيان الاستعماري على اختلاف الأشكال والألوان والأوطان».

هذا المثقف الشمولي، بمعنى سعة الثقافة وعمقها، أخذته السياسة إلى موضع آخر، وقادته مواقعه في قيادة الحزب الشيوعي إلى حيث تقود السياسة والقيادة أصحابها. وكان عليه أن يتجاوز في حياته السياسية والحزبية هذه الكثير مما كان يملأ قناعاته ويسيطر عليها. لذلك فهو حين ترك العمل القيادي بإلحاح منه، تفرّغ في السنوات الأخيرة من عمره لكتابة سيرة حياته، مرفقة بإطلالة واسعة وعميقة على أحداث عصر بكامله. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نقولا شاوي هو الأول من نوعه في القيادات الحزبية الذي أعلن رغبته في التخلّي عن العمل القيادي قبل أن يبلغ سنّ الشيخوخة. كان في سنّ الستين من عمره، في عام ١٩٧٢، عندما اقترح على الحزب في مؤتمره الثالث أن يترك الأمانة العامة لشاب صاعد هو جورج حاوي، تأكيداً لنهجه الذي عُرف به منذ البدايات في تقديم الكوادر الشابة في الحزب لاستلام مسؤوليات أساسية عندما كانت تبرهن هذه الكوادر عن كفاءة عالية تؤهّلها لاستلام هذه المسؤوليات. لكنّ الحزب رفض طلبه بالتخلي عن المسؤولية الأساسية في القيادة. وأصرّ عليه أن يتابع دوره

التاريخي في نقل الحزب من حقبة إلى حقبة جديدة، استمراراً لما كان قد بدأ به منذ عام ١٩٦٤. وكان له دور أساسي في المؤتمر الثالث. وكان موضع احترام وتقدير وفود الأحزاب الشقيقة والصديقة التي شاركت في المؤتمر. وكان للتقرير الذي ألقاه في افتتاح المؤتمر ولمداخلاته خلال جلساته أثر كبير في إنجاح هذا المؤتمر. غير أنه ظل يصرّ على التخلي عن موقعه طوعاً وبحماس وبثقة بالجيل الجديد من القيادات، إلى أن تقررت تلبية طلبه في المؤتمر الرابع للحزب الذي عقد في عام ١٩٧٩. إذ انتخب جورج حاوي أميناً عاماً للحزب، وانتخب نقولا شاوي رئيساً للحزب. وهو منصب تكريمي جرى إقراره في المؤتمر على قياس نقولا شاوي. وهكذا غادر نقولا شاوي العمل الحزبي والعمل السياسي، وتفرّغ للقراءة والكتابة. وكان همه إنجاز كتاب سيرته الذي أشرت إليه.

لكنّ تاريخ نقولا شاوي السياسي لم يكن تاريخاً عادياً. فهو قد أصبح قائداً حزبياً بارزاً، قبل أن يبلغ سن الثلاثين من عمره. وكان ذلك شأن جورج حاوي، الابن المدلّل لنقولا شاوي، كما كان يقال.

ترشّح شاوي للانتخابات النيابية في عام ١٩٣٧ مع رفيقه رئيس نقابة عمال المطابع سعد الدين مومنة في لائحة انتخابية واحدة مع الزعيم الوطني رياض الصلح وزميله الزعيم البيروتي عُمر بَيهم وممثلين عن الحزبين الأرمنيين الهنشاق، وهو حزب اشتراكي، والرمغافار، وهو حزب البرجوازية الوطنية الأرمنية. وفي عام ١٩٣٩ شكل شاوي مع رفيقه فرج اللّه الحلو بالتعاون مع عدد من الشخصيات الثقافية اللبنانية والسورية، كان في مقدمتهم أنطون ثابت ورئيف خوري، عُصبة مناهضة النازية والفاشية، التي جعلت مهمتها النضال ضد كل ما يتصل بسياسة هتلر عشية الحرب العالمية الثانية، وخلالها، ودفاعاً عن الديمقراطية. وقد اعتقلته سلطات فيشي مع آخرين في ذلك العام. ولم يطلق سراحه إلا في عام ١٩٤١، بعد أن تحرر لبنان من سلطات فيشي. وما أن بدأت معركة الاستقلال في عام ١٩٤١ حتى كان نقولا شاوي إلى جانب رفيقه فرج اللّه

الحلو من أبطالها. واستفاد الحزب في ذلك التاريخ من بداية الهجوم المضاد الذي كان الاتحاد السوفياتي قد بدأه لدحر قوات هتلر التي كانت قد توغّلت في الداخل السوفياتي واحتلت عدداً من المدن. وتمثل ذلك الهجوم المضاد بمعارك لينغراد وستالينغراد الشهيرة. استفاد الحزب من ذلك الحدث ليعزز مواقعه في معاركه السياسية في البلاد. فأنشأ إلى جانب عصبة مناهضة النازية والفاشية «جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي» التي تشكلت من شخصيات ثقافية وسياسية مرموقة، وانتخب الأديب عمر فاخوري لرئاستها. وتحوّلت مجلة «الطريق» منذ أعوامها الأولى إلى مجلة تدافع عن ثقافة السلم والحرية، والتقى على صفحاتها المناضلون من أجل استقلال لبنان وسوريا. وكان الدكتور جورج حنا المفكر والسياسي والأديب مع المهندس أنطون ثابت وعمر فاخوري ورئيف خوري في قيادة «جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي». وبعد وفاة عمر فاخوري في عام ١٩٤٦ انتقلت رئاسة الجمعية إلى جورج حنا. وجدير بالذكر هنا أن حدثاً كبيراً في حياة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان قد حصل في العام ذاته الذي حصل فيه لبنان على استقلاله. وتمثل هذا الحدث بانعقاد المؤتمر الأول للحزب. وكان ذلك في الشهر الأخير من عام ١٩٤٣. وقد جرى في المؤتمر فصل الحزب اللبناني عن الحزب السوري. وانتُخب فرج اللّه الحلو رئيساً للحزب اللبناني. كما انتُخب نقولا شاوي سكرتيراً له. وانتُخب خالد بكداش رئيساً للحزب السوري. كما انتخب رشاد عيسى سكرتيراً له. وقد أشرنا إلى هذا الحدث بالتفصيل في الفصل الخاص بفرج اللّه الحلو.

في عام ١٩٤٦ سافر شاوي إلى باريس لمواكبة اجتماع مجلس الأمن الدولي الذي كانت قد عُرضت عليه قضية جلاء الجيوش الفرنسية والإنجليزية من لبنان بعد حصوله على استقلاله، وبعد انتهاء الحرب وانتهاء مبررات استمرار هذه الجيوش في لبنان. وقد لعب شاوي دوراً مميزاً في النشاط في باريس دعماً لقضية جلاء القوات الأجنبية عن لبنان وسوريا، مستفيداً من العلاقات التي كانت

تربط الحزبين اللبناني والسوري بالحزب الفرنسي وأمينه العام موريس توريز الذي كان قد شغل منصب نائب رئيس الحكومة الفرنسية في أول حكومة شكلها الجنرال ديغول بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء فيها على دول المحور المشكلة من ألمانيا الهتلرية وإيطاليا موسوليني واليابان. وقد نظم الحزب الشيوعي الفرنسي مظاهرات كبيرة في شوارع باريس دعماً لمطلب الشعبين اللبناني والسوري بالاستقلال. ومعروف أن المندوب السوفياتي قد استخدم حق الفيتو لأول مرة في تاريخ مجلس الأمن بعد تأسيسه، لصالح حق لبنان وسوريا في التحرر من القوات الأجنبية على أراضيهما. وقد استُقبل شاوي لدى عودته من باريس عن طريق فلسطين بالقطار بمظاهرات جماهيرية في المدن التي اجتازها وصولاً إلى مدينة طرابلس، حيث خرج إلى الشارع عشرات الألوف من أهالي المدينة لاستقباله. وزاره لتهنئته ولتقدير دوره عدد من زعماء البلاد منهم رياض الصلح وحبيب أبو شهلا وسامي الصلح وغيرهم.

ثم توالى صعود نجم نقولا شاوي في الحزب الشيوعي اللبناني وفي لبنان، كواحد من الشخصيات السياسية المرموقة. وتعددت، وتنوعت، في الإيجاب عموماً وفي السلب كذلك، مواقفه داخل الحزب الشيوعي وفي الحركة الوطنية اللبنانية بتجاربها وأشكالها المختلفة خلال عدة عقود. وجاء السلبي من هذه المواقف على حساب ما كان أساسياً في تكوين شخصيته منذ بدايات شبابه. تمثل الإيجابي من مواقف شاوي ومن نشاطاته السياسية والفكرية، بإسهاماته الكبيرة في صياغة خطة الحزب ذات الصلة بالقضية الوطنية. وقد تمثلت المعركة الوطنية بخوض النضال من أجل إجلاء القوات الأجنبية عن لبنان بعد نيله استقلاله. كما تمثلت تلك المعركة بخوض النضال لمنع إدخال لبنان في الأحلاف الأجنبية. وتمثلت المعركة الاجتماعية في النضال دفاعاً عن مصالح الفئات الشعبية. وقد تميّزت تلك الفترة بتشكيل جمعيات تهتم بقضايا الفلاحين والطلاب والمثقفين والنساء، إلى جانب النقابات العمالية التي كانت تتابع نضالها دفاعاً عن مصالح

العمال مستفيدة من تجربة غنية في هذا المجال تعود إلى عقود من الزمن. والجدير بالذكر أن الجيل الثاني من القادة النقابيين الشيوعيين، في مقدمتهم الياس الهبر، كان له دور متميز في تطور الحركة النقابية. وكانت الحركة النسائية الجديدة قد بدأت بتشكيل «لجنة حقوق المرأة» في مطالع خمسينيّات القرن الماضي. وكانت لها نشاطات بارزة. وقد تولت قيادتها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ثلاث شخصيات بارزة على التوالي هنّ: ليلى الخليل في البدايات، ثم ثُريّا عدرة، ثم ليندا مطر التي ما تزال تتابع المسيرة بنشاط مثير للدهشة. وتشكّلت في ما بعد لجنة الأمهات برئاسة أنطوانيت معلوف. وتأسست في عام ١٩٥٣ دار الفارابي بإدارة كريكور همامجيان، الذي كان قد أسس مطبعة «النجاح» قبل ذلك، ثم طورها، وأصبح واحداً من كبار العاملين في ميدان الطباعة في الشرق الأوسط. كما تأسست بعد ذلك بأعوام دار الفكر الجديد وتولى إدراتها أحمد غربية.

إلا أن أهم ما تم إنجازه من نضالات الطبقة العاملة، بقيادة الاتحاد العام للعمال والمستخدمين الذي كان يرأسه القائد الشيوعي مصطفى العريس، هو سَنّ أول قانون للعمل في الدولة اللبنانية في عام ١٩٤٦. وكان ذلك الإنجاز ثمرة نضالات طويلة وقاسية كانت قد بدأت منذ عشرينيّات القرن الماضي.

تلك كانت الجوانب الإيجابية في حياة ونضال نقولا شاوي، مع رفاقه في قيادة الحزب الشيوعي. أما الجوانب السلبية في مواقفه فكانت جزءاً من السياسة العامة التي كان الحزب أسيراً لها بحكم ارتباطه بالمركز السوفياتي. وهي سلبية يتحمل الحزب كله، وقادته جميعهم، مسؤولية الوقوع فيها، وتدفيع الحزب من جرّائها ثمناً باهظاً تمثّل بالتراجع الذي وقع فيه دوره في الحياة السياسية في البلاد خلال حقبة استمرت أكثر من عقدين من الزمن.

كان شاوي، كما عرفته وكما عرفه رفاقه وأصدقاؤه الكثر، وكما شرحه هو

تربط الحزبين اللبناني والسوري بالحزب الفرنسي وأمينه العام موريس توريز الذي كان قد شغل منصب نائب رئيس الحكومة الفرنسية في أول حكومة شكلها الجنرال ديغول بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء فيها على دول المحور المشكلة من ألمانيا الهتلرية وإيطاليا موسوليني واليابان. وقد نظم الحزب الشيوعي الفرنسي مظاهرات كبيرة في شوارع باريس دعماً لمطلب الشعبين اللبناني والسوري بالاستقلال. ومعروف أن المندوب السوفياتي قد استخدم حق الفيتو لأول مرة في تاريخ مجلس الأمن بعد تأسيسه، لصالح حق لبنان وسوريا في التحرر من القوات الأجنبية على أراضيهما. وقد استُقبل شاوي لدى عودته من باريس عن طريق فلسطين بالقطار بمظاهرات جماهيرية في المدن التي اجتازها وصولاً إلى مدينة طرابلس، حيث خرج إلى الشارع عشرات الألوف من أهالي المدينة لاستقباله. وزاره لتهنئته ولتقدير دوره عدد من زعماء البلاد منهم رياض الصلح وحبيب أبو شهلا وسامي الصلح وغيرهم.

ثم توالى صعود نجم نقولا شاوي في الحزب الشيوعي اللبناني وفي لبنان، كواحد من الشخصيات السياسية المرموقة. وتعددت، وتنوعت، في الإيجاب عموماً وفي السلب كذلك، مواقفه داخل الحزب الشيوعي وفي الحركة الوطنية اللبنانية بتجاربها وأشكالها المختلفة خلال عدة عقود. وجاء السلبي من هذه المواقف على حساب ما كان أساسياً في تكوين شخصيته منذ بدايات شبابه. تمثل الإيجابي من مواقف شاوي ومن نشاطاته السياسية والفكرية، بإسهاماته الكبيرة في صياغة خطة الحزب ذات الصلة بالقضية الوطنية. وقد تمثلت المعركة الوطنية بخوض النضال من أجل إجلاء القوات الأجنبية عن لبنان بعد نيله استقلاله. كما تمثلت تلك المعركة بخوض النضال لمنع إدخال لبنان في الأحلاف الأجنبية. وتمثلت المعركة الاجتماعية في النضال دفاعاً عن مصالح الفئات الشعبية. وقد تميّزت تلك الفترة بتشكيل جمعيات تهتم بقضايا الفلاحين والطلاب والمثقفين والنساء، إلى جانب النقابات العمالية التي كانت تتابع نضالها دفاعاً عن مصالح

العمال مستفيدة من تجربة غنية في هذا المجال تعود إلى عقود من الزمن. والجدير بالذكر أن الجيل الثاني من القادة النقابيين الشيوعيين، في مقدمتهم الياس الهبر، كان له دور متميز في تطور الحركة النقابية. وكانت الحركة النسائية الجديدة قد بدأت بتشكيل «لجنة حقوق المرأة» في مطالع خمسينيّات القرن الماضي. وكانت لها نشاطات بارزة. وقد تولت قيادتها منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ثلاث شخصيات بارزة على التوالي هنّ: ليلى الخليل في البدايات، ثم ثُريّا عدرة، ثم ليندا مطر التي ما تزال تتابع المسيرة بنشاط مثير للدهشة. وتشكّلت في ما بعد لجنة الأمهات برئاسة أنطوانيت معلوف. وتأسست في عام ١٩٥٣ دار الفارابي بإدارة كريكور همامجيان، الذي كان قد أسس مطبعة «النجاح» قبل ذلك، ثم طورها، وأصبح واحداً من كبار العاملين في ميدان الطباعة في الشرق الأوسط. كما تأسست بعد ذلك بأعوام دار الفكر الجديد وتولى إدراتها أحمد غربية.

إلا أن أهم ما تم إنجازه من نضالات الطبقة العاملة، بقيادة الاتحاد العام للعمال والمستخدمين الذي كان يرأسه القائد الشيوعي مصطفى العريس، هو سَنّ أول قانون للعمل في الدولة اللبنانية في عام ١٩٤٦. وكان ذلك الإنجاز ثمرة نضالات طويلة وقاسية كانت قد بدأت منذ عشرينيّات القرن الماضي.

تلك كانت الجوانب الإيجابية في حياة ونضال نقولا شاوي، مع رفاقه في قيادة الحزب الشيوعي. أما الجوانب السلبية في مواقفه فكانت جزءاً من السياسة العامة التي كان الحزب أسيراً لها بحكم ارتباطه بالمركز السوفياتي. وهي سلبية يتحمل الحزب كله، وقادته جميعهم، مسؤولية الوقوع فيها، وتدفيع الحزب من جرّائها ثمناً باهظاً تمثّل بالتراجع الذي وقع فيه دوره في الحياة السياسية في البلاد خلال حقبة استمرت أكثر من عقدين من الزمن.

كان شاوي، كما عرفته وكما عرفه رفاقه وأصدقاؤه الكثر، وكما شرحه هو

ذاته في كتاب سيرته، متميّزاً في جملة عناصر إنسانية راقية، جمعت بين حسٍّ مرهف تجاه الأشياء والأحداث الكبيرة والصغيرة، وكرهٍ عميق الجذور للظلم الاجتماعي والقومي والديني، ورفض قاطع لكل ما يتصل بالمشاريع الاستعمارية القديم منها والجديد. وكان، إلى جانب تعلّقه باستقلال بلده لبنان، شديد التمسك بالوحدة العربية كمصير مشترك لكل البلدان الناطقة بالعربية والمكملة للتراث العربي القديم. وكان لفلسطين موقع مهم في كل همومه واهتماماته. وهذه العناصر جميعها برزت منذ مطالع شبابه. واستمرت تتوطد وتترسّخ على امتداد حياته. إلا أن السياسة السياسية هي التي كانت تفرض عليه، بحكم موقعه الحزبي، في فترات تاريخية معيّنة لبنانياً وعربياً وأممياً، مواقف كشف في العقدين الأخيرين من حياته عن الخطأ في اتخاذها، نقيضاً لقناعاته، ولكل ما كان قد تكوّن من عناصر أساسية في شخصيته وفي تعامله مع الأشياء والأحداث.

في المرحلة الستالينية التي سادت في الحركة الشيوعية العالمية، كان شاوي، أسوةً بجميع قادة الأحزاب المنتمية إليها والتابعة في سياساتها للسياسة السوفياتية، أميناً في مواقفه للقيادة السوفياتية ، وفق ما كان يفرضه عليهم من مواقف موقعهم في الحزب. وكان من بين تلك المواقف المفروضة انصياع شاوي وانصياع الحزب فيها لموقف الاتحاد السوفياتي بالموافقة على قرار تقسيم فلسطين في عام ١٩٤٨، خلافاً لما فعل رفيقه فرج اللّه الحلو، الذي ما أن أعلن تمايزه المحسوب بدقة عن الموقف السوفياتي بهذا الخصوص، حتى استحقّ العقاب. ورغم أنه عاد فصوّت إلى جانب رفاقه في الموافقة على القرار، فقد جُرّد من مسؤولياته جميعها. وكان فرج اللّه الحلو في ذلك الحين عضواً في المكتب السياسي. إذ كان قد حل مكانه في موقع رئاسة الحزب رفيقه نقولا شاوي. وكان ذلك التغيير في القيادة قد حصل في عام ١٩٤٦، حين طُلب من فرج اللّه بقرار من بكداش، الزعيم الأوحد للشيوعيين اللبنانيين والسوريين على امتداد حقبة طويلة، أن يغادر إلى فرنسا في مهمة حزبية، قيل إنها كانت مهمة تثقيفية. ولم

يتردد نقولا يومذاك في احتلال موقع رفيقه وصديقه. بل هو شارك أعضاء المكتب السياسي في توديع فرج اللّه على متن الباخرة التي نقلته إلى باريس، كإجراء شكلي يخفي جوهر الموقف من فرج اللّه، الذي كان قرار سفره إلى باريس نوعاً من العقاب على ما لا أعرف وربما لا يعرف هو من أخطاء. إلا أن نقولا شاوي ذاته تعرّض في عام ١٩٥١ للعقاب الذي واجه فرج اللّه الحلو. وطُلب منه أن يقدّم رسالة نقد ذاتي، فقدّمها. وأُرسل إلى طرابلس ليكون مسؤولاً عن المنظمة الحزبية فيها. يذكّرني هذا العقاب بحق نقولا شاوي بالعقاب الذي واجه أحمد مير الأيوبي الذي كان مسؤولاً عن منظمة الحزب في طرابلس في مطالع ستينيّات القرن الماضي، إذ طُلب إليه أن يترك مسؤولياته في طرابلس وأن يلتحق بمنظمة الحزب في بيروت ليعمل تحت قيادتها. وكان شاوي في عام ١٩٥٢ قد صار مسؤولاً عن عمل الحزب في سوريا. وأقام في دمشق. وفي عام ١٩٥٥ أُرسل إلى بوخارست ليمثل الحزب الشيوعي في لبنان وسوريا في الكومنفورم (المركز الإعلامي الأممي) الذي كان يصدر مجلة «في سبيل سلم دائم، في سبيل ديمقراطية شعبية». وظل في هذا الموقع إلى أن تقرر حل هذا المركز في عام ١٩٥٦، في أعقاب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. وبعد عودته من بوخارست أُرسل مع كوادر الحزب إلى المدرسة الحزبية في موسكو حيث بقي هو فيها عاماً كاملاً واستمر الآخرون عامين إضافيين. لكن واحدة من المهمات التي كلف فيها شاوي، ولم يجر التوقف عندها في تاريخ الحزب، هي تلك المهمة الصعبة التي قادته إلى مصر في أواخر أربعينيّات القرن الماضي أو في أوائل الخمسينيّات، لكي يساعد في توحيد المنظمات الشيوعية. لكنه لم يفلح في ذلك. وقد أدركت، شخصياً، سبب الصعوبة التي واجهته في مهمته الأممية تلك، عندما زرت القاهرة في عام ١٩٥٤، والتقيت ثماني منظمات شيوعية. إذ تبيّن لي يومذاك كم كانت مهمة توحيد الشيوعيين المصريين صعبة في ذلك الحين.

هذه التنقلات في المهمات التي كُلّف بها شاوي كانت عاملاً أساسياً في تعزيز موقعه في قيادة الحزب، وفي التحوّلات التي حدثت فيه. وكان الأساسي في هذه التحوّلات من صنعه هو بالذات. لكنه ظل، مع ذلك، يشعر بالخطأ الذي ارتكبه، في مراحل سابقة، بحق رفيق عمره فرج اللّه الحلو، إلى أن أتيح له في عام ١٩٦٨ في المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني أن يجري مع رفاقه من الجيل الجديد في قيادة الحزب نوعاً من النقد الذاتي إزاء ما جرى لفرج اللّه، تمثل بإعادة الاعتبار إليه وإلغاء كل ما كان قد لحق به من تدابير، وسحب النقد الذاتي الذي كان فرج اللّه قد اضطر تحت الضغط إلى تقديمه في ما عرف بـ«رسالة سالم»، من أرشيف الحزب ومن تاريخه. وكان المؤتمر الثاني حدثاً كبيراً في حياة الحزب. إذ تحقق فيه الانتصار الكبير بإحداث تجديد من نوع غير مسبوق في الحزب، في نهاية معركة هي الأكبر في تاريخه والأهم من حيث القضايا التي كانت موضع سجال وصراع استمرا عاماً كاملاً. وكان قد سبق تلك المعركة ومهّد لها حدث كبير آخر في تاريخ الحزب تمثل بانفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري في عام ١٩٦٤. وهو حدث كان لنقولا شاوي دور أساسي فيه مع رفاقه من الجيل الجديد الذين سرعان ما صعدوا بالتدريج، بقرار من شاوي، إلى مواقع قيادية في الحزب. وفي كلا المعركتين، الأولى والثانية، كان لنقولا دور أساسي تمثل بتجديد حياة الحزب فكرياً وسياسياً وتنظيمياً، من جهة، وبجعل الحزب الشيوعي اللبناني، من جهة ثانية، حزباً لبنانياً بالمعنى الحقيقي للمواطنية اللبنانية، مع احتفاظه بالعلاقة التاريخية مع أشقائه السوريين، وبطابعه العربي والأممي في آن. في تلك الفترة بالذات، وارتباطاً بالمعركة الأولى، التي تمثلت بانفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري وتحرره من هيمنة خالد بكداش على سياساته وقراراته، بدأ نقولا شاوي دوره القيادي الجديد، ذا النكهة الجديدة التي تتصل بشخصيته السياسية الغنية بالثقافة والمفعمة بالاستقلالية وبروح التجديد التي عبّرت عنها مبادراته المتعددة الجوانب في ذلك

التاريخ، تاريخه وتاريخ الحزب. وكان من أهم ما قام به شاوي في تلك الفترة إدخال عدد كبير من جيل الشباب في قيادة الحزب. وكنت مع جورج حاوي من أوائل الذين اختارهم نقولا شاوي ليكونوا أعضاء في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني في المرحلة الجديدة من حياة الحزب.

في عام ١٩٥٨ نشبت في لبنان انتفاضة وطنية ضد حكم الرئيس كميل شمعون وضد السياسة التي كان يمارسها. وهي السياسة التي كانت ترمي إلى ربط لبنان بالأحلاف الأجنبية. وكانت سياسة الحزب منذ بداية الحرب الباردة وفي ظل سيطرتها على العلاقات الدولية بدءاً من أواخر أربعينيّات القرن الماضي تتميز في وجه خاص بمحاربة الأحلاف الأجنبية، وبالدعوة إلى السلام العالمي ونزع أسلحة الدمار الشامل، وبالدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. وهو ما كان يتطابق مع السياسة الخارجية الثابتة للاتحاد السوفياتي. ونجح الحزب، مع حلفائه من الوطنيين والديمقراطيين، في منع الحكومات اللبنانية المتعاقبة من التوقيع على أي من تلك الأحلاف، بتعدّدها وتنوّع صِيَغها. وشارك، في ظروف السرّية التي فُرضت عليه، ابتداءً من عام ١٩٤٨ (عقاباً له على موقفه من قرار تقسيم فلسطين) في الانتفاضة السياسية والشعبية على حكم الشيخ بشارة الخوري الذي كان قد بلغ الأوج في الفساد. ونظّم منفرداً أحياناً، وبمشاركة قوى وطنية أخرى في بعض الأحيان، العديد من المظاهرات رفضاً للأحلاف الأجنبية ودفاعاً عن مصالح الفئات الشعبية، وتضامناً مع الشعوب الأخرى المناضلة من أجل حريتها واستقلالها، وضد العدوان عليها: كوبا، الكونغو، تونس، الجزائر، المغرب، العراق الخ ... واستشهد في تلك المعارك الوطنية والتضامنية والاجتماعية التي خاضها عدد من أفضل كوادره ومناضليه. وفي تلك الفترة التي تمتد من أواخر أربعينيّات القرن الماضي ونهاية الخمسينيّات، حيث فرضت على الحزب السرّية، بعد قرار منع نشاطه وإقفال جريدته «صوت الشعب»، ابتدعت قيادة الحزب وسائل ووسائط متنوعة ومتعددة في صيغها، لممارسة نشاطها

العلني. واتخذت تلك المبادرات شكل تنظيمات سياسية ونقابية واجتماعية وفئوية. وكانت حركة السلم قد تشكلت في عام ١٩٤٩ برئاسة المهندس أنطون ثابت، وشارك في تأسيسها عدد كبير من الشخصيات السياسية والثقافية والاجتماعية بينها بعض رجال الدين. وإذا كانت تهتم تلك الحركة بقضايا السلم ونزع السلاح ومحاربة الأحلاف العسكرية، فقد كانت تعتبر في مقدمة أهدافها وفي نشاطها الذي طاول لبنان كله من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، القضايا ذات الصلة بالدفاع عن استقلال لبنان وسيادته وحريته. كما كانت تُكمل نشاطَ حركة السلم في هذين الاتجاهين من نشاطها جمعيةُ الصداقة اللبنانية– السوفياتية التي أعيد تشكيلها برئاسة الدكتور جورج حنا، بعد وفاة رئيسها الأديب عمر فاخوري وكانت تحمل اسم «جمعية العلاقات الثقافية بين لبنان والاتحاد السوفياتي». ويشير إلى أهمية الدور الذي لعبته «حركة السلم» في كل الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي، تعدّدُ وتنوّع الشخصيات التي ساهمت في نشاطها، أذكر منهم على سبيل المثال، المطران نيفن سابا والشيخ أحمد عارف الزين والشيخ عبد الله العلايلي والدكتور أنطوان سعيد ونائب صيدا معروف سعد ونائب بيروت فريد جبران ونائب كسروان الياس الخازن ونائب صور جعفر شرف الدين والأب طانيوس منعم والشيخ محمد جواد مغنية والشيخ أحمد العجوز وفؤاد حبيش (مؤسس مجلة «المكشوف») وعبد الله عدرة وفاروق معصراني وسالم دبليز وعبد الوهاب الرفاعي (رئيس الهيئة الوطنية) والدكتور داوود سلمان والسفير عبدالله النجار والوزير الأسبق الأمير رئيف أبي اللمع وإميل خوري والوزير الأسبق الدكتور عبد الرحمن اللبان والدكتور محمد كنيعو وعبدالله لحود ونسيب عازار وحسين مروّة ورئيف خوري ومحمد عيتاني وتوفيق يوسف عواد والدكتور فريد كعدي وحسين سجعان وناصيف مجدلاني ونسيب المتني ومحمد أمين دوغان وسامي أبو شقرا ورضوان الشهال وميشال المير الذي اشتركت معه في ترسيخ العلاقة بين حركة السلم وعدد من كبار الفنانين التشكيليين، أخصّ

منهم بالذكر بول غيراغوسيان وقيصر الجميّل وعمر الأنسي وميشال بصبوص ورشيد وهبة. والجدير بالذكر أن نائب طرابلس الدكتور هاشم الحسيني تولّى بعد وفاة كل من أنطون ثابت وجورج حنا رئاسة الجمعيتين، حركة السلم وجمعية الصداقة اللبنانية السوفياتية. وكان فاروق معصراني الأكثر تميّزاً في الدور الذي لعبه على صعيد حركة السلم العالمية، ممثلاً حركة السلم اللبنانية. وكان من أهم ما قامت به هاتان الجمعيتان استقطابهما لعدد كبير من المثقفين اللبنانيين، من جهة، واستضافة عدد من كبار المثقفين الأجانب، كان أبرزهم الشاعر التركي ناظم حكمت والموسيقي السوفياتي ختشادوريان. وترافق نشاط هاتين الجمعيتين مع نشاط سياسي واجتماعي ونقابي مارسته منظمات جماهيرية أنشأها الحزب كان أهمها «كتلة النقابات المنفردة» برئاسة الياس الهبر، التي تحوّلت في أواسط ستينيّات القرن الماضي، بقرار من وزير العمل والشؤون الاجتماعية الجنرال جميل لحود، والد الرئيس إميل لحّود، إلى الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين. كما تم تشكيل «لجنة حقوق المرأة» و«لجنة الأمهات» و«اتحاد الطلاب العام» ثم «اتحاد الشباب الديمقراطي». واتخذ المؤتمر الوطني الذي كان قد تشكل في معركة الاستقلال صيغة جديدة في النصف الأول من الخمسينيّات كإطار للعمل الوطني الجامع وذلك بقيادة المحامي حبيب ربَيز. وصدرت، في الوقت ذاته، بديلاً من «صوت الشعب»، جريدة «الصرخة» (١٩٥٣) مستعارة من الشيوعي القديم أحمد زكي الأفيوني، الذي كان قد غادر الحزب قبل ذلك التاريخ بعدة سنوات. كما صدرت في عام ١٩٥٤ جريدة «الأخبار» التي كان قد أسسها المهندس سهيل يموت وأهداها للحزب بعد أن أعلن انتسابه إليه. وتأسست جريدة «النداء» في عام ١٩٥٩، التي اشتراها الحزب إثر حملة تبرعات واسعة من الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان قد اشتراها من حزب النداء القومي. ثم صدرت في المرحلة ذاتها (١٩٥٢) مجلة «الثقافة الوطنية» التي قدّمها للحزب المناضل الشيوعي جوزيف حايك. وقد شكّلت هذه المجلة

بصدورها حدثاً ثقافياً مهماً. وكان يشرف على تحريرها حسين مروّة ومحمد دكروب. وساهم في الكتابة فيها على امتداد الأعوام السبعة من حياتها (١٩٥٢- ١٩٥٩) عدد كبير من المثقفين اللبنانيين والعرب. وإذ توقفت «الثقافة الوطنية» عن الصدور عادت مجلة «الطريق» إلى متابعة دورها التاريخي الذي بدأت به في مطالع أربعينيّات القرن الماضي. وفي عام ١٩٥٨ تحولت مجلة «الوقت» الأسبوعية من مجلة نقابية كان يديرها حبيب حمادة إلى مجلة شهرية هي الطبعة العربية لمجلة «قضايا السلم والاشتراكية» التي كانت تصدر في براغ، باسم الحركة الشيوعية العالمية.

لقد ساهم مثقفو الحزب في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي في تشكيل اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي لعب على امتداد عقدين ونيّف دوراً مهماً في الحياة الثقافية اللبنانية. وتعاقب على الأمانة العامة فيه كل من سهيل إدريس وميشال سليمان وأحمد سويد وعلي سعد وأحمد أبو سعد وعفيف دمشقية وجوزيف حرب. وتولّى بعضهم هذا المنصب أكثر من مرة. جميع هذه الأنشطة كانت وسائل ووسائط لممارسة الحزب الشيوعي عمله العلني. لكن دور الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية كان دوراً أساسياً في إيصال خط الحزب إلى مختلف فئات الشعب، وإلى القوى السياسية. وبرز في تلك المهمة المتصلة بتلك الصحف والمجلات عدد كبير من الإعلاميين ومن المثقفين المرموقين. وبعضهم كانوا أعضاء في الحزب. وبعضهم صاروا بحكم كفاءتهم أعضاء في قيادة الحزب. وبعض ثالث منهم صاروا كوادر بارزة في عدد كبير من وسائل الإعلام اللبنانية والعربية والعالمية، المكتوبة والمسموعة والمرئية.

كان عهد الرئيس كميل شمعون عهد صراع بين اتجاهين في لبنان، اتجاه كان يمثله الرئيس شمعون وأركان حكمه ويميل إلى ربط لبنان بحلف بغداد، واتجاه كان يرى أن موقع لبنان هو في التضامن مع مصر بقيادة الرئيس عبد الناصر في مناهضة تلك الأحلاف. وكانت سوريا في ذلك الحين تتكامل مع مصر عبد

الناصر. وانتهى ذلك الصراع بين الاتجاهين بالانتفاضة ضد حكم شمعون في عام ١٩٥٨، وتشكلت لقيادة الانتفاضة «جبهة الاتحاد الوطني» من قوى سياسية متعددة، وكان الحزب الشيوعي جزءاً منها. وكان نقولا شاوي صاحب الدور الأساسي في تجنيد الشيوعيين في المقاومة الوطنية السياسية والعسكرية التي تشكلت، واتخذت لها مواقع في كل مناطق البلاد، بدءاً من العاصمة بيروت. وأذكر أن الحزب أنشأ موقعين للمقاومة في بيروت. الموقع الأول كان في منطقة «حرش بيروت». وكان المسؤول السياسي عنه محمد خطّاب. وكان المسؤول العسكري الملازم إسبر البيطار. وكان صاحب الدور المقرر في اختيار ذلك الموقع هو مصطفى الأسير. أما أنا فكنت مسؤولاً عن السلاح، وعن دوريات الحراسة. وساهمت في تنظيم ندوات ثقافية للمقاتلين وللعديد من شباب الحي وجواره. وشارك في إعداد المحاضرات فيها عدد من مثقفي الحزب وأصدقائه. أما الموقع الثاني فقد كان في منطقة «الزيدانية». وكان المسؤول السياسي عنه سهيل يموت. وكان إسبر البيطار يتنقل بين الموقعين. كما تشكلت في المناطق لجان مقاومة باسم الحزب أحياناً، وبالتحالف مع قوى وطنية أخرى، في أكثر الأحيان.

في تلك الفترة كانت قيادة الحزب في لبنان مشكلة من نقولا شاوي وحسن قريطم وآرتين مادايان ويوسف خطار الحلو وأوهانس أغباشيان. ثم انضمّ إليها صوايا صوايا. في حين كان فرج اللّه الحلو ما يزال مقيماً في دمشق، يمارس دوره القيادي إلى جانب خالد بكداش وآخرين من الرفاق السوريين. وعندما نزل الأسطول السادس الأميركي في بيروت في أعقاب قيام ثورة ١٤ تموز/يوليو في العراق، وكانت الانتفاضة اللبنانية في أوجها، حرر نقولا شاوي باسم قيادة الحزب بياناً سياسياً حازماً دعا فيه الشيوعيين والقوى الديمقراطية كافةً لمواجهة هذا العدوان ولملاحقة البحارة الأميركيين حيثما وجدوهم وبالأسلحة المتاحة كافةً: «**قاتلوهم بأسلحتكم، بأيديكم، بأسنانكم...**». وتميّز «أبو زهير»،

بشهادة من رافقوه في المهمات الصعبة في تلك الفترة، وفي المقدمة منهم جورج البطل، بشجاعة القائد الذي كان يشارك رفاقه في تنفيذ هذا النوع من المهمات، غير مكتفٍ باتخاذ القرارات وبتصدير الأوامر والتوجيهات.

اقترح عليّ أبو زهير، بعد انتهاء أحداث عام ١٩٥٨، أن أتفرّغ للعمل الحزبي، وكنت قد أوشكت في ذلك الوقت أن أستعيد وظيفتي السابقة كمدرّس في المدارس الرسمية. فوافقت. وعيّنني مسؤولاً عن بعض منظمات الحزب في العاصمة، ثم بعد قليل، عضواً في قيادة منظمة الحزب في العاصمة وامتداداتها. وكان المسؤول عن المنظمة أوهانس أغباشيان عضو المكتب السياسي. وتكرس ذلك في مطالع عام ١٩٦٠. وبدأ النشاط كثيفاً إلى الحد الذي فاق قدرتي. إذ كنت في البداية وحدي مع أغباشيان، مسؤولين عن عمل المنظمات الحزبية وعن المنظمات الجماهيرية، النقابات والنساء والطلاب والمثقفين الخ... وبإلحاح مني استجابت القيادة فأضافت إلى الهيئة عدداً من الرفاق تشكلت منهم القيادة الجديدة لمنظمة الحزب في بيروت بقيادة أغباشيان، وهم صوايا صوايا وإدمون عون ونخلة مطران وكرنيك عطاريان وسهيل يموت وجورج حاوي وأنا. في ذلك العام بالذات انفجرت الأزمة بين الاتحاد السوفياتي والصين. وقد دُعيت إلى اجتماع موسّع للجنة المركزية قدّم فيه حسن قريطم تقريراً عن المؤتمر الذي كان قد عُقد في موسكو وانتهى بالصدام والانقسام. وكان موقف الحزب اللبناني مع الاتحاد السوفياتي ضد الصين. وصار ما صار. والحكاية أصبحت معروفة بتفاصيلها، منذ بداياتها السيئة حتى نهاياتها التي انتهت بانهيار الاتحاد السوفياتي ودخول الصين في اتجاه مخالف لما كان عليه نهج ماوتسي تونغ في كل القضايا وفي كل الميادين.

كثرت الأحداث في المنطقة كبيرها وصغيرها. وكان من بين تلك الأحداث انهيار الوحدة المصرية-السورية. وترافق ذلك الانهيار مع نقاش بدأ همساً وانتهى بثورة. وكان النقاش يدور حول كل القضايا، الفكرية والسياسية، وحول تحديد

طبيعة المرحلة، وحول العلاقات العربية-العربية، وحول آفاق التطور في بلداننا وفي العالم. وبرزت في تلك الفترة في الاتحاد السوفياتي نظرية التطور اللارأسمالي التي كان ينطلق أصحابها من أن بلدان العالم الثالث ليست مضطرة في تطورها باتجاه الاشتراكية أن تمر من الطريق الرأسمالي، بالنظر لتخلّفها ولضعف الطبقة العاملة فيها، وبالاستناد إلى المقولة التي كانت تعتبر أن بإمكان النظام الاشتراكي العالمي أن يشكّل، بالنسبة إلى تلك البلدان، البديل المؤقت من الطبقة العاملة ومن حزبها. وكانت نظرية التطور اللارأسمالي تلك تقضي بأن يشكل «الديمقراطيون الثوريون» في تلك البلدان قيادة تقودها عبر تحولات معقدة، وبالتحالف مع الاتحاد السوفياتي، إلى الطريق اللارأسمالي. وقد فجّرت تلك النظرية نقاشاً واسعاً في صفوف الحركة الشيوعية، بين مؤيّد ورافض. وكان بكداش من الرافضين لها. وكان عدد من كوادر الحزب وقيادييه مؤيدين لها وداعمين لموقف القيادة السوفياتية بشأنها. وسرعان ما انفجر صراع في منتصف عام ١٩٦٤، في داخل الحزب اللبناني قاده عدد من المثقفين، وعلى رأسهم مسؤول منظمة بيروت صديقي أغباشيان ومعه كل من صديقيّ إدمون عون ونخلة مطران وآخرين من كوادر الحزب. وكان من شعارات هذه المجموعة الدعوة إلى عقد مؤتمر للحزب لمناقشة تلك الأمور، ولإعادة الاعتبار إلى الشرعية في الحزب. بَيد أن هذا الشعار كان شعار الجيل الجديد كله من الشيوعيين الذين صاروا قيادة الحزب الرئيسية بالتدريج منذ ذلك التاريخ. لكن مشكلة هؤلاء الرفاق الآنف ذكرهم أنهم لجأوا إلى خالد بكداش في ذلك الحين، وصاروا، ربما من دون أن يدروا، شركاء له في معركة كان يخوضها ضد التحولات التي كانت تجري في المنطقة وفي العالم، كان خروتشوف، بعد المؤتمر العشرين للحزب السوفياتي خصوصاً، بطلها. وكان من أهم معالم تلك التحولات في لبنان وفي العالم العربي إعادة ما كان قد انقطع من علاقة تضامن وكفاح مشترك بين الشيوعيين والرئيس عبد الناصر والحركة الناصرية. وكان من ضرورات تلك

الفترة، بحسب ما كان يرى نقولا شاوي ورفاقه من الجيل الجديد، (جورج حاوي وجورج البطل وفضل الحاج المسؤولين في منظمة الحزب في العاصمة بيروت)، إعادة الاعتبار إلى الوجه العربي لسياسة الحزب في لبنان. كان بكداش، إذن، كما شرح لي الرفاق بعد عودتي من الخارج، داعماً لأولئك الرفاق في معركتهم الخاسرة. إذ كان يريد بكداش بواسطة أولئك الرفاق، من دون أن يدركوا ذلك ربما، تصفية حسابات قديمة مع بعض رفاقه الأوائل، وفي مقدمتهم نقولا شاوي. وانتهت تلك المعركة بفصل بعض أولئك الرفاق، وانسحاب بعضهم الآخر من الحزب وتشكيل تنظيم موازٍ للحزب، هو التنظيم الذي عرف بـ«اتحاد الشيوعيين». وكان من أهم نتائج تلك المعركة انفصال الحزب الشيوعي اللبناني رسمياً وفي شكل نهائي عن الحزب الشيوعي السوري وعن قيادة بكداش. وأذكر أنني حين عدت من عملي في مجلس السلم العالمي في فيينا في نهاية عام ١٩٦٤ وعلمت بما حصل في الحزب، فرحتُ بانفصال حزبنا عن الحزب السوري، وعن قيادة خالد بكداش، وحزنت لفصل أصدقائي الثلاثة من الحزب. فطلبت من نقولا شاوي أن أحاول استعادتهم، فوافق. ولكنني لم أفلح إلا في استعادة إدمون عون. إذ ظل الآخران أغباشيان ونخلة مطران مصرّين على موقفهما. لكنني لم أقطع علاقتي معهما حتى آخر حياتهما.

كان استقلال الحزب اللبناني عن الحزب السوري في ذلك العام (١٩٦٤)، بعد تلك المعركة، ممرّاً حقيقياً للحزب، ولو بالتدريج، ممرّاً تحوّل فيه بقيادة نقولا شاوي من حزب تابع للاتحاد السوفياتي، باسم الأمانة للأممية البروليتارية، إلى حزب يقرر هو بنفسه سياساته ومواقفه وبرامجه النضالية، مع الاحتفاظ بعلاقة وثيقة بالاتحاد السوفياتي، كزعيم للحركة الشيوعية العالمية. إلا أن ما تحقق في المؤتمر الثاني، في عام ١٩٦٨، بخصوص الاستقلالية النسبية عن السوفيات كان أعمق وأكثر وضوحاً. لكنّ المفارقة في تلك الأحداث وتطوراتها هو أن السوفيات، بعد أن تحقق انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري في ما يشبه

العقاب، في نظر السوفيات، لخالد بكداش على مواقفه المشار إليها آنفاً، طلبوا من القيادة الجديدة الالتزام الكامل بالعلاقة معهم في كل ما يتصل بالسياسة الخارجية والسياسة الداخلية. فوافق بعض الرفاق في القيادة في الحرس القديم. لكن نقولا شاوي ومعه الأعضاء الجدد في القيادة الذين جرى ضمّهم في أعقاب استقلال الحزب اللبناني عن الحزب السوري، أبدوا ممانعة هادئة، في البداية. لكن الخلاف سرعان ما تحوّل خلال فترة قصيرة، داخل القيادة، في بادئ الأمر، إلى معركة عنيفة وعاصفة بين اتجاهين، الاتجاه المتمثل بشاوي والرفاق الجدد المثابر على التجديد والساعي إلى استقلالية الحزب في قراءاته السياسية، والاتجاه المتمثل بالحرس القديم، الذي كان يريد الاستمرار في الارتباط العضوي من دون نقاش أو تمايز عن الحزب السوفياتي، إلى الحد الذي جعل حسن قريطم يعلن في أحد الاجتماعات أن الحزب يأخذ مواقفه من بيانات وكالة تاس. وتدخّل السوفيات بقوة إلى جانب الحرس القديم. وانتهت هذه المعركة الكبرى بانتصار حركة التجديد في الحزب.

كان الحزب قد أصدر في عامي ١٩٦٥ و١٩٦٦ وثيقتين هامتين حملت الأولى عنوان «نحو طريق تقدمي لتطور لبنان». وحملت الثانية عنوان «من أجل الانطلاق بلبنان في طريق التحرر والتقدم الاقتصادي والاجتماعي». وكان من أبرز ما ورد في هاتين الوثيقتين، في الوضع الداخلي اللبناني، التقييم الإيجابي لنهج الرئيس فؤاد شهاب الذي أعاد الاعتبار إلى مؤسسات الدولة من خلال إدخال تعديلات أساسية في وظائفها. وكانت من المؤشرات الهامة في نهج فؤاد شهاب الاستنتاجات التي تبنّاها في أعقاب تقرير بعثة إرفد التي أجرت مسحاً للوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد وخلصت إلى الإشارة البالغة الأهمية إلى أن ٤٪ من اللبنانيين يستأثرون بناتج الثروة الوطنية. إلا أن هاتين الوثيقتين أشارتا في الوقت عينه إلى الجانب السلبي في سياسة الرئيس شهاب المتمثل بإعطاء دور أساسي في حكم البلاد للعسكر. وقد كانت الوثيقتان في توجهاتهما

وفي طريقة إعدادهما تعبيراً عن بداية تغيير في خط الحزب في اتجاه الاستقلال في صياغة خطته وفي تحديد مواقفه من القضايا المحلية والإقليمية والدولية. وكان عاما ١٩٦٦ و١٩٦٧ عامين حاسمين في هذا الاتجاه. فقد دخل الحزب في أزمة عضوية تدخل فيها الاتحاد السوفياتي بفظاظة ضد النهج الذي كان يقوده نقولا شاوي مع رفاقه الجدد، من أجل استقلال الحزب في شؤونه الداخلية والسياسية، من دون أن يتخلى عن ارتباطه الأممي بالاتحاد السوفياتي. وانتصر الاتجاه الجديد في الحزب. ورغم أن موقف نقولا شاوي من الأزمة في مراحلها الأولى كان واضحاً وثابتاً، إذ كان مستهدفاً من قِبل رفاقه من الحرس القديم بسبب استقلاليته، ولكونه كان مقداماً في تقديم الكوادر الشابة لكي تمارس دورها في حياة الحزب، إلا أنه، وتحت ضغط التدخل السوفياتي في مرحلة لاحقة، تراجع لبعض الوقت، وصار أسير هذا التدخل السوفياتي مع الحرس القديم. وكانت نقطة الضعف في موقفه ذاك ثقته، من حيث المبدأ، بالاتحاد السوفياتي. لكنه، عندما اكتشف في وقت لاحق أن السوفيات خدعوه في قضية جورج حاوي، الذي اتهموه بالعمالة للمخابرات الأميركية، عاد إلى موقفه الأول. وفي الواقع، وبعد عام من تفاقم الأزمة التي هزّت الحزب في الصميم، كوادره وأعضاءه ومناصريه، أدرك الرفيق أبو زهير أنه وقع فريسة خداع وضِعت خطته في موسكو بمشاركة رفاقه من الحرس القديم. فبدأ يفكر بمسؤولية باحثاً عن صيغة تُخرج الحزب من المأزق. وقد واجهته، وهو في مرحلة التفكير والبحث المضنية تلك، ضغوط كبيرة وتهديدات كان من نتائجها أنه أصيب بإغماء في أحد الاجتماعات التي عقدت في السفارة السوفياتية في بيروت بحضور رفاقه من الحرس القديم وبحضور السفير السوفياتي في ذلك الحين ديودشكين، كبير المتآمرين على الحزب. لكن نقولا شاوي كان قد اتخذ قراره الحاسم بالعودة إلى موقفه الأول، الموقف الذي كان فيه بطل التجديد في الحزب، في الفكر وفي السياسة وفي أشكال التنظيم الحزبي. واستعاد مبادرته في تقديم الكوادر الشابة

إلى مواقع القرار في الحزب. وبدأ يمارس محاولات استعادة عدد من رفاق الحرس القديم إلى موقعه وموقفه. وكان يساعده في ذلك الرفاق من الجيل الجديد، ممن كانوا أعضاء في المكتب السياسي واللجنة المركزية، باقتراح منه في الأساس، بعد انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري.

وكان أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية الذين كان قد جرى ضمّهم إلى تلك المواقع في مطلع عام ١٩٦٦، هم الذين خاضوا المعركة الحاسمة إلى جانب نقولا شاوي منذ البداية، وهم الذين ساعدوه، في مرحلة لاحقة، لاستعادة موقعه في قيادة عملية التجديد والتغيير في الحزب. وقد تم ضم هؤلاء إلى اللجنة المركزية، وتمّ ضمّ بعضهم إلى المكتب السياسي، في مرحلتين، أولاً في عام ١٩٦٤، وتالياً في عام ١٩٦٦، وهم من دون ترتيب: جورج حاوي وفاروق معصراني وجورج البطل وغسان الرفاعي ونديم عبد الصمد وخليل الدبس وخليل نعّوس ورهيف فيّاض وفضل الحاج وأحمد المير الأيوبي وحسين مروّة والياس الهبر وكميل مجدلاني وموريس نهرا وعدنان دغيدي وكرنيك عطاريان وعزيز صليبا وكريم مروّة. وكان كل من مصطفى العريس والياس البواري وكريكور همامجيان وبارور سبرتسيان أعضاء في اللجنة المركزية القديمة مع الحرس القديم، قبل انفصال الحزبين، ثم صاروا أعضاء في اللجنة المركزية الجديدة. إلا أن جورج حاوي غادر لبنان، بعد أن وجّه إليه الاتهام من قِبل السوفيات بالعمالة للمخابرات الأميركية، تاركاً لرفاقه متابعة المعركة، مفضّلاً عدم زجّ قضيته في معركة مصيرية كان يواجهها الحزب، تسهيلاً لمهمة انتصار رفاقه فيها. وجدير بالذكر أن هذه المجموعة من الكوادر الشابة كانت في نشاطها السياسي والفكري قد استعادت إلى مواقفها الأكثرية الساحقة من الشيوعيين ومن المنظمات الحزبية والمنظمات الجماهيرية وفي مقدمتها قادة وكوادر الحركة النقابية. واستناداً إلى ما أنجزته وضعت هذه المجموعة وثيقة سياسية وفكرية تعبّر عن الخط العام للحزب كما تتصوره في المستقبل، وحاولت تقديمها إلى السوفيات، فرفض السفير

السوفياتي استقبال الوفد ورفض تسلّم الوثيقة. وهي الوثيقة التي كتبها غسّان الرفاعي وصارت في المؤتمر الثاني أساساً للوثائق التي صدرت عنه.

كنت في ذلك الحين في موسكو أشارك في دورة حزبية في المعهد المكرّس لتأهيل الكوادر في الأحزاب الشيوعية. وكنت على صِلة بما يجري في الحزب من صراع ونقاش. وحين انتهت الدورة منعني الرفاق السوفيات من العودة بقرار تعسّفي منهم ومن الرفاق في الحرس القديم في الحزب في بيروت. ورغم أن السوفيات كانوا يعرفون موقعي في قيادة الحزب كعضو في المكتب السياسي وفي السكرتاريا، إلا أنهم أصرّوا على منعي من العودة، مرفقين ذلك بتوجيه التهم الجاهزة إليَّ المعروفة في ذلك الحين: تروتسكي، ماوي الخ... ولم يُفرج عني إلا بعد مداخلة قام بها مدير المعهد الذي كان متضامناً معي ومع رفاقي الشباب في لبنان، وبعضهم كان قد تخرّج من المعهد بقيادته. إذ حمل إلى بريجينيف رسالة شكوى موجّهة مني إليه طالباً السماح لي بالمغادرة إلى بلدي. وهكذا كان. وحين عدت إلى بيروت كان أول الذين استقبلوني الرفيق نقولا. كان اللقاء مؤثراً. روى لي فيه أبو زهير تفاصيل ما حدث منذ البدايات حتى اللحظة التي أدرك فيها ما كان يجري في الخفاء، وما كان يُعدّ ضده وضد الحزب، بين بيروت وموسكو. وبدأنا معاً في البحث الجدّي والمسؤول عن الطريقة التي ننهي فيها الأزمة. وكانت قد تهيأت عناصرها الأساسية. ولم تمض أيام على لقائنا حتى كان الرفيق نقولا قد استعاد المبادرة. ودخلنا في الطريق إلى إنهاء الأزمة. اجتمعت اللجنة المركزية للحزب برئاسته. واتخذت قرارات سياسية وتنظيمية. وكان أهم قراراتها الدعوة إلى عقد المؤتمر الثاني للحزب، وتشكيل لجنة تحضيرية، كُلّفت إعداد مشروع برنامج جديد للحزب، ونظام داخلي جديد، يراعي الأصول الديمقراطية قدر ما كانت تحتمل ظروف تلك المرحلة، وإعداد تقرير سياسي نقدي للأعوام الخمسة والعشرين التي تفصل المؤتمر الثاني عن المؤتمر الأول، وشروط عمل الحزب في تلك الحقبة، والصواب والخطأ في

ممارساته السياسية والتنظيمية، ومنابع الخطأ ومصادره. وقد عقد المؤتمر في عام ١٩٦٨، بعد عام حافل من النقاش الفكري والسياسي والتنظيمي شمل الحزب كله. وأرسلت قيادة الحزب مشاريع الوثائق التي أقرّتها اللجنة التحضيرية إلى الأحزاب الشقيقة في العالم العربي. وذهب وفد تشكل من نديم عبد الصمد وجورج البطل إلى موسكو لمناقشتها مع القيادة السوفياتية. وكان ذلك النمط من الإعداد لمؤتمر الحزب جديداً في نوعه وفي شكله في الحركة الشيوعية العربية. وشارك في إعداد هذه الوثائق عدد كبير من كوادر الحزب من ذوي الاختصاص في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إضافة إلى عدد من أعضاء القيادة الجديدة الذين كان قد جرى ضمهم إلى الهيئات القيادية في العام الذي انفجرت فيه الأزمة. وكان هؤلاء جميعاً زهرة الحزب في ذلك الحين، وخلاصة التحولات التي كانت تجري فيه وعلى هامشه، وفي حياة لبنان، وفي الحياة العربية والدولية عموماً. أذكر من بين الذين شاركوا بنشاط وجهد كبيرين أولاً اسم غسان الرفاعي، الذي كان له الدور الأساسي في صياغة التقرير النقدي عن الأعوام الخمسة والعشرين الفاصلة بين المؤتمر الأول والمؤتمر الثاني. أما الآخرون الذين ساهموا مع غسان في وثائق المؤتمر الأخرى فهم: حسين حمدان ورهيف فياض ونسيم ضاهر وكامل شاهين وعزيز صليبا وعدنان الدغيدي وفؤاد زحيل.

كان نقولا شاوي شديد الفرح، عميق الشعور بأنه أدّى دوراً تاريخياً لم يسبقه إليه أحد في الحركة الشيوعية العربية على الأقل. وعبّر عن مشاعره تلك بأن ترك للأجيال الجديدة حريتها في البحث وفي التدقيق وفي التحليل، وفي استخلاص الدروس والمهمات للحقبة القادمة. وكان قد بدأ يدرك، بفرح وبمرارة كذلك، أن زمانه وزمان قيادته قد بدأ يتراجع لصالح زمن الأجيال التي كان له دور أساسي في فتح الطريق أمامها إلى التقدم وإلى احتلال المواقع التي تعود إليها في قيادة الحزب على جميع المستويات. وكان ذلك من قِبل نقولا شاوي تعبيراً عن

الإحساس بمسؤوليتين: مسؤولية كان يعتز بها تتمثل بتقديم الكوادر الجديدة إلى المواقع المسؤولة، ومسؤولية كانت مجبولة بالندم وبالمرارة لأنه التحق من دون وعي بالمؤامرة التي كانت تستهدفه هو بالذات، وكانت تستهدف تلك الأجيال الجديدة من كوادر الحزب ومن قيادته، وكانت تستهدف، في الأساس، الدور الجديد الذي كان مفترضاً بالحزب أن يلعبه، بعد أن استقل عن الحزب السوري، واتخذ طريقاً آخر فيه، وطنياً لبنانياً، وعربياً وأممياً.

كانت تلك المرحلة في حياة نقولا شاوي المتصلة بانعقاد المؤتمر الثاني بداية الانكفاء الطوعي من قبله عن ممارسة دوره الريادي السابق، الذي كان قد تألّق في اجتماع اللجنة المركزية في شباط/فبراير من عام ١٩٦٦ الذي قدّم فيه تقريراً بالغ الأهمية في عمق تحليله للأوضاع في لبنان وفي المنطقة وفي العالم، وفي استشرافه للمستقبل، وفي تحديده الدقيق لمهمات المرحلة المقبلة في حياة الحزب. تراجع دور نقولا بعد المؤتمر في الفكر وفي السياسة وفي النشاط، من دون أن يتخلّى عن اهتمامه الشخصي بالثقافة وبالتثقيف الذاتي. فقد ظل يمارس هوايته في القراءة، من دون أن يحاول بذل الجهد المطلوب منه في نقل خلاصات تلك القراءات في حياة الحزب. وصار يقوم بمهمة إعداد التقارير أمام اجتماعات اللجنة المركزية والمكتب السياسي، أعضاء من القيادة الجديدة المنتخبة في المؤتمرالثاني. وكنت واحداً من هؤلاء. ولم أكن الوحيد، رغم أن الاجتماع الأول للجنة المركزية المنتخبة في المؤتمر أو ربما المكتب السياسي اختاراني لأن أقوم بدور المساعد الأول للرفيق نقولا في قيادة الحزب. وهو القرار الذي رفضت نقله إلى العلن، لأنني رفضت أن يُمارَس على الرفيق نقولا، في تلك المرحلة الحرجة من حياته، ما كان يبدو نوعاً من الوصاية عليه، بدلاً من المساعدة له، كما جرت العادة في العديد من الأحزاب، من موقع الأمين العام المساعد، أونائب الأمين العام.

من طرائف تلك المرحلة، أي فور اجتماع اللجنة المركزية الذي أنهى الأزمة

ودعا إلى عقد المؤتمر الثاني للحزب، أن الحزب تلقى دعوة من الحزب الشيوعي السوفياتي للمشاركة في احتفالات الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر. تشكّل الوفد بقيادة نقولا شاوي وعضوية آرتين مادايان وجورج البطل وأنا. واستقبل الوفد بالاهتمام ذاته الذي كانت تُستقبل به وفود الحزب. استقبل الوفد في مقر اللجنة المركزية، بعد أن انضمّ إليه فاروق معصراني الذي كان يمثل في الاحتفالات حركة السلم اللبنانية. استقبلنا بحفاوة من قبل كل من سوسولوف وبونماريوف وأوليانوفسكي وآخرين في جهاز اللجنة المركزية، الذين كانوا قد وجّهوا التهمة إلى جورج حاوي بالارتباط بالمخابرات الأميركية وساهموا في ما بعد في توجيه الاتهام إليّ بالتروتسكية والماوية، وحاولوا منعي من العودة إلى لبنان بعد انتهاء فترة الدراسة لمدة سنة في المدرسة الأممية. وكان لافتاً للنظر أن سوسولوف توجّه إلى آرتين مادايان، بعد أن استمع إلى حديث نقولا شاوي، قائلاً: **ما هو رأي الرفيق مادايان**. فأجاب مادايان بالقول: **إنني أثق بهؤلاء الشباب**. وكان ذلك يشير إلى علاقة الثقة التي كانت تربط مادايان بالسوفيات منذ البدايات، وظلت ترافقه حتى آخر حياته. وبدا لي يومها أن نقولا شاوي كان قد اتفق مع مادايان على ذلك تثبيتاً وترسيخاً لموقف مادايان في الاتجاه الجديد الذي سلكه الحزب بعد المؤتمر الثاني.

كان نقولا شاوي على امتداد تلك الفترة التي أعقبت المؤتمر، لا يتورّع، حتى في اللقاءات التي كانت تُعقد مع قادة الأحزاب الأخرى، في لبنان وفي العالم العربي، وفي البلدان الاشتراكية، عن الطلب إلى من كان يرافقه في تلك اللقاءات من أعضاء القيادة الجدد، وكنت واحداً منهم، أن يقوموا هم بدلاً منه بعرض مواقف الحزب من القضايا المطلوب مناقشتها مع تلك القيادات من الأحزاب الأخرى. وكان ذلك تأكيداً لما أشرت إليه من أن نقولا كان يهيّئ نفسه للخروج من قيادة الحزب، بعد أن اطمأنّ إلى أن الحزب أصبح بأيد أمينة وقادرة على أن تقوده في الاتجاه الصحيح. وظل الأمر على هذا المنوال حتى انعقاد

المؤتمر الثالث للحزب في عام ١٩٧٢، الذي كان يعتبر توأم المؤتمر الثاني والمكمل للتحولات التي كان قد بدأها ذلك المؤتمر.

لقد رافقت شاوي في زيارة العديد من البلدان العربية والأجنبية، في وفود حزبية. أحب أن أشير إلى أربع من هذه الزيارات لدلالاتها. الزيارة الأولى كانت إلى بغداد في عام ١٩٧٢ لتهنئة الشيوعيين والبعثيين بتشكيل الجبهة الوطنية، وذلك بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات على المجازر التي ارتكبها البعثيون ضد الشيوعيين (١٩٦٣)، في الانقلاب ضد حكم عبد الكريم قاسم. وكان معنا في الوفد كميل مجدلاني عضو اللجنة المركزية للحزب. التقينا قياديي الحزبين والرئيس أحمد حسن البكر. لكننا تساءلنا مع الشيوعيين عن آفاق تلك الجبهة في الإيجاب وفي السلب. وكان جوابهم أن الوضع الجديد الذي نشأ بعد انقلاب عام ١٩٦٨ وأتى بالبعث من جديد إلى السلطة هو الذي فرض عليهم الدخول في الجبهة تاركين للزمن أن يحدد آفاق ذلك التعاون. الزيارة الثانية كانت إلى موسكو لحضور احتفالات الذكرى الخمسين لتأسيس الاتحاد السوفياتي. وهي كانت مناسبة عرّفني فيها شاوي إلى عدد كبير من قادة الأحزاب الشيوعية وقادة الدول الاشتراكية. الزيارة الثالثة كانت إلى باريس في عام ١٩٧٦، حيث أقام الحزب الشيوعي الفرنسي مهرجاناً تضامنياً مع حزبنا في معركته ضد التدخل العسكري السوري في لبنان، بعد أن كنا قد قوطعنا من قبل الاتحاد السوفياتي ومن الدول الاشتراكية ومن الأحزاب الشيوعية العربية ومن أحزاب شيوعية أخرى كثيرة. وخطب في المهرجان نقولا شاوي وجورج مارشيه. وكان ذلك المهرجان حدثاً في تاريخ علاقات حزبنا بالعالم، في ذلك التاريخ. الزيارة الرابعة كانت إلى كوبا في عام ١٩٧٧. وكان معنا في الوفد موريس نهرا عضو اللجنة المركزية للحزب. وكان اللقاء مع فيدل كاسترو صعباً، لأننا اختلفنا معه حول الموقف من التدخل السوري، رغم أننا اتفقنا على أمور أخرى في مقدمتها الوعد بمساعدات تقدّمها كوبا إلى حزبنا، والاتفاق على إرسال موفد دائم عن

الحزب في هافانا. ووقع الاختيار على موريس نهرا، الذي حلّ مكانه في ما بعد اسماعيل إبراهيم.

كان من الواضح أن خليفة نقولا شاوي المؤهّل لاحتلال موقع الأمين العام المقبل للحزب هو جورج حاوي، وليس أي شخص آخر من أعضاء القيادة من الشباب. وقد بدأ يبرز في دوره المقبل، فور عودته من منفاه الاختياري والقسري في آن، ابتداء من أواخر عام ١٩٦٨ وفي الأعوام اللاحقة. وكان نقولا، الذي أحبّ جورج كثيراً، عميق الفرح، وعظيم الثقة بالقائد الجديد القادم. ولم يكن يخفي مشاعره تلك إزاء ما انتهت إليه الأمور، لا سيما ما يتعلق بالدور القادم لجورج الذي كان يصعد إليه بقوة الصاروخ.

لا بدّ لي، هنا، أن أذكّر بأن نقولا شاوي الذي كان يتعامل مع رفاقه الشباب في القيادة بثقة كاملة، كان يشترك معهم في اتخاذ القرارات الهامة، ويتحمل معهم المسؤوليات المترتبة عليها. وكان من أهم تلك القرارات، التي اتُّخذت بعد نقاشات واسعة وصعبة، قرار المشاركة في الحرب الأهلية منذ بدايتها. وتحمّل مع رفاقه نتائج الخلاف من جديد مع القيادة السوفياتية، بسبب بعض تلك القرارات، لا سيّما ما يتعلق منها بالموقف من سوريا. وقد ذهب شاوي مع نديم عبد الصمد في أعقاب دخول القوات السورية إلى لبنان في مطالع عام ١٩٧٧ إلى موسكو للقاء القيادة السوفياتية وللنقاش معها حول الوضع الجديد الناشئ. ولأن الخلاف كان كبيراً بين الحزبين فلم يصدر في البرافدا الخبر الذي كانت تنشره الجريدة في أعقاب اللقاءات التي تجريها القيادة السوفياتية مع الأحزاب الشقيقة. وكان ذلك يحصل لأول مرة بين الحزبين. عاد نديم إلى لبنان، وتقرر أن يبقى نقولا في بودابست بعيداً عن مضاعفات الصراع بين الحزب والسوريين ومعهم السوفيات، وحفاظاً على سلامته. يومها تقرر أن يذهب آرتين مادايان إلى موسكو ويوسف خطار الحلو إلى أوزبكستان في إطار تلك التدابير الاحترازية. لكن شاوي لم يستطع البقاء طويلاً في بودابست. وقد زرته في ذلك

الحين، وشكا لي صعوبة استمراره في المنفى، رغم كل ما كان يقدّمه له المجريون من تسهيلات. فتقررت عودته. واستناداً إلى تجربته القاسية تلك في المنفى رفض في عام ١٩٨٢، خلال الغزو الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت، أن يذهب إلى الخارج مهما كانت النتائج. وشاركه في موقفه كل من آرتين مادايان ويوسف خطّار الحلو ومصطفى العريس والياس البواري والياس الهبر وحسين مروّة، وآخرون من جيل الكبار في الحزب.

في ختام هذا الحديث عن نقولا شاوي لا بد من قول كلمة حق، هي أقرب إلى الاعتراف، الذي يجيء متأخراً. وهو اعتراف كان يأكل من أعصابي على امتداد السنوات الماضية التي أعقبت رحيل رفيقنا الكبير أبو زهير. وفي اعتقادي فإن الشعور بالمسؤولية، ولو جاء متأخراً، يقضي بأن نعترف نحن رفاق نقولا شاوي من الجيل الجديد، بأننا، رغم تقديرنا لدوره في إحداث التغيير في الحزب منذ أزمة عام ١٩٦٤، التي انتهت بانفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري بقيادته، حتى المؤتمر الرابع الذي عقد في عام ١٩٧٩، الذي انتخب فيه جورج حاوي أميناً عاماً للحزب، وانتخب هو رئيساً للحزب بصورة استثنائية تكريماً له ولدوره التاريخي، أعترف بأننا قد تعاملنا معه، ومع حالة الانكفاء التي كان قد وضع نفسه فيها، تعاملاً غير إنساني، وغير مسؤول. وحين أتحدث بصفة الجمع هنا فإنني أعني بالتحديد أعضاء السكرتاريا، على وجه الخصوص، وهم جورج حاوي ونديم عبد الصمد وخليل الدبس وأنا. لكنّ الأكثر مسؤولية بيننا عن ذلك كان جورج حاوي بالذات، بعد أن أصبح أميناً عاماً للحزب. وكان ذلك منا جميعنا، ومن جورج تحديداً، موقفاً يشير إلى عدم الوفاء لقائد شيوعي فذّ، أعطى في سلوكه مثالاً لم يسبقه إليه أيّ من قادة الأحزاب الشيوعية في بلداننا وفي العالم. وهو اعتراف أجد نفسي، اليوم، محمولاً على إعلانه على الملأ عموماً، وعلى الشيوعيين خصوصاً، تصحيحاً متأخراً لموقف سلبي قديم، وتحذيراً للشيوعيين ولكل العاملين في سائر الأحزاب والمؤسسات، من الوقوع

في ما وقعنا فيه نحن، ووقع فيه سوانا في الأحزاب الأخرى، في بلداننا وفي العالم، تجاه الرموز التاريخية في أحزابنا. وإذ أتحدث عن نفسي في هذا الموضوع، حتى ولو كان فيما أقوله ربما بعض المبالغة، فإنني لا أريد أن أُقحم الآخرين من رفاقي في تحمّل هذه المسؤولية، وأترك للأحياء منهم، بعد أن فقدنا اثنين عزيزين من رفاقنا هما جورج حاوي وخليل الدبس، أن يقولوا أو لا يقولوا شيئاً في هذا الأمر.

إن سيرة نقولا شاوي، هذا القيادي الشيوعي من نوع خاص ومتميز، يصحّ أن تكون نموذجاً لسيرة القائد السياسي في أي حزب من الأحزاب. إذ هو أعطى في حياته خلال خمسين عاماً نكهة خاصة للعمل السياسي. وأكد، بالممارسة، أن أصل السياسة هو الفكر العلمي المتجدد، والثقافة الواسعة المتعددة الأبعاد. ذلك أنه، من دون هذه الأسس المكوّنة للسياسة، تصبح السياسة فعلاً روتينياً، تطغى فيه المصالح الضيّقة على المصالح الأساسية للأوطان وللشعوب وتقود إلى الكثير من الأزمات، وإلى الصراعات التي كثيراً ما تحوّلت إلى حروب أهلية مدمّرة. ولبنان وفلسطين والعراق نماذج معبّرة عن هذا الاتجاه المملوء بالأخطار.

إن كل ذلك يعطي نقولا شاوي مكانه الفذّ في تاريخ الحركة الشيوعية وفي تاريخ النضال الوطني اللبناني والعربي. وللمزيد من التعرف إلى شخصيته أدعو القارئ إلى اقتناء كتابه «طريقي إلى الحزب» الذي تستعد دار الفارابي لإصدار الطبعة الثانية منه بعد أن نفدت الطبعة الأولى.

وأحب أن أختم هذا الحديث عن نقولا شاوي بالاستشهاد ببعض ما ورد في كتابه الذي لم يكمله «طريقي إلى الحزب». وهي نماذج تشير إلى العناصر التي كوّنت شخصيته ووحّدت بين كونه قائداً سياسياً ومثقفاً وحامل نزعة إنسانية ميّزته في كل مواقفه، كما تشير إلى الدقة في التحليل وإلى سعة الثقافة، وإلى معرفة بتاريخ المنطقة ندر مثيلها.

يقول في الصفحة ٩٨ في الفصل الخامس من الكتاب:

«يلوح لي، هنا، هذا السؤال: في أيّ سنّ يبدأ ذهن الطفل في حصر وتخزين صور الأحداث ''الهامة'' التي تمر به في صغره، لا سيّما تلك التي تنطبع فيه جذرياً وتظل ماثلة، كلّها أو جلّها، في ذاكرته مدى الحياة؟.. طرحت السؤال عفوياً، على نفسي، أكثر من مرّة. فتبيّن لي أن الأحداث المثيرة، الخارجة عن المألوف، هي وحدها التي تُنقش بقوة في الذاكرة ولا تُمحى، فتكون كالأضواء وسط بحر من الأحداث العادية، الروتينية، التي تتتالى وتتردد كل يوم ولا يمكن ضبطها إلا في سياقها العام».

ويقول في الصفحة ١٣٧ في الفصل السابع:

«بين الأحداث الهامة التي أتذكرها جيداً، في تلك الفترة، الزيارة الطنّانة الخاطفة، التي قام بها الأمير فيصل إلى طرابلس. لعلّها جرت في أواسط تشرين الثاني ١٩٢٨، لدى عودته المسرعة من حلب إلى بيروت لركوب البحر إلى أوروبا بناء على توصية أبيه للاشتراك في مؤتمر الصلح، كما أسلفنا. انتشر الخبر كالبرق: ''الشريف قادم إلى طرابلس''. وزحفت المدينة عن بكرة أبيها لاستقباله و''التفرّج عليه''. وكنت، مع صحبي، بين الفضوليين الذين هرعوا إلى ''الفرجة''. حلّ فيصل ضيفاً على الحاكم الإداري، عبد الحميد كرامي، الذي كان عامة الناس يسمونه المفدي، أي المفتي.. واكتظت ساحة التل والشوارع المحيطة بها بالبشر وبراكبي الخيول الذين قدموا من الجوار، من عكار والضنية وتل كلخ، وبينهم الدنادشة. وفُرشت بعض الطرقات بالبسط والسجاد، وارتفعت فوقها الزينات الجميلة ونزل إلى الحلبة لاعبو السيف والترس وقُرعت الطبول.. كان يوماً مشهوداً لا ينسى..»

ويقول في الصفحة التالية:

«حدث آخر شغل المدينة حين زارت لجنة التحقيق الأميركية طرابلس، في أواسط تموز ١٩١٩، واختارت السراي مقراً لها لاستقبال الوفود وتقبّل العرائض. في ذلك اليوم أيضاً غصّت ساحة التل بالأهالي يهتفون بالشعارات الوطنية ويغنّون الأناشيد الحماسية ويعيّشون الشريف حسين وابنه فيصل وينادون بالوحدة السورية والاستقلال. وكنت مع أترابي بين المتفرّجين...»

ويضيف:

«خاطرة من نوع آخر. عدت ذات يوم، من دوراني، وإذا بفندقنا يعجّ بعدد غير مألوف من النزلاء، نساء ورجالاً، يتخاطبون باللهجة المصرية. ولما سألت أمي عن هؤلاء الضيوف، أخبرتني أنهم ''مشخصون'' (أي: ممثلون، ذلك كان التعبير المتداول وقتها)، وأنهم أعضاء فرقة تمثيلية مصرية يرأسها فنان مشهور يدعى جورج أبيض جاءوا إلى طرابلس ليقدّموا رواياتهم على ''مرسح'' (كذا)، قهوة ''الانجا''. وكانت هذه ''القهوة'' الصالة الوحيدة للتمثيل والغناء في طرابلس.... لاحظت أن اثنتين من الممثلات تنظران إليّ من بعيد وهما تبتسمان وتتهامسان. ثم اقتربتا مني بلطف فداعبت إحداهما شعري الأشقر الطويل المسترسل على كتفي، وسألتني عن اسمي وعمري وأخذتني بيدي إلى الليوان حيث كانت جالسة أمي. وشرحت لها الموضوع: تنوي الفرقة تقديم مسرحية عنوانها ''وفاء جنفياف''. وهي قصة عاطفية عن أمير غضب على زوجته واتهمها بالخيانة وقرر قتلها. لكنها تمكنت من الفرار مع طفلها من القصر بمساعدة وصيفتها، وأقامت في غابة بعيدة عن الأنظار وعاشت هناك مع طفلها فترة من الزمن. وبعد حين، تبيّن

للأمير أن زوجته بريئة. فأخذ يبحث عنها. وصدف أن كان ذات يوم في الصيد، فعثر رجاله على جنفياف وطفلها ووصيفتها في الغابة. فجنّ فرحاً وعاد بهم إلى القصر. وقالت الممثلة: ''إننا بحاجة إلى طفل يقوم بالدور والجدع ده مناسب تماماً. أفلا تسمحين له أن يذهب معنا إلى المرسح؟'' فابتسمت أمي ووافقت. وبالطبع، وافقت أنا أيضاً. كان عليّ أن أنادي، أحياناً، ماما. وفي نهاية المسرحية أن أصرخ ''بابا، بابا''، وأن أتظاهر في أحد المشاهد أني أبكي... ونفّذت التعليمات بحذافيرها. وقد شهد الجميع أني أتقنت تمثيل دوري على خير وجه..»

ثم يقول في الصفحة ١٤٥ في الفصل ذاته:

«كنت منذ صغري مولعاً بـ''التنكيش''، أي التنقيب، بلا هدف معيّن ولمجرّد حب الاستطلاع وإرواء الفضول، في الأماكن والمخابئ التي تتراكم فيها، داخل البيت، أشياء وأغراض، كتب وأوراق، استقرّت حيث هي، من زمن طويل، وطواها النسيان والإهمال. كنت أجد لذة في وضع أنفي في أية بقعة أجهل ما فيها... كثيراً ما كنت أعثر على أشياء عزيزة، مفيدة، أنفض الغبار عنها، وأنزلها إلى مجال التداول... أقول بالمناسبة إن تلك الهواية، الحميدة أو الذميمة، والبريئة على كل حال، التي لازمتني في الكبر، قد خدمتني إلى أقصى حد أثناء العهود الصعبة التي عاشها حزبنا الشيوعي، في الثلاثينات أولاً، والتي كان علينا فيها أن لا نُبقي في بيوتنا السرّية أية ورقة أو وثيقة أو محضر اجتماع أو لائحة أسماء يمكن أن يفيد منها ضدنا رجال الشرطة والأمن العام في حال مداهمتهم تلك البيوت. لذلك كنت على الدوام متيقظاً، عارفاً بالتفصيل ما هو مودوع في هذا المكان أو ذاك، من أوراق ووثائق،

ومحترزاً بالتالي من ترك ''الأشياء الخطرة'' في البيوت المعرّضة لـ''الكبسات'' المفاجئة..»

وفي الفصل التاسع يقول في الصفحة ١٦٤:

«صدف، أن رأيت الجدّ أبا جرجي، جالساً في المنزول يقرأ كتاباً. فاستجمعت كل ما عندي من فضول، وسألته عما يقرأ. فأراني اسم الكتاب..... ثم قال: ''في هذه الخرستانة (الخزانة)، بالزاوية مجموعة روايات يمكن أن تتسلى بها أيضاً''. وهكذا انحلّت عقدة الضجر. ورأيتني أمضي ساعات، كل يوم، في صالون العمارة الهادئ، مستلقياً على أحد المقاعد، أقرأ بلا انقطاع.... عثرت في الخرستانة على غذاء وفير: مجموعة واسعة من روايات جرجي زيدان المقتبسة من التاريخ الإسلامي، بينها، على ما أذكر، أبومسلم الخرساني و١٧ رمضان وشجرة الدر وغيرها... ثم وجدتني أوسّع البيكار، فألجأ إلى هواية ''التنكيش'' المأثورة عني، بحثاً عن مواد أخرى للمطالعة. غزوت مكتبة كبير الأخوة، الكهل الأنيس الخلوق، جرجي، ثم سطوت على خزنة الدكتور الياس، وعدت ببعض الصيد، من طراز آخر، جلّه أدبي وتاريخي، منه رواية ليون تولستوي الشهيرة ''البعث''، و''الغربال'' لميخائيل نعيمة (تصفّحته فقط)، وأعداد من الهلال والمقتطف وأجزاء كثيرة من المورد الصافي الملأى صفحاتها بنوادر وحكايات ولا أطرف من جمع وابتكار صاحبها الظريف المعلم جرجس الخوري المقدسي، إلى جانب نسخ عتيقة صفراء من جامعة فرح أنطون وأعداد من مجلات السمير والحارس والنديم وغيرها...»

ويقول في الصفحة ١٨٠:

«بعد إقامتي القصيرة تلك في كوم حمادة ورجوعي إلى بلدي، ثابرت أتابع، لِماماً، على قدر الإمكان، تطورات الوضع في مصر وما عاناه شعبها من عثرات وقدّمه من تضحيات، وما صادفه حزب الوفد ذاته، بعد وفاة سعد زغلول في آب ١٩٢٧، من صعوبات وانقسامات داخلية وهبوط في شعبيته، خصوصاً لدى توقيعه معاهدة ١٩٣٦... ولئن استطاع، فيما بعد، أن يسترجع حيّزاً كبيراً من نفوذه، إلا أنه لم يفلح في استعادة إشعاعه السابق، لا سيما بعد تفاقم المواقف المتذبذبة التي أكرهه الإنكليز على اتخاذها خلال الحرب العالمية الثانية. فخسر الكثير من مصداقيته لدى الجماهير وراحت قوى كثيرة، بينها فريق من ضباط الجيش الشباب، تستقطب عطف الشعب وتستأثر بثقته ورجائه، إلى أن كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢... وتشاء الصدف، في هذا السياق، أن أطّلع منذ مدة، أي بعد نيف وخمسين سنة، من أقارب وأصدقاء، أن جمال عبد الناصر أمضى ردحاً من طفولته في كوم حمادة في نفس تلك الفترة التي كنت فيها هناك... فقد كان والده، حسين عبد الناصر، موظفاً في البريد بالبلدة، انتقل إليها مع عائلته سنة ١٩٢٤ وبقي فيها حتى ١٩٢٦. في تلك السنة، وبعد وفاة زوجته أم جمال، أرسل وحيده إلى القاهرة للإقامة عند عمه خليل... الكثيرون من الشوام يتذكرون جيداً والد عبد الناصر، العم حسين، الذي كان يمتطي حماراً أبيض في تنقلاته لإيصال الرسائل والرزم البريدية إلى أصحابها في القرى والعزب المجاورة لكوم حمادة. ويذكرون الشمسية التي لم تكن تفارقه... وكان الطفل جمال يرتاد المدرسة الابتدائية في كوم حمادة، وقد ظل، في أيام صباه، على علاقة طيبة بعدد من أترابه فيها، إلى أن التقى بنفر منهم في الجيش، فيما بعد، كالضابط عبد

اللطيف الجيار وغيره. ويقال إن أحد رفاقه القدامى من آل عمّار، قدّم مساعدات مالية سخية أثناء التحضير لثورة ٢٣ يوليو...»

ويقول في الصفحة ١٩١ في الفصل الحادي عشر:

«ونصل، الآن، إلى... ''الشأن السياسي''، كما يحلو للبعض، اليوم تسمية كل ما يمتّ بصلة إلى السياسة. فأقول إن السياسة لفّت ودارت وحامت حولنا، بأشكال كثيرة، في تلك الفترة. ولا عجب في الأمر، إذ إن كل شيء، في محيطنا، كان مغموساً أو معجوناً بها. على أني أذكر أننا لم ننشغل بها، فوق العادة، بادئ الأمر، أنا والكثيرين من أصحابي: لا نحن سعينا وراءها، ولا ظروف المدرسة سمحت لنا أن نوليها حيّزاً كبيراً من اهتمامنا. إلا أن جو طرابلس، المسيّس وقتها إلى أقصى حدّ، كان يخترق أسوار معهدنا باستمرار ويمد خطوطه إلينا بألف واسطة ووسيلة. فكنا، بالتالي، منساقين إلى ترقّب الأحداث، قريبها وبعيدها، بشيء من اللهفة، وإن بغير انتظام وبدون جهد عملي إلى تحليلها بدقة أو الدخول في تفاصيلها وأبعاد مراميها... كنا راضين بالانتداب، كما ذكرت في فصل سابق، متآلفين معه، ومشيحين بآذاننا قدر الإمكان، عن سماع الأصوات التي ترتفع في المدينة، في كل مناسبة، للتنديد به وإدانة سياسته. وظل هذا حالنا إلى أن دبّ النشاط، فجأة، في نهاية عام ١٩٢٥، في الدوائر العليا، الفرنسية واللبنانية، في العاصمة، لطبخة تجديد وتغيير، خارجة عن المألوف، قيل إنها وضِعت على النار، عشية رأس السنة، بإشراف المفوّض السامي الجديد هنري دو جوفنيل، متعاوناً في إنضاجها مع لجنة خاصة من المجلس التمثيلي اللبناني. وقد جرى ذلك، على عجل، وحفلت الصحف، بشأنه، خلال الأشهر الأولى، من عام

١٩٢٦، بشتى التقديرات والتخمينات. وما كاد شهر أيار يقترب من نهايته، حتى بزغ، في سماء بيروت، الفجر المنتظر. فأعلن، بضجة كبيرة، زوال ما كان يُسمّى بدولة لبنان الكبير، وقيام الجمهورية اللبنانية مكانها، مزوّدة بدستور شامل، متماسك الأطراف، ولها رئيسها ومجلسا شيوخ ونواب، ووزاراتها الدستورية وسائر المعالم الأخرى».

ويقول في الصفحة ٢٠٥ في الفصل الثاني عشر:

«وهكذا تم لقائي، مجدداً، بسليم خياطة، بعد افتراق دام سبع سنوات ونيف. . .تذكرته، دون عناء، حال اقترابي منه. . . . تندّرنا، أول الأمر، بذكريات الماضي وضحكنا لدى استعراض بعضها. ثم سألني عن شؤوني العائلية، وعن المرحلة التي بلغتها في دراستي، وعما أنوي أن أفعل فيما بعد. ولما أشرت إلى أني اتجهت نحو التجارة والمحاسبة، بدرت منه حركة استغراب ضبطها بسرعة، لكنه لم ينجح في إخفاء ابتسامة تحمل شيئاً من الإشفاق وذرّات من الخبث الناعم. وأذكر أنه قال: ''وهل هذا كل مطمحك في الحياة؟ ألا تفكر بطريقة أخرى، أفضل لخدمة شعبك؟'' ولعله شعر، فوراً، أنه استعجل في خوض مثل هذا الموضوع، فلم يترك لي مجال التفكير في الرد على سؤاله، بل انتقل إلى الكلام في أمور أخرى، ملحاً عليّ، قبل انصرافه، أن أزوره في البيت، بعد الظهر، لنقوم بنزهة معاً ونتحدث مطوّلاً».

ويضيف في الصفحة ٢١٥:

«. . . . . . أخذ يزداد اهتمامي بالحزب وبقضاياه. . و اشتدّ تشوّقي وكبر فضولي إلى التعرّف على ما كان سليم يسمّيه 'الأدبيات

الماركسية' المتضمنة شروحات نظرية لمبادئ الشيوعية. . . وطلبت شيئاً منها. وكان بعضها في شكل كراريس صغيرة، بالفرنسية، أعطاني اثنين أو ثلاثة (لم يكن عند سليم غيرها في الجبل)، أحدها لبليخانوف وآخر لبوخارين عنوانه 'ألف باء الشيوعية'، قرأتها على عجل، فلم تروِ الغليل الذي كان عندي، ولم توضح أموراً كثيرة كنت أتوقع أن أجد أجوبة شافية عليها. تبيّن لي أن تلك الأبحاث معقّدة بعض الشيء، عسيرة الهضم، يصعب استيعابها بسهولة لمن لم يخطُ بعد أية خطوة في ميدان الفلسفة. . .».

ويقول في الصفحة ٢٢٦ في الفصل الثالث عشر:

«على الخط الآخر، تجدر الإشارة إلى أن المشاغل الفكرية التي زرعها سليم خياطة في رأسي طوال الصيف، همد هديرها نوعاً ما بعد رجوعي إلى داخل أسوار المعهد، وانقطاعي دفعة واحدة عن المصدر الذي كان يثيرها ويغذّيها، والتهائي بأمور الدراسة وتعقيداتها ومشاكلها، كما أسلفت. مع ذلك، كنت أمر أحياناً، في غضون تلك الأشهر، على والد سليم في محله، أيام العُطل، فأتجاذب معه الحديث وأسأله عن أخبار ابنه الغائب، وأصافح من أجد عنده من شباب يبدو من مظهرهم أنهم ضيوفه، لا زبائن، مقدّراً في قرارة نفسي أنهم ولا شك شيوعيون، دون أن تبلغ حشريّتي حدّ التطفّل إلى طلب التعرّف إليهم (رغم رغبتي الشديدة في ذلك)، ودون أن يبادر هو إلى إجراء التعارف. على أني التقيت عنده مرة بأحمد زكي الأفيوني، فتصافحنا بحرارة وودّ، وسألته عن صديقيه اللذين عرفني عليهما في حصرون، عبد الله الرافعي ومحمد الأدهمي، فأخبرني أنهما معتقلان بتهمة توزيع مناشير. مرة أخرى، وقعت على أحد رفاق المعهد، سهيل ترسيسي، خارجاً من محل خياطة، فاستنتجت

أنه هو الآخر من ''الجماعة''، ثم أصبحنا صديقين حميمين منذ ذلك الحين، وزاد من صداقتنا اجتماعي به لاحقاً في صفوف الحزب الذي سبقني في الانتماء إليه...».

ثم يقول في الصفحة ٢٢٧:

«حصل ذلك في نهاية شهر نيسان ١٩٣١، يوم عيد الأضحى. كان المعهد في عطلة. لكننا كنا، منهمكين في درسنا. سمعنا، فجأة، جلبة وضجة وهدير أصوات تشقّ عنان الفضاء. فتركنا القاعة وركضنا مسرعين نحو بوابة المعهد. وإذا بمظاهرة حاشدة تمر أمامنا. ولما سألنا أحد الواقفين بجانبنا على الرصيف عن ماهية المظاهرة، قال إنها للاحتجاج على فظائع الاستعمار الإيطالي في طرابلس الغرب. وبالفعل، كانت الهتافات مركزة ضد إيطاليا الفاشستية وأعمالها الوحشية هناك. لكنها لم تخلُ من صيحات عنيفة ضد الاستعمار الفرنسي وضد الكيان الدستوري الذي أقامه في لبنان، مترافقة مع نداءات تطالب بالوحدة السورية وبالاستقلال التام الناجز، وغير ذلك من الشعارات الوطنية... و قد رأيت في مقدمة المظاهرة أحمد زكي الأفيوني وحوله رهط من الشباب عرفت منهم فقط محمد الأدهمي».

جورج حاوي

ينتمي جورج حاوي إلى الجيل الرابع من أجيال الحركة الشيوعية اللبنانية. وهو، في التسلسل الزمني، الاسم الرابع بين الرموز الكبار لهذه الحركة الطليعية في تاريخ لبنان الحديث. وكانت له، مثل الذين سبقوه، سِماته الخاصة. وهي كانت مزيجاً من سمات بعضها يتصل بمكوّنات شخصيته، وبعضها الآخر يتصل بالتأثيرات التي تركتها فيه أحداث زمانه وتحوّلاته، التي كانت، في تطوّرها، تختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه الوضع في العهود السابقة في حياة الحزب الشيوعي اللبناني، منذ التأسيس. وكان أبرز تلك المتغيّرات ما كان قد بدأ يشهده النظام الاشتراكي العالمي من اهتزازات، وصولاً إلى انهياره في مركزه الأول الاتحاد السوفياتي، بعد ثلاثة أرباع القرن من انتصار ثورة أكتوبر.

إلا أن جورج حاوي، بما توفّر عنده من قدرة على الاندماج في عصره وفي تحولاته، استطاع، بكفاءة استثنائية، أن يحقّق لنفسه شخصية شيوعية من نوع مختلف عما كان سائداً في الحركة الشيوعية في بلداننا. ولا أبالغ إذا قلت بأنه تحوّل بسرعة ليصبح واحداً من أكثر القيادات الشيوعية في العالم العربي حضوراً متميزاً، في بلده لبنان وفي العالم العربي وعلى الصعيد العالمي. واستمر في هذا الدور متميزاً حتى بعد خروجه من موقع الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني. لذلك فإنني، إذ أضع اسمه مع آخرين من كبار القادة الشيوعيين في تاريخ لبنان

الحديث، فإنما أتحدث عنه بصفاته التي عبّرت عنها شخصيته، كما هي من دون زيادة أو نقصان. وفي هذا النوع من الربط بين جورج حاوي والكبار الثلاثة الذين سبقوه من روّاد الحركة الشيوعية في لبنان، إنما أريد أن أعطي الرجل حقه، وأضعه في المكان الذي يعود له بين الكبار. فقد ارتبطت باسمه وبسيرته إنجازات ومواقف من حقه علينا الاعتزاز بها. كما ارتبطت باسمه وبسيرته مواقف وأخطاء سارع هو إلى انتقاد بعضها بجرأة، وشاركناه، كلّ منا من موقعه، نحن رفاقه في قيادة الحزب، بعض تلك الإنجازات وبعض تلك الأخطاء. والنظرة إلى الأحداث والأسماء في حركة التاريخ إنما تحمل في ذاتها توجّهاً من الماضي إلى المستقبل، عبر استخلاص الدروس من ذلك الماضي، وتوظيفها في العمل من أجل المستقبل. فالتاريخ، بالنسبة إلينا وإلى سوانا من الشعوب، هو مجموعة من الأحداث والأسماء والأفكار والسياسات، تتفاعل في ما بينها، وتُنتج في تفاعلها هذا، في الصواب وفي الخطأ من المواقف، وفي الإنجازات وفي الإخفاقات، تاريخاً جديداً على الدوام، لبلداننا ولشعوبنا. وإذ نذهب إلى ذلك التاريخ بين الحين والآخر فلكي نتعلم منه الدروس والعِبَر، ولكي نلتقط من مجمل حركته ومن سيرورتها وصيرورتها القوانين الموضوعية التي تحكمها وتتحكم فيها. ثم نعود من ذلك التاريخ إلى حاضرنا حاملين معنا المجيد منه، أفكاراً وقِيَماً وسياسات، وحتى أسماء، لنستكمل بها ومعها طريقنا الشاق إلى الحرية والتقدم، محاولين تجاوز الخلل في الفكر وفي السياسة الذي يكون قد ساد طويلاً في حياتنا الماضية.

أستذكر اليوم من هذا التاريخ اسم جورج حاوي، ليس فقط كشهيد سقط في ساحة المعركة التي يخوضها الشعب اللبناني اليوم من أجل أن ينتقل ببلده من حقبة مظلمة في تاريخه إلى حقبة جديدة تبشّر بالحرية وبالديمقراطية وبالتقدم الاقتصادي والاجتماعي، متّحدين ومتلازمين. بل إنني أستذكر اسمه مع شهداء آخرين كبار سقطوا في ساحة المعركة ذاتها، بدءاً بالرئيس رفيق الحريري وسائر

الذين سقطوا بالغدر شهداء، قبل جورج حاوي وبعده. ولكلّ من هؤلاء الشهداء تاريخه الذي يتحدث عنه. أما تاريخ جورج حاوي فهو تاريخ واحد من كبار المدرسة الفكرية والسياسية التي سبقه في الانتماء إليها وفي إغنائها وفي تجديدها، فؤاد الشمالي وفرج اللّه الحلو ونقولا شاوي، وكثرة من كبار رموز حركة التغيير الديمقراطي، في الفكر وفي السياسة في لبنان، باسم الاشتركية، على امتداد ما يقرب من القرن. وهي الحركة التي شكّل أبطالها، جيلاً إثر جيل، مدرسة من نوع جديد في تاريخ لبنان والعالم العربي. إنها المدرسة الاشتراكية التي، وإن كانت قد انهارت تجربتها الأولى بسبب الخلل البنيوي الذي رافقها منذ ولادتها وعلى امتداد الأعوام الطويلة من وجودها، ستظل المدرسة الأعظم والأرقى في تاريخ البشرية الحديث.

إلا أن جورج حاوي، في سيرته السياسية التي امتدت أربعين عاماً، لم يكن قائداً شيوعياً وحسب. بل كان واحداً من شخصيات لبنان المميزة. اقتحم، منذ وقت مبكر، بكفاءة استثنائية وبفكر جديد، وبنوع من البراغماتية التي قادته إليها تجربته الشخصية منذ مطالع شبابه، عالمَ السياسة الصعب، في لبنان أولاً، ثم في العالم العربي. وامتد نشاطه ليشمل جهات العالم الأربع. لذلك لم يكن مستغرباً أن يكون، قبل أن يكمل الثلاثين من عمره، قائداً شيوعياً بارزاً، وأن يكون، بصفته تلك ومن موقعه ذاك، مقرَّباً من كمال جنبلاط، وأن يكون موضع حب وتقدير لدى هذا القائد اللبناني والعربي الكبير. على أن جورج حاوي، حين اختار الشيوعية منذ مطلع شبابه نمط حياة، ومرتكز فكر، وطريقاً إلى تقدم بلاده، فإنه اختارها بوعي، ليس كطوبى كما فعل الحالمون، ولا كوهم بالجنة على الأرض كما فعل البسطاء من فقراء بلادنا وفقراء العالم. بل هو اختارها كمشروع حقيقي للتقدم، قابل لكل الاحتمالات في التغيير والتحول والاغتناء والتجدد. وتجلّى وعيه المتقدِّم هذا في الربط الدقيق الذي كان يرتقي عنده على الدوام، بين واقع بلده والشروط التاريخية التي تأسس فيها وتطوَّر كوطن، وبين فكر عظيم

قادم إلينا من آخر الدنيا ومن شروط تاريخية مختلفة، فكر علمي وتجريبي في آن. وهو الفكر الذي وضع ماركس العالم كله في أفقه، أفق تغيير حياة البشر في اتجاه الحرية والتقدم بكل معانيهما، وفي مقدمة هذه المعاني ما يتصل بتحرير الإنسان من كل العبوديات ومن كل أنواع القهر الاجتماعي والقومي، ومن الاستغلال الذي يحوّل الإنسان إلى برغيّ في آلة يساهم في إنتاج المنجزات المادية، التي يحرم هو منها، ويعود ريعها لسواه. كان يطمح جورج من خلال انتمائه إلى فكر ماركس أن يساهم مع الذين كان يشترك معهم في هذا الانتماء في العبور ببلداننا من حالات التخلّف القديمة إلى مجالات التقدم الحديثة، تطبيقاً أميناً وواقعياً في آن لأفكار ماركس، واحتراماً للشروط التاريخية الجديدة التي دعا ماركس لاحترامها.

لذلك فإنَّ جورج حاوي، بهذا المعنى بالتحديد، قد ارتقى إلى موقع الزعيم السياسي، وهو في سنّ الشباب. وحمل في وعيه وفي وجدانه المشروع الثوري لتغيير بلاده ولتغيير العالم. وهو المشروع الذي جهد جورج حاوي، مع رفاقه في قيادة الحزب الشيوعي، وفي مقدمتهم نقولا شاوي، في تدقيقه وفي جعله يتلاءم مع الشروط التاريخية المعاصرة التي كان يمر فيها بلدنا ويمر فيها العالم. ذلك أن جورج ورفاقه كانوا يدركون أن ماركس إنما صاغ مشروعه في زمن تاريخي محدد، وفي شروط ذلك الزمن المختلفة جوهرياً عن شروط عصرنا. وكانوا يدركون أن التاريخ يتغير باستمرار وتتغير الشروط التي يتم فيها إنتاج الجديد من الأفكار والأحداث والإنجازات العلمية. الأمر الذي جعلهم يستشرفون المستقبل، ويدعون المنتمين إلى مشروعهم أن يأخذوا في الاعتبار المتغيرات القادمة، وأن يتأقلموا معها.

قد يبدو في كلامي هذا ما يشبه المغالاة في تقييم رجل من كبارنا في السياسة والفكر، أُعظِّمه كشهيد من شهداء هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ بلدنا، التي تتهيأ فيها الشروط، بصعوبة قصوى، للانتقال به من آفات حِقبة مضطربة من ماضيه

إلى مستقبل أكثر استقراراً وأكثر ارتقاءً. لكن الحقيقة التي تدلّ عليها بوضوح سيرة جورج حاوي، المفتوحة على مصراعيها بالوقائع، إنما تؤكد جوهر ما ذهبتُ إليه في الإشارة إلى التاريخ المجيد لهذا الرجل. وهو تاريخ مثير للجدل، تتجاوز فيه سيرة جورج حاوي الظاهرَ الملتبسَ من الكلام حول بعض مواقفه وآرائه، الكلام الذي قد يخطر ببال من يتطوعون لتقييم دور جورج في الحزب الشيوعي وفي الحركة الوطنية اللبنانية وفي مجمل عمله السياسي خلال ما يقرب من أربعين عاماً، وذلك في اتجاه التمجيد المبالغ فيه، أو بالاتجاه النقيض لجهة التقليل من أهمية دوره في تاريخ حزبه وفي تاريخ بلده لبنان، وذلك بالتركيز على بعض أخطائه، وتجاهل الإنجازات التي ارتبطت باسمه، أو التي كان شريكاً أساسياً في تحقيقها.

فمن هو جورج حاوي، كما تشير إليه سيرته؟

وُلِد جورج حاوي في عام ١٩٣٨ في بلدة بتغرين المواجهة لجبل صنّين في قلب لبنان. كان والده بنَّاءً. وكان في مهنته تلك يكمل بذلك سيرة الآباء والأجداد. وهي مهنة اشتهر بها أبناء المنطقة. بدأ جورج دراسته في مدرسة الراهبات في بلدته بتغرين. ثم انتقل إلى مدرسة ماريوحنا للرهبان في بلدة الخنشارة المجاورة لبتغرين. وفي هذه المدرسة أنهى جورج دراسته التكميلية. فانتقل إلى بيروت لمتابعة المرحلة الثانوية من دراسته. وانتسب بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى جامعة القديس يوسف اليسوعية في كلية الحقوق. لكنه لم يكمل دراسته. إذ بقي في الجامعة عاماً واحداً. وكان قد برز، منذ شبابه الباكر في مدرسة ماريوحنا للرهبان، كشاب متمرد على كل التقاليد والمعتقدات التي لم تُقنع عقله ومنطق فهمه للأشياء وللظاهرات. وقادته نقاشاته مع زملائه الطلاب حول تلك الأمور إلى شجارات اضطر فيها مرة إلى أن يستخدم السكين دفاعاً عن نفسه. فلوحق واضطر إلى الاختفاء في منزل خالة والده في بيروت. لذلك فحين وصل إلى المرحلة الثانوية وإلى الجامعة كانت نشاطاته المبكرة وأفكاره المتمردة

قد سبقته ليخوض معاركه السياسية، من موقعه في الحركة الطلابية والشبابية، بصفته الشيوعية. وكان قد انتسب إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٥٥، أي في سن السابعة عشرة من عمره. وتوزعت نشاطاته منذ ذلك التاريخ بين بيروت في الحركة الطالبية، وبلدته بتغرين في المعارك الاجتماعية. وخاض في مطلع الستينيات، كواحد من أبناء بلدته ومنطقته، معارك شعبية اجتماعية ذات صلة بقضايا كان أبرزها المعركة من أجل تأمين المياه لبلدته بتغرين وللمنطقة. وكان له دور بارز في تلك المعارك، رغم صغر سنّه، متفوّقاً بذلك، بحكم شجاعته وإقدامه، على الكثيرين من كبار أهل المنطقة ومن بعض سياسييها البارزين.

صعد جورج في عام ١٩٥٩ إلى مواقع مسؤولة في الحزب، كقائد طلابي وشبابي. وسرعان ما أصبح في عام ١٩٦١ شريكاً لي ولعدد آخر من المسؤولين في الحزب في قيادة المنظمة الحزبية في العاصمة بيروت وضواحيها الشمالية والجنوبية والشرقية. وكانت لنا تجربة جميلة وغنية في العمل معاً في المنظمة الحزبية خلال عام كامل، قبل أن يكلّفني الحزب مهمة خارج لبنان. إذ كنا الأكثر شباباً في الهيئة الحزبية والأكثر حيوية، والأكثر استعداداً للعمل في كل الميادين السياسية والتنظيمية. سافرنا معاً في عام ١٩٦٠ إلى بغداد، وكان ثالثنا رياض بيضون رفيق جورج في قيادة التنظيم الطلابي، وذلك للمشاركة في مؤتمر عالمي للطلاب كان يعقد في العاصمة العراقية. وكنت قد سبقت جورج إلى موقع المسؤولية في الحزب. فتقاسمنا العمل. هو لمتابعة المؤتمر مع رياض بيضون، وأنا لمتابعة الاتصال بقيادة الحزب الشيوعي العراقي. وفي إحدى جلسات المؤتمر اكتشف جورج أن الترجمة إلى العربية كانت سيئة، فاقتحم غرفة الترجمة وانتزع الميكروفون من المترجم، وقام هو بمتابعة الترجمة بدقَّة أكبر وبأمانة أكثر للأفكار وللمواقف المعلنة من قبل أصحابها في المداخلات المكتوبة والشفهية.

في عام ١٩٦١ ذهب جورج إلى الشيلي لحضور مؤتمر عالمي للشباب، ممثلاً اتحاد الشباب الديمقراطي اللبناني. وصادف أن حصل في ذلك الوقت

بالذات العدوان الأميركي على كوبا في خليج الخنازير. فذهب مع عدد من المشاركين في المؤتمر إلى كوبا للتضامن معها ومع قيادتها. وهناك التقى القائد الثوري تشي غيفارا، وشارك معه في بعض الأعمال التطوعية.

لم يحتج جورج حاوي إلى زمن طويل، وإلى تجارب كثيرة، لكي يصبح في منتصف الستينيات من القرن الماضي شخصية مرموقة في البلاد، كأحد المسؤولين الأساسيين في قيادة الحزب الشيوعي. فعلى قاعدة ما حقَّقه في نشاطه السياسي بعامة، وما حقَّقه في نشاطه الحزبي بخاصة، تقدّم في الحزب إلى الموقع الذي صار فيه واحداً من القادة الأساسيين الذين لم يتجاوز عددهم الستة. وهم الأعضاء في سكرتاريا اللجنة المركزية. كان أربعة منهم من الحرس القديم. وكان أبرزهم في ذلك الموقع في الربط بين القديم والجديد نقولا شاوي الأمين العام للحزب. أما الثلاثة الآخرون فهم حسن قريطم وآرتين مادايان وصوايا صوايا. وكنا، جورج حاوي وأنا، نمثل الجيل الجديد، الذي كان يسعى نقولا شاوي لتعزيز دوره في المواقع المقررة في قيادة الحزب، المكتب السياسي والسكرتاريا التي استحدثت في عام ١٩٦٦. وكنت قد سبقت جورج إلى هذا الموقع بعام، مثلما كنت قد سبقته في الانتساب إلى الحزب الشيوعي بثمانية أعوام، هي ذاتها الأعوام التي أكبره فيها بالعمر. لكنّ تقدّم جورج كان أسرع من تقدّمي ومن تقدُّم الكثيرين من كوادر الحزب الذين فاقوه تجربة وتقدَّموا عليه في العمر. ومن هذا الموقع بالذات في قيادة الحزب صار جورج ممثِّلاً للحزب في جبهة الأحزاب الوطنية التي كانت قد تشكلت في تلك الفترة من ثلاثة أحزاب: الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة كمال جنبلاط، وحركة القوميين العرب بزعامة محسن إبراهيم، والحزب الشيوعي اللبناني بزعامة نقولا شاوي. وضمّت الجبهة ثلاث شخصيات: نائب صيدا معروف سعد، نائب جبل لبنان الجنرال جميل لحّود، والسيدة نهاد سعيد، زوجة الدكتور أنطون سعيد ووالدة الدكتور فارس سعيد. كان جورج، وكنت معه وكان معنا جورج البطل، نمثل الحزب في

اجتماعات الجبهة في المراحل الأولى لتأسيسها. كنا نمثل الحزب في كل ما كان يتصل بالنشاطات المتعددة الجوانب للجبهة، وبالقرارات السياسية التي كانت تتخذها في تلك المرحلة المضطربة الملأى بالتحولات التي كان يشهدها لبنان. وهي كانت مرحلة غنية بالأحداث. وكانت خصبة في الجدل حول كل ما يتصل بحاضر لبنان وبمستقبله.

في عام ١٩٦٥، وفي ضوء التحولات التي شهدها الحزب، بعد انفصاله عن الحزب الشيوعي السوري، انفتح الحزب على فكرة سادت في تلك المرحلة، كانت تدعو إلى وحدة القوى الثورية العربية. وكانت مجلة «الطليعة» المصرية، التي كان يرأس تحريرها لطفي الخولي، واحدة من المنابر الأساسية التي كانت تساهم في الدعوة إلى تلك الفكرة. وهي المرحلة التي كان الرئيس عبد الناصر قد أفرج فيها عن الشيوعيين، بعد أن وافقوا على حل تنظيماتهم، لينخرطوا في الاتحاد الاشتراكي. في تلك الفترة بالذات تلاقت الرغبة في حزبنا مع الرغبة في حركة القوميين العرب، على ضرورة البدء بحوار كان الهدف منه أن يصب في الاتجاه الآنف الذكر، القاضي بإيجاد صيغة لوحدة تيار اليسار، من جميع الاتجاهات، اليسار المنادي بالاشتراكية. وكانت بدايات اللقاءات في تلك العلاقة بين الحزب الشيوعي وحركة القوميين العرب تتم من خلال الشاب أنس سنّو، الذي عرفت في وقت متأخر من منيف فرج أنه، أي أنس، كان مكلّفاً مع منيف بالذات من قِبل الدكتور جورج حبش إقامة العلاقة مع الحزب الشيوعي. وسرعان ما تم الاتفاق على البدء بالحوار في صورة رسمية بين القيادتين. وبدأ ذلك الحوار بمشاركة من جورج حاوي ومني، وشارك فيه في البداية صوايا صوايا، ثم تركنا وحدنا مع محمد كشلي ومصطفى بيضون وأنس سنو. وشارك في بعض الاجتماعات جورج البطل الذي انتقل في ما بعد إلى براغ ليمثل الحزب في هيئة تحرير مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»، المجلة النظرية للحركة الشيوعية العالمية. كان النقاش صعباً، بالنظر لأن محاورينا من حركة القوميين العرب كانوا

يريدون وحدة فورية بين حزبينا، أسوة بما كان قد حصل في مصر، لتشكل في لبنان الاتحاد الاشتراكي فرع لبنان. لم يدم ذلك الحوار طويلاً. فقد قطعه محسن إبراهيم، حين فاجأنا بسلسلة من المقالات الهجومية في مجلة «الحرية» ضد الحزب الشيوعي، متهماً إيانا، نحن المحاورين، بالتهرب من فكرة الوحدة، بحكم ما اعتبره نزعة إصلاحية ثابتة في الحزب، وبقاء في الماضي الذي كنا نُصنَّف فيه بأننا معادون للقومية العربية وللوحدة العربية ومعادون لعبد الناصر والناصرية. ولم يكن ذلك صحيحاً. بل إن جورج حاوي كان في ذلك الحين يزداد نزوعاً في الاتجاه النقيض لما اتهم به الحزب من قِبل القوميين العرب. وهو الاتجاه الذي بولغ فيه في المؤتمر الثاني في ما اصطُلح على اعتباره استعادة الحزب لموقفه الصحيح من الوحدة العربية، الذي عبّرت عنه وثائقه التاريخية، منذ التأسيس، وتصحيحاً للخطأ الذي ساد طويلاً في مواقفه من المسألة القومية، خلافاً لمواقفه التاريخية المشار إليها، وتصحيحاً وترشيداً وتدقيقاً موضوعياً لموقف الحزب من الوحدة المصرية- السورية، ومن الرئيس جمال عبد الناصر، برغم ما كان قد ارتكبه هذا الزعيم العربي الكبير من أخطاء في تلك الوحدة، وفي مجمل مواقفه العدائية من الشيوعيين.

وإذ أشير إلى هذه القضية بالذات المتصلة بوحدة القوى الثورية، فلكي أؤكد أن موقف جورج حاوي كان يصب في هذا الاتجاه منذ البدايات. وقد كتب حول هذا الموضوع في جريدة الحزب ثلاث مقالات بالغة الدلالة في وضوحها. لكن جورج، وكنا شركاءه في ذلك، كان حريصاً ألا يقع الحزب، بسبب التسرّع، في مغامرة الدخول في تحوّلات غير ناضجة شروطها. وقد كان ذلك موقفه، وموقفنا، عندما جاء المفكر المصري محمود أمين العالم في عام ١٩٦٦ إلى بيروت للمشاركة في افتتاح مسرحية لبريخت أخرجها جلال خوري، وللمشاركة في نشاطات ثقافية أخرى. وكان محمود أمين العالم قد أصبح، باسم الشيوعيين المصريين، عضواً في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وأحد المسؤولين

الأساسيين في التنظيم الطليعي الذي أنشأه الرئيس عبد الناصر، لكي يضمّ نخبة الاشتراكيين، ويكون متحرراً من تجاذبات الاتحاد الاشتراكي التي كانت تختلط فيها المواقف والاتجاهات بين يسار اشتراكي ويمين معادٍ للاشتراكية، في داخل ذلك التنظيم الذي كان يضمّ جماهير الشعب المصري كلها. التقينا، جورج وغسان الرفاعي وأنا، مع العالم، الذي كانت تربطني به صداقة قديمة. فقد كان مكلّفاً من قِبل التنظيم الطليعي إجراء مناقشات معنا حول فكرة توحيد القوى الاشتراكية في لبنان على غرار ما حصل في مصر. وكان النقاش صعباً معه، ودام ست ساعات متواصلة، خلال يومين متواصلين. لم نقنعه بضرورة التروي في تحقيق الاندماج. ولم يقنعنا بضرورة التسرّع. وكان جورج متألّقاً في تلك الجلسة في النقاش مع العالم، لخّصها في رسالة مطوّلة إلى نقولا شاوي، الأمين العام للحزب الذي كان في ذلك الوقت في موسكو يخضع للعلاج.

في عام ١٩٦٦ انفجرت أزمة بنك انترا. وكان أكبر بنك في لبنان. امتدت فروعه إلى كل العالم العربي وإلى أوروبا. وكان سبق أزمة أنترا توتّر اجتماعي كبير شمل العمال والمزارعين وفئات اجتماعية واسعة. وكانت قد تشكلت جبهة الأحزاب والقوى الوطنية اللبنانية. في تلك الفترة بالذات، بدأ الخلاف داخل القيادة الجديدة في الحزب الذي كنا جورج وأنا قد أصبحنا عضوين أساسيين فيها مع عدد من الرفاق الجدد ومن رموز الحرس القديم الممثلين بحسن قريطم الذي كان يطمح للحلول محل نقولا شاوي في زعامة الحزب بدعم من السوفيات، وآرتين مادايان وصوايا صوايا، الأعضاء في السكرتاريا، ويوسف خطار الحلو العضو القديم في المكتب السياسي ومعه الياس البواري. أما الأعضاء الجدد من الجيل الجديد الذين جرى ضمّهم إلى المكتب السياسي فهم: نديم عبد الصمد وغسان الرفاعي وخليل نعّوس. كان الخلاف يدور بالتحديد حول ما كنا نحن الجيل الجديد من القيادة في الحزب قد بدأنا نسير عليه بتوجيه من نقولا شاوي وباتفاق كامل معه. وكان ذلك التوجه يقضي بإقامة تحالفات من نوع مختلف عن

السابق، تحالفات نتوجه فيها نحو فئات اجتماعية جديدة، ونحو حركات يسارية ناشئة، ممن كان يطلق عليها اسم اليسار الجديد. وكانت فكرة توحيد القوى الثورية العربية مظهراً من مظاهر ذلك الاتجاه. أما الرفاق في الحرس القديم فكانوا أكثر ميلاً للارتباط بتحالفات مع فئات من البرجوازية في الحكم وعلى تخومه ذات ميول وطنية معادية للاستعمار، ومعادية في الوقت عينه للحركة الشعبية، ومستعدة دائماً لقمعها. وكان رئيس الوزراء في ذلك الحين رشيد كرامي في مقدمة تلك القوى. وكانت تربطه بالحزب علاقات صداقة قوية. وفي حين كان التحالف، الذي شارك الحزب في تأسيسه وكان بقيادة كمال جنبلاط، هو الذي كان يعبّر عن توجهنا الأساسي، كان الحرس القديم يبدي ريبة من جنبلاط، معلناً تأييده لرشيد كرامي، وصولاً إلى حد دعوة الشيوعيين إلى كسر بعض الإضرابات العمالية تلبية لطلب من الحكومة التي كان يرأسها كرامي. إلا أننا لم نخضع لذلك التوجه الخاطئ، نحن الشباب في القيادة، في غياب نقولا شاوي الذي طالت معالجته في أحد مستشفيات موسكو في شكل أثار الريبة والقلق عندنا. وأدّى الأمر في ذلك الحين إلى أن جورج حاوي وجورج البطل، اللذين كانا يعدّان لإضراب عمال الريجي (شركة التبغ)، قد تعرّضا للاعتقال والضرب من قِبل قوى الأمن وأدخلا السجن لمدة أسبوعين. في ذلك العام بالذات وقعت أزمة أنترا. فاستقالت حكومة رشيد كرامي. وكُلّف عبدالله اليافي تشكيل حكومة جديدة. وطلب رئيس الجمهورية شارل حلو من جنبلاط اختيار أحد الشخصيات لكي يمثل جبهة الأحزاب الوطنية في الحكومة. وبناء لاقتراح من جورج حاوي وقع الخيار على النائب عن منطقة المتن الشمالي الجنرال جميل لحّود، والد الرئيس السابق للجمهورية إميل لحود. فذهبنا جورج وأنا لزيارته وعرضنا عليه الفكرة، فوافق مع الشكر. وأعطيت له وزارة العمل والشؤون الاجتماعية. وكان أفضل وزير مرّ على هذه الوزارة منذ الاستقلال وحتى الآن. وفي عهده تحققت إنجازات للعمال تمثلت ببعض الضمانات الاجتماعية، وبترخيص رسمي لكل من

الاتحاد العمالي العام وللاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين، الذي ظل يرأسه لفترة طويلة الياس الهبر، أحد الرموز الأساسية للحركة العمالية في لبنان في النصف الثاني من القرن العشرين.

غير أنَّ جورج كان في النصف الأول من الستينيات من بين تلك المجموعة من كوادر الحزب الذين كانوا قد بدأوا يطرحون الأسئلة ذات الصلة بالوضع اللبناني والعربي، والوضع العالمي، الأسئلة التي كانت تشير إلى ضرورة إحداث تغيير في نهج الحزب في كل المجالات. وكان من بين القضايا التي كانت محور النقاش موقف الحزب من الرئيس عبد الناصر، وذلك في الاتجاه الذي كان يرمي إلى فهم أكثر دقّة وموضوعية لتلك الشخصية التاريخية في حياة العالم العربي، فهمٍ يضع الرجل في موقعه الصحيح، من دون تبرير للأخطاء التي وقع فيها، ومن دون التقليل من دوره. حصل ذلك في أعقاب انهيار تجربة الوحدة المصرية-السورية، وبداية استيعاب الرئيس عبد الناصر للتجربة ومحاولاته استخلاص الدروس منها. إلا أن الهدف الأساسي من ذلك النقاش الذي كان يرمي إلى التغيير في خط الحزب كان الربط بين الوطنية اللبنانية وقومية انتماء لبنان إلى العروبة تاريخاً وثقافة ومصيراً، من جهة، والاهتمام، من جهة ثانية، بالمتغيرات التي كان يشهدها العالم، والتي لم يكن لبنان وكل البلدان العربية بمعزل عنها وعن التأثر بمجرياتها. وكان من الطبيعي، في تلك المرحلة بالذات، أن يؤدي ذلك الجدل حول التغيير في فهم طبيعة التحولات لدى جورج ورفاقه إلى انفصال الحزب الشيوعي اللبناني عن الحزب الشيوعي السوري الذي كان زعيمه خالد بكداش مصرّاً على البقاء في السياسة وفي الفكر وفي التنظيم أسير الستالينية وأسير أشكال تجلّيها في حياة الأحزاب الشيوعية. وقد أشرت في الفصل السابق المكرّس لنقولا شاوي إلى ذلك الحدث التاريخي وإلى ملابساته وإلى نهاياته السعيدة. وكان جورج في تلك المعركة من أجل التجديد قد بدأ يصبح الوجه الأبرز فيها، متقدماً على كل رفاقه، بمن فيهم

الأكبر سنّاً والأقدم تجربة، وكنت واحداً من هؤلاء. وكنّا جميعنا قد ساهمنا في أن يحتل جورج ذلك الموقع، الذي كان يتقدَّم إليه بكفاءته وبشجاعته، وبإبداعه في التفكير وفي تحديد الخطوط العامة لسياسة الحزب ولمهماته، وفي رؤيته الاستشرافية للمرحلة القادمة في لبنان وفي العالم العربي وفي العالم. لكنّ التهمة التي وجّهها إليه السوفيات بالعلاقة مع المخابرات الأميركية كانت ترمي إلى إزاحته من الواجهة وإلى القضاء على مستقبله وعلى دوره. لكنها لم ترهبه ولم ترهب رفاقه. بل هي عمَّقت وجذَّرت مواقفه ومواقفهم، ودفعتهم جميعاً إلى متابعة معركة التجديد والتغيير في الحزب إلى نهايتها. غير أنَّ جورج اختار يومذاك، بمحض إرادته، أن يبتعد مكاناً وزماناً عن لبنان، ليحرر عملية التغيير والتجديد في الحزب التي كانت تجري بصعوبة، والتي كان خصوم التجديد والتغيير يستخدمون فيها كل الأدوات بما في ذلك أكثرها بشاعة وبؤساً. وكان جورج، في قراره بالابتعاد عن المعركة القائمة في الحزب وبالابتعاد عن البلاد، ينطلق من ضرورة ألاّ تصبح قضيته تلك موضع جدل وصراع يعطلان عملية التجديد الجارية. فذهب يومذاك إلى بلجيكا حاملاً معه مراراته، وأملاً ظلَّ عميقاً في داخله بأنَّ ليل تلك المرحلة الظالم والمظلم سينبثق عن فجر جديد مشرق في الحزب وفي الدور الذي يفترض أن يلعبه هذا الحزب في حياة بلده لبنان. وترك مع رفاقه ورقة بيضاء وضع في أسفلها توقيعه، مفوّضاً إياهم اتخاذ القرار الذي يرونه ملائماً بخصوص وضعه، وذلك حفاظاً منه على وحدة الحزب، وإخراج قضيته هو من التداول والسجال والصراع الذي كان دائراً حول مستقبل الحزب وحول مستقبل دوره في البلاد. وكان فريق الصدام في المعركة، من داخل المكتب السياسي واللجنة المركزية ومن خارجهما، يتمثل، أساساً، وفق ما علمت بالمراسلة، وأنا في موسكو، ثم بعد عودتي منها، بالرفاق: غسّان الرفاعي ونديم عبد الصمد وجورج البطل وخليل الدبس وفاروق معصراني ورهيف فيّاض والياس الهبر وفضل الحاج... أقول فريق الصدام، من دون أن

أقلل من دور الرفاق الآخرين، بمن فيهم الذين تأخروا بعض الوقت في الانضمام إلى حركة التغيير والتجديد تلك.

لم يمضِ عام على خروج جورج ذاك من لبنان حتى كان رفاقه قد حقَّقوا انتصاراً كاسحاً ضد التدخل السوفياتي وضد من رهنوا مواقفهم بمواقف الاتحاد السوفياتي في كل ما يتصل بشؤون الحزب السياسية والفكرية والتنظيمية. وتوِّج الانتصار بعقد المؤتمر الثاني للحزب في عام ١٩٦٨، حاملاً معه تغييراً جوهرياً في فكر الحزب وفي خطه السياسي وفي أشكال تنظيمه ونشاطه. وهكذا عاد جورج، بعد بضعة أشهر على انتهاء أعمال المؤتمر، إلى موقعه في قيادة الحزب، كما كان وأكثر. ولم تمضِ أعوام قليلة حتى صار الشخص الأول في الحزب، أمينه العام (١٩٧٩)، وذلك بجدارة القائد، وبكفاءته، وبفكره النيِّر، وبارتباطه العميق بحياة بلده لبنان وبسائر البلدان العربية. وجاء اختياره لذلك الموقع بمبادرة من الأمين العام للحزب نقولا شاوي، رائد التجديد في الحزب، الذي أصرّ على أن يتخلى عن موقعه بمحض إرادته، خلافاً لما كان سائداً في الأحزاب الشيوعية، لمن كان يراه بحق جديراً بمتابعة المسيرة. وكان قد سبق لجورج أن انتخب في اجتماع للّجنة المركزية عُقد في عام ١٩٧٦ أميناً عاماً مساعداً، نظراً لدوره في الحركة الوطنية الذي كان متميزاً، إلى جانب كمال جنبلاط ورفيقه محسن إبراهيم. وكان لاختيار جورج لذلك الموقع في ذلك التاريخ بالذات، الذي جاء في العام الثاني للحرب الأهلية، دلالته. إذ كان جورج قد بدأ يمارس في التحالف السياسي الوطني في الحرب، باسم الحزب الشيوعي، دوراً لم يكن أحد قادراً على القيام به سواه، من أعضاء قيادة الحزب.

ولم يسمح جورج، بعقله الواسع، يوم عاد من منفاه الطوعي والقسري في آن، أن تتحوَّل التهمة التي كان قد وجَّهها إليه السوفيات مصدراً لموقف عدائي من الاتحاد السوفياتي. بل هو تجاهلها وتجاهلها الحزب. كما تجاهلها السوفيات نهائياً، وأعادوا علاقتهم بالحزب وبجورج شخصياً إلى طبيعتها. وعاد جورج،

من موقعه في قيادة الحزب، إلى اعتبار الحزب السوفياتي زعيم الحركة الثورية العالمية، في ما يتصل بالنضال ضد الإمبريالية وضد الحرب ومن أجل ترسيخ دعائم السلام، والدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصائرها بحرية. وعاد السوفيات للتعامل مع جورج بالذات كقائد للحزب الشيوعي وكواحد من أبرز القيادات في الحركة الشيوعية العربية. وهو التعامل الذي اضطروا فيه إلى الإقرار بحق الحزب الشيوعي اللبناني في تحديد سياساته الوطنية والعربية والدولية، وحقه في صياغة أفكاره بحرية، وحقه في تحديد مفهومه الجديد للماركسية، وحقه في طريقة انتمائه إليها، كنظرية وكممارسة في آن. وهي الطريقة التي تعطي هذا الفكر أهميته ودوره الكبيرين في التاريخ المعاصر للبشرية، وتعتبره، في الوقت ذاته، فكراً تاريخياً ينتمي إلى عصر سابق، أي إلى شروط تاريخية سابقة، من دون أن يفقد دوره وتأثيره، استناداً إلى المنهج المادي الجدلي الذي اعتبره ماركس مفتاح حركة التقدم، والعماد الأساسي الذي يجعل مشروعه الأساسي، في الجوهر، قابلاً للتطور والتجدد مع حركة التاريخ وتحولاته.

لكنّ مآثر جورج بالذات، ومآثر رفاقه من جيل الستّينيات في قيادة الحزب الشيوعي، بقيادة نقولا شاوي وبتشجيع منه، إنما تتمثل خصوصاً بأنه، هو شخصياً بالتحديد، وإياهم قد حوَّلوا المؤتمر الثالث (١٩٧٢) إلى منعطف كبير في فكر الحزب، فكر يقدّم فهماً جديداً متقدماً للاشتراكية ولأفكار ماركس. وهو فكر لم يكن مسبوقاً في تاريخ الحركة الشيوعية في العالم العربي، من حيث نوع وطبيعة التجديد فيه. جوهر هذا الفكر هو أن الاشتراكية، بخلاف ما كان سائداً ومعمَّماً من قِبل السوفيات، هي مشروع ديمقراطي في أساسها، تعتمد التعدد في المجتمع كسُنَّة من سُنن الحياة، وكشرط لتحقيق غاية الإنسان فيها، المتمثلة بتحقيق الحرية والتقدم والسعادة لجميع البشر. وإذا كان جورج، هنا، قد تقدّم علينا نحن رفاقه في هذا المفهوم للاشتراكية، فلأنه كان في الحقيقة سبّاقاً إلى استخلاص الاستنتاجات من التجربة السوفياتية في بناء الاشتراكية. وظلَّ في فكره

أميناً لهذا المفهوم حتى لحظة استشهاده، مروراً بالمرحلة التي أعقبت تقديم استقالته من الأمانة العامة للحزب في عام ١٩٩٢، من دون أن يتخلّى عن دوره كشخصية تاريخية في الحزب.

كان المؤتمر الثالث منعطفاً في تاريخ الحزب، ومنعطفاً في تاريخ جورج بالذات. وقد تميّز المؤتمر، إلى جانب ما أشرت إليه، في أنه طرح، في مواجهة احتمالات تحوّل الصراع في لبنان إلى ما يشبه الحرب الأهلية، مشروعاً لحوار بين القوى السياسية حول التغيير الديمقراطي في لبنان. وكانت نقطة الانطلاق في تلك الدعوة إلى الحوار أن النظام اللبناني أصبح بحاجة إلى إحداث تغيير في تركيبته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في ضوء ما كان يحصل من أحداث كبرى كانت تشهدها المنطقة، بعد حرب حزيران/ يونيو ومفاعيلها، ولا سيما في أعقاب رحيل الرئيس عبد الناصر، وانكفاء مشروعه القومي والاجتماعي الذي كان يحمل سِمة وصفة التوجّه الاشتراكي. وبالفعل فقد جرت لقاءات بادر إليها الحزب مع كل المكوّنات السياسية في البلد، يساراً ويميناً. وكان موريس نهرا من أكثر الرفاق مساهمة في تلك الحوارات مع زعماء الأحزاب اليمينية كلها من دون استثناء. واستمرت تلك الحركة عامين كاملين تُوّجا بالاحتفالات الكبرى التي نظمها الحزب في العيد الخمسين لتأسيسه. وكانت تلك الاحتفالات ذروة صعود الحزب كقوة أساسية في البلاد. وكان ذلك في أواخر عام ١٩٧٤، أي عشية الحرب الأهلية. الأمر الذي جعل كمال جنبلاط يعلن في بعض أحاديثه بأن قوة الحزب الشيوعي التي برزت في تلك الاحتفالات التي استمرت عشرة أيام بلياليها وحضرها عشرات الألوف من اللبنانيين، ربما كانت من الأسباب التي أرعبت اليمين اللبناني، فبادر إلى افتعال الحرب! وجدير بالذكر أن النصف الأول من السبعينيّات قد شهد حركة واسعة من النضالات شملت مختلف الفئات الاجتماعية، العمال والمزارعين وقطاع التعليم بمكوّناته كلها من أساتذة ومدرسين وطلاب. كما شملت تلك الحركة أوساط المثقفين. وشملت كذلك الحركة

النسائية. وقد قمعت بعض تلك النضالات من قبل السلطات بوحشية. وسقط فيها شهداء. وكان الحزب داخل الحركة الوطنية الأكثر نشاطاً في تلك النضالات.

والجدير بالذكر أن تلك الحركة التي بدأت في مطالع سبعينيّات القرن الماضي، وتوقفت في منتصف السبعينيّات، بسبب الحرب الأهلية، قد أوصلت إلى مواقع القرار في الحزب الشيوعي، وفي عدد من الأحزاب الأخرى، يسارية ويمينية، بعض رموز الحركة الطلابية، وبعض رموز الحركة العمالية كذلك.

وأسس الحزب على غرار النجدة الشعبية الفرنسية، جمعية النجدة الشعبية اللبنانية للاهتمام بالقضايا الصحية والاجتماعية. وتعاقب على رئاستها كل من الدكتور محمد دقيق، المؤسّس، والوزير الأسبق الدكتور عبد الرحمن اللبّان، والسفير الشاعر صلاح ستيتية، والقاضي سرحان سرحان، قبل أن تنتقل القيادة إلى الجيل الجديد: الدكتور غسّان الأشقر ثم رمزي عوّاد. وكان من أبرز النشطاء فيها خلال فترة طويلة كل من الدكتور محمد علي مروّة والمحامي محمد حديب وهاني عسّاف والدكتور نبيل الخرّاط والدكتور علي الزين والدكتور حكمت الأمين والدكتور لبيب عبد الصمد والدكتور أحمد مراد. وقد قامت الجمعية بأعمال كبيرة شملت مختلف مناطق لبنان. وكان أهم ما أنجزته إنشاء مستشفى النجدة الشعبية في مدينة النبطية، بمساعدة من دولة الكويت. وكان لعادل الصبّاح، من موقعه الحزبي والوطني والاجتماعي في النبطية، دور الرعاية لهذا المستشفى، من دون أن يكون جزءاً منه ومن نشاطه، ومن النجدة الشعبية ذاتها.

وجدير بالذكر أن كل تلك النشاطات التي قام بها الحزب في مرحلة السبعينيّات كان قد سبقها، منذ مطالع الخمسينيّات، نشاط سياسي مهم تمثل في مشاركة الحزب في الانتخابات النيابية بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٧٢. وكانت مشاركته، في ظل العهدين السرّي والعلني، تتميز بنشاط سياسي من دون أوهام بإمكانية إيصال ممثليه إلى سدّة البرلمان. ذلك أن قانون الانتخاب كان قانوناً غير ديمقراطي. وكانت السلطات تمارس ضد الحزب، وضد اليسار، وضد ممثلي

الحركة الشعبية عموماً، أشكالاً متعددة من القمع لمنعهم من إيصال ممثليهم إلى البرلمان. وقد تميّزت النشاطات الانتخابية لمرشحي الحزب بالتفاف أعداد كبيرة من الجماهير حولهم وحول المواقف السياسية التي كانت تتضمّنها برامجهم. وإذا كانت الأصوات التي حصل عليها مرشحو الحزب، بمن فيهم نقولا شاوي، الأمين العام للحزب، في عام ١٩٧٢، لم تكن في مستوى التأييد الشعبي الذي واكب معركتهم الانتخابية، فإن لذلك الوضع استثناءين. تمثل الاستثناء الأول بالأصوات التي نالها أنطون ثابت في انتخابات عام ١٩٥٧ في بيروت، والتي شارف فيها على النجاح. وكان ذلك يشير إلى الموقع الذي كان يحتله ثابت، بصفتيه الشخصية والحزبية، في الحياة السياسية والثقافية في البلاد. وكان أبرز ما عبّر عن موقعه انتخابه نقيباً للمهندسين في دورتين متتاليتين، فضلاً عن أنه كان عضواً في المؤتمر الوطني الذي خاض معركة الاستقلال في عام ١٩٤٣، وكان عضواً في جبهة الاتحاد الوطني التي تأسست في عام ١٩٥٧ لمناهضة حكم كميل شمعون. الاستثناء الثاني تمثل بالأصوات التي نالها حبيب صادق في عام ١٩٧٢، والتي شارف فيها على النجاح أيضاً. وكان ذلك يشير إلى الموقع الذي يحتله حبيب صادق كمثقف وكناشط اجتماعي وسياسي بارز في الجنوب خصوصاً، وعلى الصعيد اللبناني، لا سيّما بعد أن تأسس بقيادته المجلس الثقافي للبنان الجنوبي. وكان لهذا المجلس دور بارز في تلك الفترة. وهو ما يزال يمارس هذا الدور بقيادة حبيب صادق حتى هذه اللحظة، وإلى زمن قادم. وكانت قد تسرّبت إلى الحزب في أعقاب انتخابات عام ١٩٥٧، وفي أعقاب انتخابات ١٩٧٢، معلومات تشير إلى أن ثابت وصادق كانا قد نجحا فعلاً في الانتخابات ثم أُسقطا بالتزوير.

إلا أن المؤتمر الثالث أرفق نشاطه ذلك في الداخل اللبناني بنشاط آخر في الاتجاه العربي. إذ دعا إلى عمل عربي موحّد حول القضايا المشتركة، وفي مقدمتها قضية فلسطين. وجاء ذلك في بيان وقّعه ممثلو أربعة وعشرين حزباً عربياً

من شيوعيين وقوميين، ومن أحزاب في السلطة ومن أحزاب في المعارضة، تبنّوا فيه تلك الفكرة. وأدّت المناقشات حول المبادرة، التي عبّر عنها البيان، إلى تأسيس الجبهة المشاركة في الثورة الفلسطينية، التي انتُخب رئيساً لها كمال جنبلاط، وانتخب أميناً تنفيذياً نديم عبد الصمد، عضو قيادة الحزب الشيوعي اللبناني.

وإذا كان لرعاية نقولا شاوي للمؤتمر ولتوجهاته، ولرفاق جورج في قيادة الحزب دورهم في تلك التطورات التي شهدها الحزب في حركته وفي نشاطه، فإن جورج كان صاحب الدور الأكبر في المؤتمر، من دون جدال.

وفي الواقع فإن جميع هذه المواصفات المتصلة بشخصية جورج حاوي هي التي جعلته في لبنان واحداً من كبار شخصياته. كما جعلته واحداً من الشخصيات البارزة في العالم العربي. وتحوّل، على صعيد الحركة الشيوعية العربية، إلى واحد من كبار قادة هذه الحركة من دون افتعال. وذهب إلى جهات العالم الأربع حاملاً معه كفاءاته وشخصيته المتميزة. فاستُقبل في الشرق وفي الغرب على مستوى الزعماء، بما في ذلك من قِبل العديد من رؤساء الدول.

حين تفجّرت الحرب الأهلية في عام ١٩٧٥ كان جورج، في الموقع الذي احتلّه داخل الحركة الوطنية اللبنانية وفي العلاقة مع المقاومة الفلسطينية ومع قادتها، ركناً أساسياً في جبهة «التحالف الوطني» الذي خاض ببسالة معركة الدفاع عن استقلال لبنان وعن سيادته، وعن موقعه في العالم العربي، ولتأمين الدعم المبدئي والعملي للقضية الفلسطينية، في تلك المرحلة الجديدة من الثورة الفلسطينية. ومعروف أن الشعار الأساسي الذي طرحته الثورة الفلسطينية في تلك الفترة كان النضال لإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين. وطبيعي أن تُطرح هنا أسئلة حقيقية حول الأسباب التي جعلت الحرب الأهلية تنفجر بتلك القوة وبتلك السرعة، من دون أن تتوفّر القوى الرادعة لها. ومن الطبيعي، في الوقت عينه، أن تُطرح أسئلة حقيقية حول الأسباب التي جعلت الحزب الشيوعي

ينخرط في الحرب منذ لحظة تفجّرها، كما لو أنه كان يستعدّ لها مثل الآخرين. هنا تجدر الإشارة إلى أن الحزب، حين كان يدعو للحوار بين القوى السياسية كاحتمال لمنع تفجّر الحرب، كان يحضّر نفسه لاحتمال وقوعها، حتى لا يقع فريسة سهلة لخصومه السياسيين في كل المواقع. ولا بد أن نتذكر أن للوجود الفلسطيني دوره في كل ما كان يحصل في الاتجاه الذي قاد، في نهاية المطاف، إلى الحرب. إذ أصبح الفلسطينيون، في النصف الأول من السبعينيّات، دولة داخل الدولة. وجاء ذلك بعد إبرام اتفاق القاهرة، الذي تم توقيعه بدور مباشر من الرئيس عبد الناصر، في أعقاب مظاهرة التضامن مع الفلسطينيين في ٢٣ نيسان/أبريل من عام ١٩٦٩ في بيروت، التي قوبلت بالقمع الدموي، وسقط فيها شهداء بينهم شهيد من الحزب الشيوعي هو ابن مدينة طرابلس صفوان دندشي.

ورغم أن الحزب كان قد بدأ يتمايز في السياسة عن التطرّف، الذي برز في مواقف أحزاب اليسار التي كانت تتماهى مع المقاومة الفلسطينية ومع سلطتها ومع سياساتها في لبنان، في أعقاب توقيع اتفاق القاهرة، فإنه كان يتغاضى عن الكثير من أخطائها. وفي الواقع فقد كانت تحكم سياسة الحزب تجاه المقاومة الفلسطينية ازدواجية دفع ثمنها الحزب لاحقاً. ولا بد أن نشير هنا إلى بعض المقالات التي نشرها جورج في بعض الصحف والمجلات اللبنانية، وفيها نقد صريح لتلك الاتجاهات التي كان اليسار الجديد يدعو إليها، بدفع من المنظمات الفلسطينية جميعها، وبالأخص حركة فتح، التي كانت تعتبر أن من حق الثورة الفلسطينية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية، إذا كان ذلك يساهم في تعزيز قدرتها على النضال لتحقيق أهدافها. وكان من بين تلك المقالات الجريئة لجورج مقاله الذي حمل عنوان «اقتصاد الخدمات ويسار الخدمات». وكان بذلك ينتقد هذا اليسار وينتقد، في الوقت ذاته، طروحات المقاومة الفلسطينية التي أشرنا إليها.

لم تُطرح تلك الأسئلة المشار إليها حول الحرب في تلك الفترة داخل هيئات

الحزب. لكن عدداً من الشيوعيين، وبينهم بعض المثقفين، كانوا يطرحون تلك الأسئلة، كل على طريقته، من دون أن تكون قد توفّرت عند أحد، وعند القيادة، إجابات جاهزة عن تلك الأسئلة. وكانت تلك المواقف تشير إلى الخوف على البلاد من الحرب ومن نتائجها، وإلى الخوف على الحزب ذاته من الوقوع أسير الحرب وأسير منطقها. وفي الواقع فإن الصراع المسلح كان قد أصبح سيد الموقف. وأدّى ذلك الوضع إلى تراجع دور الفكر وتراجع الدور الذي كان يفترض بأصحابه أن يلعبوه. وفي حين حاول عدد من كبار مثقفي الحزب، الذين استمروا في الانتماء إلى الحزب، يبرّرون في مواقفهم مواقف قيادته، بدأ آخرون يتمايزون عنه، من دون أن ينتقلوا إلى مواقع أخرى مغايرة له ولموقعه. وتراجع، في تلك الفترة، دور النقد الذي شق المؤتمران الثاني والثالث الطريق إليهما كوظيفة أساسية لمثقفي الحزب. ومع ذلك فقد حاول جورج حاوي ، وكنت شريكه، مع عدد من قادة الحزب القدامى والجدد، في تلك المحاولة في البحث في إمكانية واقعية لإيقاف الحرب عند المرحلة التي انفجرت فيها، في النصف الثاني من عام ١٩٧٥ . وكان من بين تلك المحاولات مبادرتان قمنا، جورج وأنا، منفردين، من دون إدخال قيادة الحزب فيهما. كانت الأولى مع حزب الكتائب بواسطة غسان تويني. وكانت الثانية مع البطريركية المارونية بواسطة ميشال إده. وفشلت المحاولتان. واستنتجنا يومها أن الحرب أصبحت أمراً واقعاً، وأن اللبنانيين اندفعوا فيها ولم يعودوا قادرين على إيقافها قبل أن تستنفد أغراضها. وقد أدّى ذلك الاستنتاج، عند جورج، تحديداً، إلى اعتبار أن مهمة الحزب في تلك الحرب هي محاولة تحويلها عن مسارها الطائفي، في الاتجاه الذي يجعلها حرباً ثورية للتغيير. وكان ذلك وهماً، تأخّر جورج وتأخّر الحزب للوصول إلى إدراك أنه وهم، بعد فوات الأوان. ومع ذلك فقد كان جورج خلال الحرب ينتقل، مع تطور الصراع فيها، من موقف إلى موقف نقيض، وصولاً إلى القناعة التي ترسّخت لديه في آخر المطاف بأن تلك الحرب لم تكن في حقيقتها

سوى شكل من أشكال التدمير الذي ساهم الجميع فيه، ونحن منهم، كل من موقعه في الحرب، وكل بحسب دوره ووزنه وحجمه ومواقفه فيها، وفي نوع ممارساته فيها. وكان جورج، برغم ما ارتبط ببعض مواقفه من التباسات، تمثلت بمبادرات وبمبالغات هنا وهناك، ومن تصورات لديه عن دور الحزب في الحرب كانت أشبه بالأحلام وبالأوهام، كان من أوائل الذين قاموا بنقد جريء للذات، كمسؤول أول في الحزب، من موقعه كشريك في الحرب الأهلية، في أحد طرفي الصراع فيها. وجاءت قمة هذا الموقف النقدي عند جورج من خلال التحضير للمؤتمر السادس للحزب، الذي عقد في عام ١٩٩٢، أي بعد عامين من انتهاء الحرب الأهلية، وبعد عام واحد من انهيار التجربة الاشتراكية الأم في الاتحاد السوفياتي. وتابع موقفه النقدي هذا في المرحلة التي أعقبت تخلّيه عن موقعه في الأمانة العامة للحزب، بعد ذلك المؤتمر بأشهر معدودة.

وجدير بالتنويه، هنا، أن جورج كان صاحب المبادرة الأولى والأساسية في إطلاق المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي في عام ١٩٨٢. ونذكّر هنا من يكون قد نسي، ومن يريد أن يتناسى، بالبيان التاريخي الذي أعلن قيام الجبهة:

«يا أبناء بيروت البطلة،

يا أبناء شعبنا اللبناني العظيم في الجنوب والجبل والبقاع والشمال،

أيها المقاتلون الوطنيون الشجعان

إن العدو الإسرائيلي المستمر في حربه الوحشية ضد لبنان منذ أكثر من مائة وأربع أيام يبدأ اليوم تدنيس أرض بيروت الوطنية الطاهرة التي قاومت ببطولة طوال هذه المدة ولقّنته في خلدة والمتحف وفي ضاحيتها الجنوبية وكل مداخلها دروساً في البطولة لن ينساها.

إن العدو المجرم يتنكر لكل الاتفاقات التي أُجبر على إبرامها بفضل المقاومة البطلة للشعبين اللبناني والفلسطيني بقيادة القوات المشتركة يستهدف اقتحام بيروت الوطنية التي استعصت عليه عندما كان في حالة الاستنفار والتعبئة وقبل تثبيت الخطة الأمنية التي قضت بتسليم أمن بيروت للسلطة الشرعية.

إن العدو الإسرائيلي استأنف جريمته النكراء وسط الرعاية الأميركية نفسها التي تميّزت بالخداع المكشوف والرخيص، والتي أظهرت خلالها الولايات المتحدة الأميركية أنها القائدة الفعلية للعدوان عسكرياً وسياسياً ضد لبنان وشعبه. ويكشف التذرّع بجريمة اغتيال المرحوم بشير الجميّل للقيام بهذا العدوان الغادر على بيروت الوطنية مسؤولية إسرائيل وأميركا عن جريمة الاغتيال. كما يؤكد مدى خطورة الأهداف المجرمة التي يحملها المخطط الأميركي-الإسرائيلي ضد لبنان، وحدة وكياناً ومصيراً.

إن أميركا وإسرائيل ستتابعان تنظيم الدسائس والمؤامرات لتفرقة شعبنا وتقسيم بلادنا وتجزئتها تأميناً لسيطرة مديدة لهما على لبنان، وعبر لبنان على سائر الأقطار العربية المجاورة.

يا رجال ونساء لبنان من كل الطوائف والمناطق والاتجاهات،

أيها اللبنانيون الحريصون على لبنان بلداً عربياً سيداً حراً مستقلاً..

إلى السلاح استمراراً للصمود البطولي دفاعاً عن بيروت والجبل، عن الجنوب والبقاع والشمال.

إلى السلاح تنظيماً للمقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال وتحريراً لأرض لبنان من رجسه على امتداد هذه الأرض من أقصى الوطن إلى أقصاه.

أيها اللبنانيون،

إن واجب الدفاع عن الوطن هو أقدس واجب. إن شرف القتال ضد المحتل هو الشرف الحقيقي الذي ينبغي لكل وطني أن يفاخر به.

فلتنتظم صفوف الوطنيين اللبنانيين كافة، وبغضّ النظر عن انتماءاتهم السابقة وعن الاختلافات الأيديولوجية والطائفية والطبقية، في جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي، كسراً للقيد الذي تحاول أن تفرضه اليوم أميركا وإسرائيل على عنق شعبنا الحر ورفعاً لراية التحرر الحقيقي لشعبنا العظيم.

بيروت في ١٦ أيلول ١٩٨٢

جورج حاوي   محسن إبراهيم»

وإذ نذكّر الناسين والمتناسين بذلك الحدث التاريخي فلكي نذكّر، في الوقت ذاته، القاصي والداني، في لبنان وفي العالم العربي وفي العالم، بالإنجازات التي ارتبطت باسم جبهة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الإسرائيلي، وبالدور الأساسي للشيوعيين بقيادة جورج حاوي. وكان يساعده، في البداية، الياس عطاالله ومعه فريق عمل من كوادر الحزب. ثم تحوّل العمل المقاوم إلى عمل منظم شمل منظمات الحزب كلها، لا سيما منها منظمات الجنوب والجبل والبقاع. لقد كان لهذه الجبهة، وللشيوعيين فيها، الدور الأساسي في انحسار الاحتلال الإسرائيلي من بيروت ومن الجبل والبقاع إلى المنطقة الحدودية في جنوب لبنان. فبعد أن كانت إسرائيل قد احتلت ٣٤٥٠ كلم^2، من مساحة لبنان، بما فيها بيروت، أجبرت على الانسحاب من المناطق التي احتلتها على مراحل، وكان آخرها في شباط/فبراير وآذار/مارس من عام ١٩٨٥، إلى منطقة الشريط الحدودي التي لا تتجاوز مساحتها ٨٥٠ كلم^2. ورغم المحاولات التي استخدمت فيها كل

الوسائل، بما في ذلك القتل والخطف والتهجير، لمنع الشيوعيين من القيام بواجبهم الوطني في مقاومة الاحتلال، فقد تابعوا نضالهم البطولي، برغم تلك الصعوبات، وحققوا إنجازات باهرة تشير إليها الأرقام التي نثبتها في هذا البيان عن عدد العمليات وعن نتائجها وعن شهداء الحزب فيها:

تقرير إحصائي حول عمل الشيوعيين في جبهة المقاومة
من عام ١٩٨٢ حتى عام ٢٠٠٠

العملية الأولى	٢٠ أيلول ١٩٨٢
عدد العمليات التي جرى تنفيذها	١١١٣
عدد العمليات ضد العدو الإسرائيلي	٩٠٧
عدد العمليات ضد العملاء	٢٠٦
عدد الشيوعيين المشاركين	٧٠٠٠
عدد شهداء جبهة المقاومة من الشيوعيين	١٨٤
عدد الاستشهاديين	٣
عدد شهيدات جبهة المقاومة من الشيوعيين	٧
توزع الشهداء على المحافظات	
الجنوب	١٢٩
البقاع	٢٩
الشمال	١٤
جبل لبنان	١٠
بيروت	٢
عدد الجرحى	١٢٠٠
عدد الذين اعتقلوا في سجون العدو	٣٠٠٠

وقد صدر كتابان في أواسط الثمانينيّات وأواخر التسعينيّات من القرن الماضي يؤرّخان للمقاومة ولدورها. الأول هو كتابي بعنوان «المقاومة: أفكار للنقاش حول الجذور والتجربة»، صدر في عام ١٩٨٥ وطبع في ثلاث طبعات. الكتاب الثاني هو لحمزة منصور بعنوان «حرب العصابات في لبنان»، وقد وقّعه باسم حمزة الأنصاري، الذي تأخر صدوره إلى عام ١٩٩٧. كما تم إنتاج أول فيلم عن المقاومة أشرفنا جورج حاوي وأنا عليه، وذلك في أواخر ثمانينيّات القرن الماضي. وهو بعنوان «واهب الحرية»، المأخوذ من عنوان قصيدة بول شاوول التي تصدّرت الفيلم. وقام بإخراجه المخرج السينمائي العراقي قيس الزبيدي. وقام بدور الراوي في الفيلم سعداللّه مزرعاني. وأهمية هذا الفيلم أنه أرّخ للمقاومة بكل روافدها، بأمانة، ومن دون استثناء.

وكان دور الحزب في المقاومة يكمل تاريخاً طويلاً من المبادرات في خلق الأسس الموضوعية والعملية لجعل النضال ضد الاحتلال مهمة كل الوطنيين اللبنانيين، وفي مقدمتهم الشيوعيون. فهو قد كان، منذ أواخر الستينيّات، أي بعد هزيمة عام ١٩٦٧، ونشوء المقاومة الفلسطينية، داعياً إلى جعل منظمات الحزب الشيوعي في المناطق الحدودية جزءًا من تلك المقاومة الفلسطينية الناشئة ضد الاحتلال وضد العدوان، مشروطاً بالإبقاء على استقلالية الحزب تجاه تلك المقاومة الفلسطينية. وكانت ترمز تلك الاستقلالية إلى موقف مبدئي، اختلف فيه الحزب الشيوعي اللبناني عن سائر أحزاب الحركة الوطنية من الاتجاه اليساري الجديد والاتجاه القومي، التي كانت تعطي المقاومة الفلسطينية دوراً فيها يتجاوز مهمتها الوطنية في تحرير أرضها من الاغتصاب والاحتلال، بما في ذلك حق قادتها التدخل في الحركات الوطنية في البلدان العربية المجاورة، استناداً إلى المقولة التي شاعت وسادت طويلاً التي تقول بأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للشعوب والبلدان العربية، وأن لها الأولوية على كل القضايا الأخرى. وهو الأمر الذي هيّأ منظمة التحرير الفلسطينية، بقيادة ياسر عرفات، للتحول في

كل من الأردنّ ولبنان إلى دولة داخل الدولتين. وتأكيداً لهذه الاستقلالية بادر جورج إلى اقتراح تشكيل منظمة للمقاومة مشكلة من الأحزاب الشيوعية العربية. وتشكلت في عام ١٩٦٩ منظمة «قوات الأنصار» التي لم تعش طويلاً لعدم حماس بعض الأحزاب الشيوعية العربية للانخراط في الكفاح المسلح لمقاومة العدوان ولتحرير الأرض من الاحتلال واستبدال المقاومة المسلحة بالنضال السلمي. عندئذ اقترح جورج إنشاء «الحرس الشعبي» كمنظمة شيوعية لبنانية للمقاومة. وقد قمت بوضع الاقتراح موضع التنفيذ مع كوادر الحزب وقيادييه في منطقة الجنوب اللبناني. وكان ذلك في أواخر عام ١٩٦٩. وهو التنظيم الشعبي الذي استشهد تحت رايته وباسمه عدد من كوادر الحزب الشيوعي كان أولهم وأبرزهم الفلاح الشيوعي علي أيوب، ابن بلدة عيناتا، وذلك في مواجهة العدوان الإسرائيلي على لبنان في عام ١٩٧٢. وكان علي العبد المسؤول الأول عن منظمة الجنوب، وهي المنظمة التي أوكلت إليها، أساساً، مهمة رفد الحرس الشعبي بالمقاومين. وننشر، للتذكير، نص البيان الذي أعلن قيام الحرس الشعبي ونشر في كانون الثاني في عام ١٩٧٠.

«أيها المواطنون في القرى الأمامية

يا أبناء الجنوب كافة

أيها المواطنون في كل المناطق اللبنانية

الاعتداء الإسرائيلي الغادر الذي تعرّضت له منذ أيام قرية كفركلا، واختطفت فيه القوات المعتدية عدداً من المواطنين، هو تتمة طبيعية للاعتداءات الصهيونية المتكررة التي تعرّضت لها وتتعرّض منطقة العرقوب وحاصبيا والخيام وإبل السقي وبنت جبيل وقرى عيترون وميس الجبل وحولا وراشيا وسواها من القرى. وهي تستهدف، منذ أن بدأت، ضرب الصمود لدى أبناء هذه القرى وإجبارهم على النزوح من أرضهم والتخلي عنها تمهيداً لتحقيق

المطامع التوسعية لإسرائيل في أرضنا وفي جزء عزيز من وطننا. وقد أكدت ذلك على الدوام بيانات وتصريحات زعماء الصهيونية في إسرائيل وخارجها.

وإذا كانت قد اشتدت هذه الاعتداءات واتسعت في الآونة الأخيرة فلأنها جاءت لتخدم أهداف الرجعية الداخلية ومخططها، مسهلاً لها ذلك تقاعس الدولة عن القيام بأبسط مستلزمات الدفاع عن الوطن والمواطنين. والهدف الرئيسي للرجعية الآن، بعد اتفاق القاهرة، هو، من جهة، عرقلة تطبيق هذا الاتفاق وضرب العمل الفدائي، ومن جهة ثانية، العمل بكل الوسائل لمنع لبنان من القيام بالتزاماته في المعركة العربية المشتركة.

إن كل مواطن يتساءل الآن، كما كان يتساءل دائماً إزاء هذه الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على قرانا والمطامع الصهيونية التي لا تخفى في قسم من أرضنا، ما الذي فعلته الدولة وما الذي تنوي أن تفعله! إلا أنه سرعان ما يجد الجواب على الحدود في تخاذل الدولة وتقاعسها عن القيام بواجب الدفاع عن الأرض والحدود والوطن والمواطنين، ومن اتخاذ أي تدبير ملموس باتجاه تحصين المنطقة الأمامية وتدريب سكانها وتسليحهم، ورفع القدرة الدفاعية للبلاد لتكون في مستوى المواجهة مع العدو، ولتستطيع صد اعتداءاته. ويجد الجواب كذلك في تنكيل الدولة بالقرى التي تصمد وبالمواطنين الذين يحملون السلاح دفاعاً عن أرضهم، كما حصل في قرية كفركلا. إن المواطنين في القرى الأمامية، وفي الجنوب عامة، إزاء هذا الواقع المرير، يحملون الدولة مسؤولية النتائج الخطيرة التي تترتب على سياسة التخاذل والاستسلام التي تسلكها. فإن هذه السياسة لا تقود فقط إلى المزيد من الاعتداءات، وإلى المزيد من

الضحايا والخسائر، وإلى المزيد من نزوح مواطني القرى الأمامية مع ما يحمل ذلك من مشاكل اقتصادية واجتماعية كبيرة، بل هي تقود إلى تسليم العدو جزءاً من الأرض التي يتمسك بها أصحابها ويتمسك بها كل المواطنين، تمسكاً بجزء عزيز من الوطن، حفاظاً على السيادة والاستقلال الحقيقيين.

إن المعارك التي خاضها ويخوضها أبناء القرى الأمامية في وجه الاعتداءات الإسرائيلية هي معارك دفاع عن الوطن، والشهداء الذين سقطوا فيها هم شهداء الدفاع عن الوطن.

أيها المواطنون في الجنوب

أيها المواطنون في كل لبنان،

إن منظمة الحزب الشيوعي في منطقة الجنوب التي كان لها شرف النضال باستمرار في سبيل التحصين والتدريب والتسليح والتجنيد الإجباري، والدفاع عن مطالب أبناء الجنوب الاقتصادية والاجتماعية التي تمكنهم من الصمود، إدراكاً منها لاتساع الاعتداءات الإسرائيلية وتكررها، ووعياً منها لخطورة تقاعس الدولة وغيابها، وانطلاقاً من المبادئ الأساسية التي يستند إليها الشيوعيون في التمسك بالأرض والدفاع عن الاستقلال والمساهمة في المعركة العربية المشتركة ضد الصهيونية والاستعمار، وفي مساندة ودعم العمل الفدائي، قد رأت من واجبها أن تدعو الشيوعيين في القرى الأمامية وفي كل منطقة الجنوب للمشاركة في حراسة قراهم بالسلاح وفي تنظيم لجان الحرس الشعبي دفاعاً عن القرى والمواطنين، الذين هم جميعاً هدف الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة. وإذا كانت منظمتنا قد قدّمت في الأسابيع الماضية شهيدين من مناضليها

الشيوعيين أحدهما إبراهيم جابر، وهو يقوم بواجب الكفاح في الأراضي المحتلة، والثاني علي سويد وهو يقوم بواجبه خلال العدوان الإسرائيلي الغاشم الذي تعرّضت له بلدة الخيام، فهي ترى أن هذا هو شرف تعتز به. ومناضلوها الذين يستوحون في كفاحهم مبادئ حزبهم الشيوعي، سيسترخصون الحياة في هذه المهمة الوطنية الكبيرة المقدسة.

إن منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب لتعتبر أن المساهمة في حراسة القرى الأمامية، بالتعاون مع منظمات المقاومة الفلسطينية، ضد الاعتداءات الإسرائيلية الغادرة، هي مهمة جميع القوى الوطنية والتقدمية، ليس في الجنوب وحسب، بل في كل لبنان. لأن الدفاع عن الحدود، لا سيما عندما تغيب الدولة وتتقاعس وتتنكر لواجباتها، يصبح مهمة كل الوطنيين في كل منطقة وفي كل ناحية من البلاد. وهي لذلك تتوجه إلى كل المواطنين في الجنوب وفي سائر المناطق اللبنانية للمشاركة بشرياً ومادياً في هذا العمل الوطني الكبير، مع الاستمرار في النضال لتحصين مناطق الحدود، والعمل للدفاع عن المطالب الاقتصادية والاجتماعية لأبناء الجنوب سواء منهم الصامدون في القرى أم الذي يضطرون للنزوح. وهي ترى أن المعركة الراهنة هي معركة الصمود والدفاع عن حدود البلاد. والمشاركة في المعركة ضد العدو الصهيوني إنما تتطلب أكثر من أي وقت مضى اتحاداً متيناً وصلباً بين القوى الوطنية والتقدمية وتلاحماً بين هذه القوى وبين المقاومة الفلسطينية. وستبذل منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب كل ما تستطيع في ضوء الخط العام للحزب الشيوعي الذي تنتمي إليه لتحقيق هذه الوحدة وهذا التلاحم بين الحركة الوطنية اللبنانية والحركة الوطنية للشعب العربي الفلسطيني، في المعركة المشتركة

لصد العدوان الغادر على حدودنا، ومن أجل انتصار القضية العادلة للشعب العربي الفلسطيني.

٦ كانون الثاني ١٩٧٠

منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب»

وكما أشرنا آنفاً، فإن تأسيس جبهة المقاومة كان يرمي إلى جعل مقاومة الاحتلال المهمة الأساسية أمام جميع اللبنانيين. وانطلاقاً من هذا الفهم لدور المقاومة كان يجهد الحزب لإخراج اللبنانيين من الصراع في ما بينهم في الحرب ليلتقوا في موقف واحد حول هذه المهمة الوطنية الأساسية، المتمثلة بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي. والفكرة الأساسية من هذا التوجه عند الحزب هي خلق وطنية لبنانية جديدة تعيد إلى اللبنانيين إدراكهم بأنهم ينتمون إلى وطن واحد هو وطنهم اللبناني، وأن هذا الانتماء يفوق كل انتماء آخر لكل منهم، حتى ولو كان لهذه الانتماءات الثانوية ما يبدو متناقضاً بين واحد وآخر منها. لكن الجواب عن ذلك الشعار كان سلبياً من طرفيّ القوى الطائفية المتصارعة في الحرب الأهلية، القوى الإسلامية التي كانت تقاوم الاحتلال، والقوى المسيحية التي كانت تهادنه. وكلا الفريقين كانا متفقين على الموقف من اليسار عموماً، والشيوعي خصوصاً، كخصم سياسي لهما، سواء في قلب المقاومة ذاتها للاحتلال، أم في الحرب الأهلية ذاتها التي كان يتعمق فيها المنحى الطائفي، وكان يزداد استقواء الفرقاء فيها بالخارج، كل الخارج، في مواجهة بعضهم بعضاً بهدف الإلغاء والإقصاء. ودفع الحزب ثمناً باهظاً من دماء قيادييه وكوادره ومثقفيه في تلك الحرب التي شُنّت عليه من كلا الطرفين الطائفيين، اللذين التقيا موضوعياً في العداء لليسار وللشيوعيين على وجه الخصوص. لكن أكثر الذين ناصبوا الحزب العداء هم الذين كان يفترض بهم أن يكونوا مع الحزب في جبهة واحدة ضد الاحتلال. وكان عدد من كبار رموز الحزب من بين الذين سقطوا غدراً في تلك العمليات

التي استهدفت الحزب بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٧. وهم: حسين مروّة ومهدي عامل وسهيل طويلة وخليل نعوس وميشال واكد وكامل الصبّاح وديب الجسيم وسليم يموت ونور طوقان وأحمد صالح وخضر الجوني وعباس شرف وحسن الصبّاح وهاني زين الدين وأنيس مصطفى والدكتور لبيب عبد الصمد. تضاف إلى هؤلاء الشهداء عمليات الخطف التي طالت عدداً من الشيوعيين نذكر منهم على سبيل المثال جورج حنا وأحمد نجا في السياق ذاته. وشملت تلك الحملة الهوجاء تهجير المئات من منازلهم في الجنوب وفي الضاحية. ولم تنفع كل المحاولات التي بذلها الحزب لتوجيه البندقية ضد العدو الإسرائيلي، بدل توجيهها إلى الذين كانوا إما في طريقهم إلى تنفيذ عمليات ضد الاحتلال، أو في طريق عودتهم بعد تنفيذ عملياتهم. وكان قد اغتيل بالطريقة ذاتها وفي وضح النهار في عام ١٩٧٩، عشية انعقاد المؤتمر الرابع للحزب، أحمد المير الأيوبي عضو المكتب السياسي والمسؤول الأول في منظمة الحزب في طرابلس والشمال. ولن ننسى، في هذا السياق من الحديث عن كوارث الحرب والصراعات الداخلية والخارجية فيها، أولئك اللبنانيين من كل الاتجاهات السياسية، المحسوبة على اليسار(الشيوعي وغير الشيوعي)، وتلك التي كانت في مواقع وطنية أخرى، بل حتى تلك التي لم تكن في أي موقع، أعني الذين تم اختطافهم في المنطقتين الشرقية والغربية، ولم يعرف مصيرهم حتى الآن. وبعض هؤلاء المخطوفين يطالب ذووهم اليوم باستعادتهم من السجون السورية، إما أحياء أو جثامين.

تجدر الإشارة، هنا، إلى أن المال العربي والأجنبي وكذلك السلاح قد ظلا يتدفقان خلال الحرب الأهلية على لبنان من كل جهات الأرض. وكان ذلك واحداً من أبشع أشكال التعبير عن الاستقواء بالخارج. وكنا نحن الشيوعيين أسرى وضحايا تلك المغامرة التاريخية الكبرى. وهو ما دعا البعض إلى اعتبار الحرب الأهلية حرب الآخرين على أرضنا، من دون الإشارة إلى دور اللبنانيين في جعلها تتخذ هذا الطابع المدمّر.

عندما أرسلت القيادة السورية جيشها للتدخل العسكري في لبنان في ربيع ١٩٧٦، بحجة إيقاف الحرب الأهلية، ارتفعت الأصوات في أوساط تحالف الحركة الوطنية مع المقاومة الفلسطينية لمواجهة هذا التدخل. كان موقف جورج حاوي يدعو إلى التروّي وعدم المغامرة في معركة لا تتوفّر شروط النجاح فيها، معتبراً أن الهزيمة ستكون النتيجة الحتمية لدى خوضها، بالنظر إلى الخلل في نسبة القوى، أولاً، ثم لكون الدول العربية لم تكن معنا، ولا مع الفلسطينيين، في ما اعتبروه جميعهم من قبلنا، في الحرب وفي توسيع رقعتها في اتجاه الجبل المسيحي، مغامرة لا يمكن التسامح معها. وجرى التعبير عن ذلك الموقف للحكومات العربية، الذي أجاز التدخل السوري، في النقد الحاد للحركة الوطنية وللمقاومة الفلسطينية في مؤتمري القمة اللذين عقدا على التوالي في الرياض وفي القاهرة. ومن المفارقات التاريخية أن الاتحاد السوفياتي والأحزاب الشيوعية العربية تبنّوا موقف الحكومات العربية. وبدلاً من أن يدينوا التدخل السوري أدانوا موقف الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. وقد حاولت قيادة الحزب إقناع الحلفاء في الحركة الوطنية وفي المقاومة الفلسطينية بعدم الدخول في صدام مع القوات السورية تجنّباً للخسائر، أخذاً في الاعتبار كون العرب والسوفيات كانوا ضدنا. لكن أعضاء التحالف الوطني اللبناني-الفلسطيني كانوا يصرّون على ضرورة خوض المعركة. ولم يستمعوا إلى تحليلنا الواقعي لمسار الأحداث. ولم يكن أمامنا سوى البقاء مع الحلفاء. وهكذا دخل الحزب بكامل قدرته القتالية في مواجهة التدخل السوري. ولم يكن موقف قيادة الحزب بعدم خوض المعركة قبولاً قسرياً بالتدخل السوري كأمر واقع، بل كان خوفاً من نتائجه التي سرعان ما ظهرت في شكل كارثي تمثل بهزيمة عسكرية كان عدد شهداء الحزب فيها كبيراً، بفعل حجم مشاركته في المعركة، وحجم بطولات الشيوعيين فيها. أما الموقف الرسمي للحزب فكان واضحاً في إدانته للتدخل السوري. ونشر جورج شخصياً سلسلة من المقالات جمعها في كتاب

كشف فيه بجرأة وبصراحة الأغراض السياسية وراء هذا التدخل، واعتبره مُجازاً من الولايات المتحدة الأميركية ومن إسرائيل ومن معظم الحكومات العربية. ثم كان ما كان بعد ذلك التدخل السوري في الحرب. إذ أصبحت سوريا جزءاً مكوّناً من تلك الحرب. وكانت لها سياساتها. وكانت لها أهدافها في الداخل اللبناني، لا سيما في ما يتعلق بمستقبل لبنان، وفي الموضوع الفلسطيني، وفي الوضع العربي عموماً. ولم يكن عام التدخل العسكري إلا البداية، التي كان من نتائجها المباشرة اغتيال كمال جنبلاط وتصدُّع الحركة الوطنية التي كان كمال جنبلاط زعيمها الذي لا يُستبدل بسواه. ثم بدأت السياسة السورية تمارس فعلها في تقسيم القوى الوطنية، اللبنانية والفلسطينية، وفي إثارة الصراعات بينها. وكان من أخطر ما واجهناه ابتداء من عام ١٩٨٠ تحويل حركة «أمل» بدعم سوري إلى دائرة صراع دموي ضد الحزب الشيوعي وضد اليسار عموماً، وفي وجه المقاومة الفلسطينية. وبدأت، منذ ذلك التاريخ، حروب استنزاف ذهب ضحيتها المئات من اللبنانيين والفلسطينيين، ومن بينهم عدد غير قليل من الشيوعيين.

ثم وقع الاجتياح الإسرائيلي الثاني في عام ١٩٧٨، الذي صدر قراران في مجلس الأمن بشأنه، هما القرار ٤٢٥ والقرار ٤٢٦، اللذان كانا بعد أن استولت إسرائيل على جزء من الجنوب، واستمرت في احتلاله حتى عام ٢٠٠٠. وهو العام الذي شهد ملحمة تحرير تلك المنطقة بدور أساسي لحزب اللّه، الذي أصبح وحده يمارس فعل المقاومة بدعم سوري وإيراني، في ما يشبه الجيش، الذي فاق بقدرته أضعاف ما كان عليه الجيش اللبناني. وكان في مقاومته المسلحة يحظى بدعم جميع المكوّنات السياسية والشعبية اللبنانية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، من دون استثناء، حتى التحرير. ومن المعروف أنه كان من نتائج ذلك الاجتياح الإسرائيلي في عام ١٩٧٨، احتلال قسم من الأراضي اللبنانية في الشريط الحدودي. وصدر في ذلك الحين عن مجلس الأمن القراران ٤٢٥ و٤٢٦ اللذان يدينان الاحتلال ويطالبان إسرائيل بالانسحاب من الأراضي التي

احتلتها. وكان لممثل لبنان في المنظمة الدولية، غسان تويني، دور أساسي في صدور هذين القرارين.

كان جورج حاوي سياسياً براغماتياً من الطراز الرفيع. وكان موقفه من القيادة السورية يجمع بين النقد الجريء لسياساتها، المعلنة والخفية، والرغبة الدائمة في عدم قطع التواصل معها، بهدف الوصول إلى تصحيح العلاقات بين البلدين الشقيقين، تأكيداً لروابط الأخوّة، وتعزيزاً متواصلاً للمصالح المشتركة بينهما، القائمة على الندية.

وعلى أساس هذه البراغماتية، وانطلاقاً من الحرص على المصلحة الوطنية والقومية معاً، كان جورج، وكانت معه قيادة الحزب تتعامل مع الوضع الفلسطيني، ومع القيادة الفلسطينية بمسؤولية عالية. وكانت تلك المسؤولية تقضي أحياناً بتوجيه النقد إلى السياسات والممارسات الفلسطينية، بصِيَغ مختلفة. وكان يقضي ذلك الموقف المبدئي بأن يجري التعبير عنه بمرونة تجنّباً للصدام. وكان عنوان ذلك الموقف من كل من القيادة السورية والقيادة الفلسطينية هو ما أكد عليه جورج حاوي في حديثه إلى مجلة «الطريق» في أواخر عام ١٩٨٢، وهو الحرص على القرار الوطني اللبناني المستقل. لكن هذا القرار الوطني المستقل إنما كان يأخذ في الاعتبار العلاقة العضوية للبنان بالعالم العربي وبقضاياه، مشروطاً بألا تقود تلك العلاقة إلى جعل لبنان، ساحة دائمة للصراع بالنيابة عن الأمتين العربية والإسلامية. لكنّ الصدام بين الحزب والمقاومة الفلسطينية، لا سيما مع فتح، ومع ياسر عرفات بالذات، وقع في شكل مأساوي، عندما عاد ياسر عرفات فجأة في أواخر عام ١٩٨٣، عن طريق البحر إلى مدينة طرابلس، بعد أن كانت قد خرجت قوات منظمة التحرير من بيروت في عام ١٩٨٢، وفق خطة فيليب حبيب. إذ تحالف عرفات، فور وصوله إلى طرابلس، مع حركة التوحيد بقيادة الشيخ سعيد شعبان، التحالف الذي تمت بموجبه سيطرة الفلسطينيين على عاصمة الشمال، ودفع الحزب الشيوعي ثمناً باهظاً لذلك، كان أكثره فداحة تلك

المجزرة التي ذهب ضحيتها خمسة وثلاثون شيوعياً في مركز الحزب في الميناء. ثم أدّى تحرير طرابلس من سيطرة السلفيين عليها في عام ١٩٨٥، الذي اشتركت في إنجازه أحزاب الحركة الوطنية مع القوات السورية، أدّت عملية التحرير تلك إلى استشهاد عشرين من كوادر الحزب. وفي ذلك العام بالذات، وبعد تحرير طرابلس، وقعت حرب المخيمات في بيروت وضواحيها، التي جرت بقرار سوري، وكانت القوة الأساسية فيها حركة أمل. لكن الحزب الشيوعي والحزب التقدمي الاشتراكي، بشخص كل من جورج حاوي ووليد جنبلاط، رفضا الدخول في تلك الحرب العبثية، برغم الضغوط التي موربست عليهما من قبل القيادة السورية. وإذ كان الهدف السوري من تلك الحرب تأديب ياسر عرفات والقوى الفلسطينية التي التقت معه، لا سيما بعد الانقسام الذي حصل في حركة فتح، فقد اعتبر الحزب الشيوعي والحزب التقدمي الاشتراكي تلك الحرب، أي حرب المخيمات، حرباً عبثية كان من نتائجها تدمير مخيمي صبرا وشاتيلا وعشرات، وربما مئات، القتلى من اللبنانيين والفلسطينيين.

استمر خلاف الحزب الشيوعي مع ياسر عرفات حتى عام ١٩٨٧. ففي ذلك العام الذي أقيمت فيه احتفالات كبيرة في الذكرى السبعين لثورة أكتوبر في موسكو، جرى في الشقة التي كنت أقيم فيها ضيفاً على اللجنة المركزية للحزب السوفياتي، لقاء بيننا، جورج حاوي وأنا، مع ياسر عرفات، طرحنا فيه موقفنا من السياسة التي كانت تتبعها المنظمة بقيادته، وأشرنا بوضوح إلى مخاطرها على مستقبل القضية الفلسطينية وعلى لبنان. ثم استكمل لقاء المصالحة ذاك بلقاء آخر في العام التالي عُقد في براغ وشارك فيه، إلى جانب جورج حاوي، جورج البطل، وإلى جانب ياسر عرفات، أبو أياد. وحضر اللقاء تيسير قبّعة ومحمود درويش. والجدير بالذكر أن احتفالات ذكرى الثورة قد ترافقت مع عقد مؤتمر تاريخي، هو الأول من نوعه بعد انقسام الأممية الثانية خلال الحرب العالمية الأولى بين أممية شيوعية وأممية اشتراكية. إذ جمع هذا المؤتمر ممثلي مئتي

حزب شيوعي واشتراكي ديمقراطي وممثلين عن أحزاب ديمقراطية وحركات تحرر وطني. وشارك في هذا المؤتمر جورج حاوي وأنا، ممثلين للحزب الشيوعي، ووليد جنبلاط ممثلاً للحزب الاشتراكي.

في العودة إلى الحرب الأهلية لا بد من الإشارة إلى أنها كانت قد تحوّلت على الفور، برغم وجود قوى علمانية في أحد طرفي الصراع، إلى حرب طائفية عبثية. إلاّ أنَّ جورج حاوي ظلَّ لسنوات عدّة يعتبر اشتراك الحزب فيها عنصراً قابلاً لتحويلها إلى مشروع «ثورة» وطنية ديمقراطية، إلى أن اكتشف في السنوات الأخيرة من الحرب أنها كانت ثورة وهمية، نقيضاً لما كان يحلم ويتوقع. وكان يحاول، في الوقت عينه، أن يحرر حزبه من تحمل التبِعات السيئة التي ارتبطت بالحرب وبآلياتها. وحين انتهت الحرب، بتوقيع اتفاق الطائف الذائع الصيت، كان جورج صاحب المبادرة في طرح فكرة المصالحة على اللبنانيين بين فرقاء الجبهتين المتقاتلتين. وهي كانت مصالحة تهدف إلى الخروج من منطق الحرب إلى الحوار بين المختلفين بوسائل ديمقراطية، حتى ولو تباعدت مواقف المتحاورين في البحث عن مستقبل أفضل للبنان، كل من وجهة نظره. ورغم أن حلفاء الحزب في الحركة الوطنية اعترضوا على تلك المبادرة، فقد نظم الحزب مهرجاناً شعبياً كبيراً في أواخر عام ١٩٩٠، بمشاركة قوى سياسية مختلفة في مقدمتها تلك القوى التي كانت خلال الحرب الأهلية في موقع الخصم السياسي للحزب وللحركة الوطنية المتحالفة مع المقاومة الفلسطينية. وفي أعقاب ذلك المهرجان الذي شارك فيه ممثلون للقوات اللبنانية ولحزب الكتائب ولحزب الأحرار، بادر جورج إلى إجراء لقاء مع سمير جعجع قبل اعتقاله. وطالب مرات عديدة بالإفراج عنه بعد أن اعتقل. وكان هدفه في ذلك التحول من الصراع بالسلاح إلى التنافس بالديمقراطية بين المختلفين.

جدير بالذكر هنا أن الحزب الشيوعي، بقيادة أمينه العام جورج حاوي، رفض، رغم التهديدات التي وجهت إليه وإلى الحزب من قِبل القيادة السورية،

الانخراط في كل الحروب التي قادتها القيادة السورية ضد الفلسطينيين في حرب المخيمات، وضد حزب اللّه في حربه مع حركة أمل. وكان موقف الحزب ذاك في رفض الدخول في تلك الحروب موقفاً مبدئياً. كما اتخذ الحزب، بمبادرة من جورج حاوي، قراراً في اجتماع خاص للجنة المركزية أدان فيه مشاركة قوات سورية في «حرب تحرير الكويت» تحت القيادة العسكرية الأميركية. وسبق ذلك أن خاض الحزب الشيوعي مع الحزب التقدمي الاشتراكي معركة تحرير بيروت من سيطرة حركة أمل عليها، في مطلع عام ١٩٨٧، رغم معارضة قوية من القيادة السورية. وقد أدّت جميع تلك المواجهات مع القيادة السورية، مباشرة وبالواسطة، خلال الحرب الأهلية إلى اتخاذ موقف عدائي من قِبل القيادة السورية تجاه الحزب الشيوعي، تمثل ببذل كل الجهد من أجل تحجيم الحزب في المرحلة التي سبقت وأعقبت توقيع اتفاق الطائف وبداية الوصاية السورية على لبنان.

ومعروف، في هذا الإطار، الموقف الذي اتُّخِذ لمنع تمثيل الحزب الشيوعي في المجلس النيابي بالتعيين، لاستكمال الطابع التمثيلي لذلك المجلس المحدد له منذ ١٩٧٢. ولا بدّ هنا من توضيح ما جرى حول ذلك الموضوع، منعاً لكل التباس، ووضعاً للأمور في نِصابها. يومها جرى نقاش واسع في قيادة الحزب حول فكرة المشاركة في عملية التعيين. وبرزت آراء ترفض الفكرة من حيث المبدأ. إلا أن اللجنة المركزية للحزب عادت فوافقت على الفكرة وأقرّت بإجماع الأصوات، إلا صوت جورج تحديداً، العمل لكي يكون جورج تحديداً هو ممثل الحزب في المجلس مع قادة الأحزاب الأخرى الذين كان يجري العمل لضمّهم إلى المجلس النيابي. كان رأي جورج في اعتراضه على قرار اللجنة المركزية أن اسمه غير مقبول، مقترحاً الياس الهبر، رئيس الاتحاد الوطني للنقابات كمرشّح لذلك الموقع. وحين أصرّت اللجنة المركزية على قرارها شكّلنا فريق عمل من أجل تحقيق ذلك الهدف. وكلّفتني قيادة الحزب العمل مع محسن دلول ومروان

حمادة لتأمين النجاح في مهمتنا تلك، من خلال الاتصال بالسوريين وببعض اللبنانيين أصحاب النفوذ في عملية التعيين. وكان مفترضاً أن أذهب مع محسن ومروان إلى دمشق لمقابلة المسؤولين. لكنني أُبلغت أن الزيارة تأجلت. ثم أُبلغنا بعد ذلك أن هناك صعوبات في تحقيق تعيين جورج. ولما كان جورج قد بدأ العمل في ذلك الاتجاه، فقد وجد نفسه مضطراً، كما قال، لأن يعمل بكل ما في وسعه في خوض معركة معروفة نتائجها. وقاده ذلك إلى ارتكاب أخطاء في نشاطه، فسّره بعض الرفاق يومها بأن جورج كان يخوض معركة شخصية لا علاقة للحزب بها. وهو موقف غير صحيح ومتعسّف يستهدف الإساءة إلى جورج.

إلاّ أنّ الموقف الأكثر شجاعة عند جورج كان موقفه من انهيار الاتحاد السوفياتي. فقد أعلن بثقة أن المسؤول عن الانهيار هو جملة الأخطاء والخطايا التي كانت في جوهر السياسة السوفياتية في تطبيق الاشتراكية، تلك السياسة التي كانت تبتعد تباعاً عن جوهر فكر ماركس وعن منهجه المادي الجدلي وعن مشروعه الاشتراكي لتغيير العالم. وكانت تتعامل، بالمقابل، مع بعض مفاهيمه القديمة كعقيدة جامدة، غير قابلة للجدل، محصّنة ضد التجديد الذي هو شرط من شروط ماركس في مشروعه الأساسي. لكن جورج كان، وهو يعلن ذلك، على اقتناع كان يزداد رسوخاً عنده بأنّ المشروع الاشتراكي ذاته قد أصبح بحاجة إلى تغيير جوهري في صيغته وفي المفاهيم المتصلة بتحقيقه. فالظروف التي يجتازها العالم اليوم، وهي مختلفة جوهرياً عمّا كان يتصوّره ماركس قبل مئة وخمسين عاماً، تتطلب فهماً جديداً وصياغة جديدة وأفقاً جديداً للاشتراكية، كتعبير عن حلم البشرية بعالم جديد خالٍ من الاستغلال والقهر، عالم قادر على استخدام منجزات العلم الكبرى لصالح سعادة الإنسان وتحرره وتقدمه.

إلا أن جورج، في مرحلة تولّيه موقع الأمين العام للحزب، أسوة بكل الزعماء، كان حريصاً على ممارسة دور الزعيم. وكان ذلك يدعوه أحياناً إلى اتخاذ مواقف سياسية بشكل منفرد، مختلفة عن المواقف السياسية المقرّة في

هيئات الحزب القيادية. وكنا ننتقده. لكنه كان مع ذلك يكثر من تلك المواقف. وبهذا المعنى فقد كان يحمل أمراض نظرائه من الزعماء في أحزابهم وفي بلدانهم. إلا أنه كان كثيراً ما يمارس النقد الذاتي بجرأة قلّ نظيرها. وهو ما كان يختلف فيه عن الزعماء الآخرين وحتى عن بعض رفاقه في قيادة الحزب.

في عام ١٩٩٢ انعقد المؤتمر السادس للحزب. وكانت قد بدأت تنخر جسم الحزب، لا سيما داخل القيادة، خلافات فكرية وسياسية وتنظيمية وحتى شخصية. لكن المؤتمر، مع ذلك، عُقد بنجاح. وكان مؤتمراً للنقاش الصريح في كل القضايا. وأقرت فيه وثيقة جديدة، طُرحت فيها، إلى جانب بدايات مراجعة نقدية لمرحلة الحرب الأهلية ولسياسات الحزب فيها، أفكار جديدة تتصل بفكر الحزب وبخططه السياسية لمرحلة ما بعد الحرب الأهلية، ولما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. وانتخبت قيادة جديدة. وجُدّد لجورج حاوي في موقع الأمانة العامة، وانتُخب فاروق دحروج نائباً للأمين العام. لكن جورج كان قد قرر بحزم مغادرة ذلك الموقع بعد انتهاء المؤتمر. وكان قد حاول أن يستقيل من موقع الأمانة العامة خلال التحضير للمؤتمر وفي فترة انعقاده، ورفضت محاولاته. لكنه أخبرني بعد انتهاء أعمال المؤتمر أنه سيختار الوقت الضروري لإعلان ذلك، فحاولت إقناعه بالعدول عن الفكرة نظراً لما سيحدثه ذلك من نتائج سلبية على الحزب. إلا أنه أصرّ على موقفه وحدد الوقت لإعلان استقالته في أعقاب الانتخابات النيابية التي جرت في عام ١٩٩٢. وفي الواقع فقد خلّفت استقالته خسائر سياسية، وخلافات داخل القيادة. وسرعان ما دخل الحزب في أزمة.

لقد كان اختيار جورج تلك الفترة بالذات التي أعقبت انعقاد المؤتمر السادس للحزب لإعلان استقالته من الأمانة العامة اختياراً واعياً، بالنسبة إليه. لكنه لم يكن اختياراً محسوباً من قِبله بالدقة التي كان يفترض بقائد مثله أن يراعيها. وكان يرتكب في قراره ذاك واحداً من الأخطاء الفادحة التي كان يحدّد حجمَها حجمُ

الموقع الذي كان هو فيه. غير أنه كان يعتبر، في حينه، كما برّر موقفه في رسالة الاستقالة وفي سلسلة من المقالات البالغة الأهمية، أن واقع الحزب الشيوعي، لاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، قد جعل الشيوعيين المنضوين في صفوفه والمناصرين له أسرى الانتماء إلى الصيغة القديمة للحزب وللاشتراكية معاً. واعتبر، في الوقت ذاته، أن تقدّم الفكر لدى بعض قادة الحزب ليس كافياً لإحداث التغيير المطلوب وفق ما كان يراه هو بوضوح في شروط العصر وتحوّلاته، ولا كان ذلك التقدم قادراً على تحقيق ذلك التغيير، الذي كانت ظروف العصر، وظروف بلادنا، تقتضي إحداثه. لكنه عاد، بعد بضعة أعوام من استقالته من موقع الأمين العام، إلى مراجعة موقفه. واعتبر أنه كان من الخطأ ترك الحزب يواجه مصيره بعفوية، وسط الأعاصير والزلازل التي كانت قد بدأت تهز العالم من أقصاه إلى أقصاه، والتي كان من نتائجها وقوع كل الحركة الشيوعية في جميع البلدان في أزمة عميقة وطويلة. وهي الأزمة التي طاولت الحزب الشيوعي اللبناني ذاته، والتي عمقتها، في عهد الوصاية السورية بعد اتفاق الطائف، الأساليب التي استخدمت لتحجيم الحزب ولتدفيعه ثمن استقلاليته التاريخية. وهي الاستقلالية التي لم تُعطِّل مفاعيلها السياسة الشديدة المرونة التي اتبعها الحزب إزاء جميع القوى الداخلية والخارجية، بما في ذلك ما يتعلق بالمرونة في النقد الذي كان يوجّهه الحزب إلى القيادة السورية وإلى سياساتها التي كانت تتخذ طابع تدمير منظّم للعلاقات التاريخية بين البلدين والشعبين. واعتبر جورج أن استقالته، في صيغتها وفي توقيتها، كانت خطأً سياسياً كبيراً من قِبله. واعتبر كذلك أن مواقف بعض رفاقه ممن كانوا شركاء له في عملية التغيير الأولى في منتصف ستينيّات القرن الماضي، تلك العملية التي تمثلت بانعقاد المؤتمر الثاني (١٩٦٨) وبقراراته التاريخية، كانت أيضاً خاطئة في التعامل مع أزمة الحزب. الأمر الذي جعل هذه الأزمة تتعمق إلى الحد الذي باتت فيه مستعصية على الحل. لكن جورج مع ذلك ظل يتابع، في السنوات اللاحقة من عمره وحتى

هيئات الحزب القيادية. وكنا ننتقده. لكنه كان مع ذلك يكثر من تلك المواقف. وبهذا المعنى فقد كان يحمل أمراض نظرائه من الزعماء في أحزابهم وفي بلدانهم. إلا أنه كان كثيراً ما يمارس النقد الذاتي بجرأة قلّ نظيرها. وهو ما كان يختلف فيه عن الزعماء الآخرين وحتى عن بعض رفاقه في قيادة الحزب.

في عام ١٩٩٢ انعقد المؤتمر السادس للحزب. وكانت قد بدأت تنخر جسم الحزب، لا سيما داخل القيادة، خلافات فكرية وسياسية وتنظيمية وحتى شخصية. لكن المؤتمر، مع ذلك، عُقد بنجاح. وكان مؤتمراً للنقاش الصريح في كل القضايا. وأقرت فيه وثيقة جديدة، طُرحت فيها، إلى جانب بدايات مراجعة نقدية لمرحلة الحرب الأهلية ولسياسات الحزب فيها، أفكار جديدة تتصل بفكر الحزب وبخططه السياسية لمرحلة ما بعد الحرب الأهلية، ولما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. وانتخبت قيادة جديدة. وجُدّد لجورج حاوي في موقع الأمانة العامة، وانتُخب فاروق دحروج نائباً للأمين العام. لكن جورج كان قد قرر بحزم مغادرة ذلك الموقع بعد انتهاء المؤتمر. وكان قد حاول أن يستقيل من موقع الأمانة العامة خلال التحضير للمؤتمر وفي فترة انعقاده ، ورفضت محاولاته. لكنه أخبرني بعد انتهاء أعمال المؤتمر أنه سيختار الوقت الضروري لإعلان ذلك، فحاولت إقناعه بالعدول عن الفكرة نظراً لما سيحدثه ذلك من نتائج سلبية على الحزب. إلا أنه أصرّ على موقفه وحدد الوقت لإعلان استقالته في أعقاب الانتخابات النيابية التي جرت في عام ١٩٩٢ . وفي الواقع فقد خلّفت استقالته خسائر سياسية، وخلافات داخل القيادة. وسرعان ما دخل الحزب في أزمة.

لقد كان اختيار جورج تلك الفترة بالذات التي أعقبت انعقاد المؤتمر السادس للحزب لإعلان استقالته من الأمانة العامة اختياراً واعياً، بالنسبة إليه. لكنه لم يكن اختياراً محسوباً من قِبله بالدقة التي كان يفترض بقائد مثله أن يراعيها. وكان يرتكب في قراره ذاك واحداً من الأخطاء الفادحة التي كان يحدّد حجمَها حجمُ

الموقع الذي كان هو فيه. غير أنه كان يعتبر، في حينه، كما برّر موقفه في رسالة الاستقالة وفي سلسلة من المقالات البالغة الأهمية، أن واقع الحزب الشيوعي، لاسيما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، قد جعل الشيوعيين المنضوين في صفوفه والمناصرين له أسرى الانتماء إلى الصيغة القديمة للحزب وللاشتراكية معاً. واعتبر، في الوقت ذاته، أن تقدّم الفكر لدى بعض قادة الحزب ليس كافياً لإحداث التغيير المطلوب وفق ما كان يراه هو بوضوح في شروط العصر وتحوّلاته، ولا كان ذلك التقدم قادراً على تحقيق ذلك التغيير، الذي كانت ظروف العصر، وظروف بلادنا، تقتضي إحداثه. لكنه عاد، بعد بضعة أعوام من استقالته من موقع الأمين العام، إلى مراجعة موقفه. واعتبر أنه كان من الخطأ ترك الحزب يواجه مصيره بعفوية، وسط الأعاصير والزلازل التي كانت قد بدأت تهز العالم من أقصاه إلى أقصاه، والتي كان من نتائجها وقوع كل الحركة الشيوعية في جميع البلدان في أزمة عميقة وطويلة. وهي الأزمة التي طاولت الحزب الشيوعي اللبناني ذاته، والتي عمقتها، في عهد الوصاية السورية بعد اتفاق الطائف، الأساليب التي استخدمت لتحجيم الحزب ولتدفيعه ثمن استقلاليته التاريخية. وهي الاستقلالية التي لم تُعطّل مفاعيلها السياسة الشديدة المرونة التي اتبعها الحزب إزاء جميع القوى الداخلية والخارجية، بما في ذلك ما يتعلق بالمرونة في النقد الذي كان يوجّهه الحزب إلى القيادة السورية وإلى سياساتها التي كانت تتخذ طابع تدمير منظّم للعلاقات التاريخية بين البلدين والشعبين. واعتبر جورج أن استقالته، في صيغتها وفي توقيتها، كانت خطأً سياسياً كبيراً من قِبله. واعتبر كذلك أن مواقف بعض رفاقه ممن كانوا شركاء له في عملية التغيير الأولى في منتصف ستينيّات القرن الماضي، تلك العملية التي تمثلت بانعقاد المؤتمر الثاني (١٩٦٨) وبقراراته التاريخية، كانت أيضاً خاطئة في التعامل مع أزمة الحزب. الأمر الذي جعل هذه الأزمة تتعمق إلى الحد الذي باتت فيه مستعصية على الحل. لكن جورج مع ذلك ظل يتابع، في السنوات اللاحقة من عمره وحتى

استشهاده، مساعدته السياسية للحزب من خارج موقع القيادة. وتقدّم بأفكار جديدة. وقام بمبادرات عديدة، تمحورت جميعها حول كل ما يتصل ببلده لبنان وبسائر البلدان العربية، في اتجاه تحريره وتحريرها مما هي فيه، والانتقال به وبها إلى العصر الجديد وتحولاته. ولم يتوقف عن الحركة في دينامية نادرة المثال إلى أن امتدت إليه يد طاغية مجرمة واضعة حدًّا لحياته، ولكل ما ارتبط بها من جهد لا كلل فيه ولا ملل، ومن عطاء لا حدود له، من أجل إخراج لبنان من الوصاية السورية بصيغها المختلفة، ومن أجل تحقيق شعارات الانتفاضة التي تمت في الرابع عشر من آذار/مارس في عام ٢٠٠٥، شعارات الحرية والسيادة والاستقلال، وبناء الدولة الديمقراطية الحديثة، في وطن حقيقي هو لبنان، كجزء لا يتجزأ من العالم العربي. وكان جورج يرى بوضوح أن مستقبل العالم العربي المرتبط بالتحرر من التخلف وبالارتقاء في اتجاه التقدم إنما يتمثل بتحقيق وحدته على قاعدة الديمقراطية واحترام خصوصيات كل بلد، وعلى أساس أن مصلحة بلدانه وشعوبه هي في اتجاه ذلك المصير. وكان من أولى همومه واهتماماته في هذا الاتجاه تصحيح العلاقات اللبنانية السورية على قاعدة الاعتراف الرسمي والنهائي من قِبل القيادة السورية باستقلال لبنان، ووضع أُسس جديدة للعلاقة بين البلدين الجارين الشقيقين باحترام كل منهما لسيادة واستقلال وخصوصية البلد الآخر، والتكامل بينهما في كل ما يخدم مصلحتهما المشتركة.

لقد اغتيل جورج حاوي لأنه كان يحمل تلك الهموم والاهتمامات وكان يعمل لها بكل طاقاته، كفرد صاحب تاريخ في حزبه وفي وطنه، وكشخصية مرموقة لم يؤثّر في وزنها كون صاحبها لم يعد يحتلّ موقعاً مسؤولاً في حزبه، أو في أي حزب أو حركة أخرى. وكان قد تعرّض خلال الحرب الأهلية في المرحلة التي أعقبت إطلاق جبهة المقاومة لمحاولات اغتيال عديدة نجا منها جميعها. وكانت تلك المحاولات جزءاً من الحملة التي كان الحزب قد تعرّض لها في تلك الفترة، التي أشرت إلى عدد شهداء الحزب فيها.

كان جورج، في الأعوام الأخيرة من حياته، مهموماً بمصير الحزب الشيوعي اللبناني الذي كانت أزمته تبلغ ذروتها. وكان مهموماً بوضع اليسار عموماً. لكنه كان، وهو يتنقل من مكان إلى آخر، ومن زيارة إلى قياديين في الأحزاب والتكتلات من الاتجاهات كلها، لإيجاد صيغة توافقية تحمي البلاد من خطر الفوضى، بعد اغتيال الرئيس الحريري وخروج القوات السورية من لبنان، كان جورج يسعى، في ما يشبه الحلم أو الوهم، لتشكيل تيار سياسي يضم قوى ديمقراطية ويسارية من تيارات مختلفة، تيار يشكل أملاً، ولو بعيد المنال، لمستقبل لبنان الذي أنهكته الصراعات، والانقسامات الطائفية وحروب الآخرين على أرضه.

وكانت قد كثرت اجتهاداته التي عبّرت عنها كتاباته، والتي حرصنا جورج البطل وسمير مراد وأنا أن نضع بعضها في الكتاب الذي صدر عن دار النهار مع مقدمة لميشال إدّه. وهي كانت كتابات مهمة وتستحق أن تُقرأ اليوم وغداً. وكانت تطويراً لما كان قد عبّر عنه المؤتمر السادس للحزب في وثيقته التاريخية، التي وضعها الشيوعيون على الرفّ بعد استقالة جورج من الأمانة العامة للحزب. لذلك أرى من المفيد التذكير بالميثاق الوطني، الذي كُتب بإشراف جورج، مستوحىً من تلك الوثيقة التاريخية. وننشره ملحقاً بهذا الفصل.

ربما يكون من المفيد في نهاية هذا العرض المكثف لسيرة ومسيرة جورج حاوي، ولمسيرة الحزب الشيوعي على امتداد ما يقرب من ثلاثين عاماً، أن نذكّر الشيوعيين بأسماء الذين تم اختيارهم في مؤتمرات الحزب وفي اجتماعات لجنته المركزية إلى موقع أعضاء في المكتب السياسي، بين عام ١٩٧٢ وعام ١٩٩٢. وهم، من دون ترتيب، وفي طريقة عشوائية، لا تحسب فيها السنوات: خليل الدبس، فاروق معصراني، أحمد المير الأيوبي، جورج البطل، رهيف فياض، جوزيف بوعقل، سعد اللّه مزرعاني، الياس الهبر، فاروق دحروج ، جورج الهبر، علي العبد، محمود الواوي، سهيل طويلة، الياس عطاللّه، رفيق سمهون،

أديب بوحبيب، موريس نهرا، ماري الدبس، أحمد السيد، جورج جبران، يوسف مرتضى، حسين قاسم، فؤاد زحيل، حسين حمدان، حنا صالح، مصطفى أحمد، ملحم أبو رزق، سمير مراد، سناء أبو شقرا، جهاد شمص.

وكان قد سبق هؤلاء الرفاق إلى مواقع القيادة، بالتعيين وليس بالانتخاب في عام ١٩٦٦ في أعقاب انفصال الحزب اللبناني عن الحزب السوري كل من: نقولا شاوي، حسن قريطم، آرتين مادايان، يوسف خطار الحلو، صوايا صوايا، الياس البواري، عزيز صليبا، نديم عبد الصمد، غسان الرفاعي، خليل نعوس، جورج حاوي، كريم مروّة. وأُقصي عشية المؤتمر الثاني في عام ١٩٦٧ من المكتب السياسي كل من: حسن قريطم وصوايا صوايا، بعد أن أصرّا على موقفيهما في الاعتراض على حركة التجديد التي أدّت إلى انعقاد المؤتمر الثاني.

وقبل أن أقدّم للقراء نص الميثاق الوطني الذي أشرنا إليه، كما أُقرّ في المؤتمر السادس، أودّ أن أذكّر بأن من أكبر إنجازات الحزب التي تحققت بمبادرة ريادية من جورج حاوي في الفترة ما بين المؤتمر الخامس والمؤتمر السادس، هو ما تمثل بإنشاء إذاعة «صوت الشعب» و«تلفزيون الجديد»، قبل أن تضعف الأولى وتفقد وهجها والموقع المميز الذي احتلته خلال السنوات الأولى من إنشائها، وقبل أن تتبدد الثانية بالسياسة الخاطئة، بعد أن كانت قد أصبحت في فترة قصيرة واحدة من أولى المحطات التلفزيونية في البلاد. وفي ما يلي النص الكامل للميثاق:

مقدمة:

الحزب الشيوعي اللبناني، حزب الشعب اللبناني، نشأ عام ١٩٢٤ من صميم الحركة الوطنية التحررية الرافضة للانتداب الفرنسي وللتجزئة الاستعمارية للمشرق العربي، بالتقاء طبيعي بين مثقفين ديمقراطيين مفعمين بشعارات الحرية والعدالة والمساواة، ومتأثرين

بفكر النهضة في أوروبا، وبقيم الثورة الفرنسية ومبادئ وأفكار ثورة أكتوبر في روسيا، وبين ممثلين طليعيين للحركة العمالية الناشئة بفعل بدء انتشار الصناعة في لبنان.

وقد مثل الحزب بنشوئه، في ظروف بلادنا الملموسة، تواصلاً واستمراراً وتكميلاً لتقاليد شعبنا الثورية التي عبّرت عنها العاميات الفلاحية طوال القرن التاسع عشر، وإنجازات روّاد حركة النهضة ودورهم الخاص في يقظة القومية العربية، وفي النضال مع روّاد حركة التنوير الديني في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ضد الاستبداد والظلامية العثمانيتين.

وبحكم نشأة الحزب هذه ارتبط نشاطه ونضاله على الدوام بمسائل ثلاث:

الأولى: عروبة لبنان وحريته واستقلاله وسيادته.

الثانية: الديمقراطية بكل أشكالها وأبعادها.

الثالثة: التغيير الديمقراطي والعدالة الاجتماعية والاشتراكية.

إن تاريخ الحزب النضالي الطويل يحفل بالصفحات المشرقة التي تشعّ فيها إنجازات وتضحيات الروّاد الأوائل وأجيال متلاحقة من المناضلين الشجعان المفعمين بالحماس الثوري والتفاني ونكران الذات. وتضيء فضاء هذا التاريخ أسماء مشعّة لألوف من الشيوعيين الذين بذلوا الأرواح أو زجّوا في السجون والمعتقلات وتعرّضوا للعسف والاضطهاد والتعذيب من أجل حرية لبنان واستقلاله، ومن أجل حرية واستقلال كافة أقطار أمتنا العربية وتحقيق وحدتها، ومن أجل حقوق الإنسان في الحرية والاستقلال والتقدم في كل مكان.

وإلى جانب هذه الصفحات المشرقة وقع الحزب، في تاريخه

الطويل، بأخطاء وتعرّض لنواقص وثغرات، وقد جرى، على الدوام، السعي للكشف عنها بجرأة، خاصة عام ١٩٦٨، في أعمال المؤتمر الثاني الذي أجرى مراجعة نقدية واسعة في المنطلقات وفي الخط السياسي، وفي النهج والممارسة، فأرسى، في حينه، أُسس تجديد حقيقية أمّنت انطلاقة الحزب في العقدين المنصرمين من السنين.

ويقف الحزب الشيوعي اللبناني، اليوم، وقفة نقدية جريئة ويقوم بمراجعة شاملة. وهو إذ يأخذ من تاريخه الغني كل ما فيه من إيجابي وسليم برّرته التجربة والحياة، فإنه يعمل على التخلي عن كل ما لفظته الحياة وأثبتت التجربة خطأه وبطلانه. يقوم بهذه المراجعة الشاملة ويجري هذا النقد بملموسية استناداً إلى تجربته النضالية الطويلة وتجارب كل الحركات الثورية العاملة من أجل التغيير، وفي ضوء المهام الراهنة للعملية الثورية في لبنان والوقائع الموضوعية والخصائص الملموسة فيه، وفي ضوء أوضاع أقطار الأمة العربية ومستوى تطور الصراع العربي - الصهيوني، وسائر الصراعات المؤثرة في تطور بلادنا.

ويقوم بهذه المراجعة، أيضاً، في ضوء تحديات العصر والتغييرات الخطيرة التي نشأت في العالم واختلال موازين القوى بفعل الأزمة التي عصفت بالاتحاد السوفياتي وانهياره وانهيار كل أنظمة بلدان أوروبا الشرقية، وانتقال السلطة من يد الشيوعيين، وسقوط الصيغة التي جرى اعتبارها نموذجاً للاشتراكية.

وعلى قاعدة الالتزام بالمفهوم العلمي عن العالم والمجتمع وبالمنهج الفكري الغني لمؤسسي الاشتراكية العلمية واسترشاداً بكل تراث الفكر الثوري في العالم، وبخاصة في تراثنا الوطني والقومي،

واستلهاماً لكل التراث التقدمي للبشرية سواء ذلك الذي جاءت به الحركات الثورية الكبرى أو نادت به الأديان، يقوم الحزب الشيوعي اللبناني بصياغة مفهومه الخاص عن العملية الثورية في لبنان الذي يتفق مع واقع بلادنا والبلدان العربية والظروف الموضوعية والذاتية فيها. وعلى قاعدة هذا المفهوم الخاص يضع برنامجه ويدعو الجماهير الشعبية الواسعة، ذات المصلحة الحقيقية في التغيير الديمقراطي، إلى تبنّيه والكفاح من أجل تحقيقه.

ويناضل الحزب في وسط هذه الجماهير ومعها من أجل تحقيق برنامجه المعبّر عن مصالحها ومطالبها وطموحاتها، وهو مع هذه الجماهير وفي طليعتها في النضال من أجل إنجاز المهمات المتنوعة، من أبسطها المتعلقة بالشؤون المعيشية اليومية إلى المهمات السياسية الوطنية والقومية، إلى المهمات ذات الطابع الديمقراطي العام المتعلقة بحق هذه الجماهير الشعبية في تقرير مصيرها ومصير البلاد وإحداث التغيير الديمقراطي فيها وإقامة سلطتها المعبّرة عن مصالحها الحقيقية.

إن الحزب الشيوعي اللبناني هو حزب مستقل تمام الاستقلال، حرّ في قراره وفي تحديد خياره النظري وخطته السياسية وحياته الداخلية. وهو اتحاد طوعي بين مناضلين تعاهدوا بحرية كاملة على الكفاح من أجل مبادئ وأهداف مشتركة. ولا يقدّم الحزب الحساب إلا للشعب، ولا يعترف بوصيّ أو رقيب إلا الشعب وحده. وقرار أعضاء الحزب الجماعي يجسّده مؤتمر الحزب الذي هو الهيئة الحزبية العليا المحددة للنظرية التي يعتمدها ولبرنامجه السياسي ونظامه الداخلي.

تقوم العلاقات الداخلية في الحزب على قاعدة الديمقراطية

الفعلية والشاملة. ويُرسي الحزب القواعد التنظيمية الواضحة لتوفير الظروف التي تسمح لكل أعضائه بالمشاركة الحقيقية في مناقشة كل ما له علاقة بنظريته وفكره وبرنامجه وخطته السياسية وأوضاعه التنظيمية واتخاذ القرارات المناسبة. وهو يُرسي نفس القواعد في العلاقات بين هيئاته المختلفة.

ويؤكد الحزب على حرية إبداء الرأي المخالف ومعارضة القرار، وحق المخالف والمعارض بإعلام كل أعضاء الحزب برأيه وبسبب معارضته، ويضمن في صحافته ووسائل إعلامه المختلفة نشر جميع الآراء دون تمييز وعلى قدم المساواة. إلا أن الحزب يعتبر أن تنفيذ أعضائه للقرارات المتخذة بصورة ديمقراطية في الهيئات المختلفة وبعد الإفساح في المجال لإبداء جميع الآراء والتزام الهيئات الدنيا بتنفيذ قرارات الهيئات العليا - مع الحق بالاعتراض وتحكيم لجنة الرقابة المركزية في حال رفض الاعتراض - هما شرطان أساسيان لوحدة الحزب وللممارسة الديمقراطية في حياته الداخلية.

ويلتزم الحزب بالاقتراع السرّي في اختيار المندوبين إلى المؤتمرات المختلفة بما في ذلك المؤتمر الوطني، وفي انتخاب هيئاته المختلفة، وعلى قاعدة الترشيح الفردي.

إن المؤتمر السادس الذي انتُخب مندوبوه على هذا الأساس، وبوصفه الهيئة العليا في الحزب يحدد طبيعة الحزب ومبادئه وأهدافه ومهامه الأساسية على الوجه التالي:

أولاً - حزب القضية الوطنية اللبنانية:

إن القضية الوطنية اللبنانية تتحدد، في ظروف لبنان الراهنة،

ووفق ما أكدته التجربة خلال الحرب الأهلية بخاصة، في المبادئ الأساسية الآتية:

١- النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي لطرد قواته وعملائه من أرضنا دون قيد أو شرط. إن حزبنا الذي فجّر المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال وقدّم وما زال يقدّم في صفوفها عشرات الشهداء ومئات الأسرى، سيواصل نضاله في صفوف المقاومة وعلى جميع الأصعدة، حتى يتم طرد آخر جندي إسرائيلي محتل، وآخر عميل تابع له، عن أرضنا الطاهرة. إن حزبنا يفخر بكونه حزب المقاومة الوطنية اللبنانية الأساسي.

٢- صون الاستقلال والسيادة الوطنية وضمان تولّي قوات السلطة الشرعية وحدها مهام الأمن في جميع المناطق اللبنانية، ومهام الدفاع عن حدود الوطن. إن حزبنا الذي دافع دوماً عن الاستقلال يفخر بكونه حزب الاستقلال الحقيقي.

٣- استعادة وحدة لبنان، وإزالة كل الحواجز الداخلية المقسمة للبلاد على أساس طائفي أو مذهبي أو مناطقي أو فئوي، وتأمين عودة المهجّرين رفضاً لكل فرز طائفي. وسيبقى حزبنا حزب وحدة لبنان الحقيقية، باختراقه حواجز الطوائف والمذاهب والمناطق كلها. وفي تصدّيه للمشكلة الطائفية المعيقة لوحدة اللبنانيين الحقيقية ولتطور مجتمعهم، سوف يراعي الحزب بدقة ما تثيره الملابسات التاريخية لهذه المشكلة من تأثيرات سلبية على الوعي الجماعي لجماهير الطوائف المختلفة، وسيعمل على إحداث تغيير إيجابي في هذا الوعي على أساس من الحوار والتصارح الديمقراطي، يقودان لتعميق الوحدة.

٤- الإقرار بوحدة الكيان اللبناني واستقلاله وسيادته وبهويته وانتمائه العربيين. فالهوية والانتماء العربيان للبنان، كما أثبتت كل التجارب والأزمات والحروب الأهلية، ضمانة الاستقلال والسيادة الحقيقيين. إن الهوية والانتماء العربيين للبنان، بهذا المعنى، لا يتناقضان ولا ينفيان السمات والمميزات الخاصة للبنان التي تكوّنت عبر عملية تطور طويلة.

وعلى قاعدة هذا التقويم لهوية لبنان العربية وانتمائه القومي دعونا إلى علاقات مميزة مع سوريا. هذه العلاقات التي كرّستها معاهدة الأخوّة والتنسيق والتعاون الموقّعة بين البلدين بوصفها علاقات مميزة بين شعبين عربيين شقيقين متقاربين وبين دولتين عربيتين تربط بينهما روابط التاريخ والجغرافيا والمصالح العديدة المشتركة، وتقوم هذه العلاقات المميزة بينهما على قاعدة الإخاء والمصلحة المشتركة.

وعلى قاعدة هذا التقويم نفسه يقوم التزام لبنان بقضايا الأمة العربية وفي الطليعة منها قضية تحرير فلسطين وقضية تحقيق الوحدة العربية بين الكيانات العربية القائمة على أساس الديمقراطية وحرية الاختيار.

٥- إزالة كل مظاهر التسلط والهيمنة المعيقة للوحدة بين اللبنانيين على أساس المساواة والديمقراطية. إن الإصلاح الديمقراطي الذي يرسي النظام السياسي على قاعدتي الديمقراطية والمساواة هو طريق تعزيز الوحدة الداخلية وبالتالي صون وحدة الوطن أرضاً وشعباً ومؤسسات. إن حزبنا الشيوعي الذي ناضل ضد التسلط الفئوي والهيمنة الطائفية، وضد استبدال هيمنة طائفية

بأخرى، سيبقى يناضل من أجل الإصلاح الجذري الذي يحقق المساواة التامة بين اللبنانيين ويرسي علاقاتهم على قاعدة الديمقراطية الحقيقية والمساواة الحقيقية. ففي ذلك تعزيز للقضية الوطنية ولوحدة الشعب والمؤسسات والوطن.

ثانياً - حزب الحرية والديمقراطية:

إن الحزب الشيوعي اللبناني يؤمن بالحريات الفردية العامة إيماناً مطلقاً، دائماً، وشاملاً. فحقوق الإنسان الأساسية وحرياته الفردية ينبغي أن تصان بمعزل عن طبيعة النظام وطبيعة السلطة السياسية وعن موقع الإنسان في المجتمع وموقفه من السلطة. ويأتي في طليعة الحقوق، حق العمل، والسكن، والغذاء، والتطبيب، والاستشفاء، وتحصيل العلم والثقافة، وحق الأمومة وضمان الشيخوخة... وحق المرأة في المساواة التامة مع الرجل وكل حقوق المواطنية المتساوية أمام القانون مع مراعاة الخصائص المميزة للمرأة وتوفير الضمانات لكي لا تكون هذه المساواة مجرد مساواة شكلية.

ويأتي أيضاً في طليعة الحريات الأساسية حرية المعتقد، والفكر، والرأي، والقول، والتعبير، والنشر، والإعلام، وممارسة العبادة، والشعائر الدينية، وحرمة المنزل، واحترام العادات والتقاليد والخصائص والمميزات، والفن والثقافة والإبداع الفني والثقافي وحرية التنظيم النقابي والحزبي وحرية الإضراب والتظاهر، وحرية المعارضة وانتقاد السلطة والعمل على إسقاطها بالوسائل السياسية وباحترام القواعد الديمقراطية.

ويؤمن الحزب الشيوعي اللبناني بالترابط الكامل بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية، ويرفض تفضيل إحداهما على

الأخرى بأية حجة من الحجج. فلا ديمقراطية اجتماعية حقيقية بدون ديمقراطية سياسية وحريات فردية وعامة. وفي المقابل إن المستوى الفعلي للحريات السياسية وللديمقراطية السياسية إنما يحدده مدى تطور الديمقراطية الاجتماعية في المجتمع.

وإذ يقوِّم الحزب الشيوعي اللبناني تقويماً إيجابياً التعديلات الدستورية التي أُقرّت نتيجة لاتفاق الطائف لكونها تهدف إلى محاولة إحلال مساواة طائفية مع إقرار مبدأ إلغاء الطائفية، فهو يعتبر أن التطور الديمقراطي للبلاد يتطلب الإسراع في إلغاء الطائفية إلغاء كاملاً في جميع مجالات الثقافة والممارسة السياسية والإدارية وفي كل مؤسسات الدولة لإقامة مجتمع المساواة الفعلي في الحقوق والواجبات بين اللبنانيين بمعزل عن انتمائهم الطائفي أو المذهبي أو المناطقي أو موقعهم في المجتمع. إن إلغاء الطائفية، واعتماد نظام علماني ديمقراطي، وبناء كل مقوّمات المجتمع المدني هما طريق استعادة وحدة لبنان الحقيقية.

إن الديمقراطية في لبنان تتطلب تعديلاً حقيقياً لقانون الانتخاب يعتمد على النسبية والدائرة الوطنية الواحدة والبطاقة الانتخابية، والاقتراع في موقع السكن، وإعطاء حق الانتخاب لمن أكملوا الثامنة عشرة.

كما تتطلب الديمقراطية إصلاحاً للإدارة والقضاء، وإعادة بناء القوات المسلحة من جيش وأمن داخلي على قاعدة عقيدة عسكرية وطنية تبعد القوات المسلحة عن الممارسات السياسية اليومية، وتمنع تحوّلها إلى أداة قمع للديمقراطية والشعب، أو وسيلة لسيطرة طائفية أو طبقية، وتضعها في الموقع الذي يجب أن تكون فيه، موقع الدفاع عن الوطن وحماية الاستقلال والسيادة وصيانة الديمقراطية.

إن الحزب الشيوعي اللبناني يحترم حرية الفكر والرأي والعقيدة والمبدأ، بما في ذلك حرية الرأي المخالف لرأيه والفكر المناقض لفكره والعقيدة المواجهة لعقيدته والمبدأ المتعارض مع مبادئه.

والحزب الشيوعي اللبناني يؤكد احترامه للأديان وللمؤمنين بها ولحرية الإيمان والعبادة. وهو ليس حزباً ملحداً ولا يعمل على نشر الإلحاد ولا يتخذ الإلحاد له عقيدة ومبدأ. فالإيمان والإلحاد قضية تتعلق بالإنسان الفرد وليس بالحزب السياسي. وللإنسان الفرد حريته الكاملة في هذا المجال. أما الحزب فهو اتحاد حر يضم في صفوفه مؤمنين وملحدين يلتقون حول برنامج سياسي ومهام نضالية. والحزب يتمثل ما في الأديان من قيم إنسانية وأخلاقية ويستخدمها في وجه الطبقات والفئات والقوى الرجعية المستغلة التي تحاول استغلال الدين خدمة لأهدافها المعادية للشعب وهو يدعو إلى الابتعاد عن مظاهر التعصب الديني والطائفي وكل عوامل التفرقة في المجتمع.

إن الحزب الشيوعي اللبناني هو حزب الحرية الحقيقية والديمقراطية الفعلية والمساواة التامة.

والحزب يعمل على تجميع كل القوى التقدمية و الديمقراطية في النضال من أجل الأهداف المشتركة. لقد شكل الحزب باستمرار أحد الأركان الرئيسية للعمل الوطني. ولعب دوراً بارزاً في قيام ونضال الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة الشهيد كمال جنبلاط. كما كان مؤسساً لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية ومشاركاً في كل صيغ العمل الوطني اللاحق. ويتمسك الحزب بهذا التراث الجبهوي ويحرص على تجديده وتطويره على أسس جديدة ومبادئ جديدة وصيغ جديدة.

ثالثاً – حزب الاشتراكية والعدالة الاجتماعية:

يؤكد الحزب إدانته للنظام الرأسمالي المبني على استثمار الإنسان للإنسان واستعباد الشعوب الأخرى وزيادة الفوارق الاجتماعية والتسبّب بالحرب والعدوان. ويرى الحزب أن النظام الرأسمالي اللبناني ذا السمة الطائفية والبنية السياسية المتخلفة قد أدّى إلى التفريط بالاستقلال والتضحية بالسيادة والتسبّب بالاحتلال وتمزيق وحدة الشعب وإفقار أكثرية اللبنانيين ودفعهم إلى المجاعة.

لقد اتصف النظام الرأسمالي اللبناني، منذ الاستقلال، وما يزال، بظاهرة الفساد والرشوة وتحكّم المافيات، وبتسلّط بضع عائلات وأقلّية ضئيلة على القرار السياسي والاستئثار بالقسم الأكبر من الداخل.

إن الحزب يؤكد التزامه بالاشتراكية كنظام يهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ويعمل على تحقيق المساواة بين الناس وعلى إشاعة العدل والحرية والسعادة. إلا أنه يعلن تمايزه عن التجربة التي تحققت في بناء الاشتراكية ويؤكد رفضه للنموذج الذي جرى اعتماده مثالاً للاشتراكية ولكل نموذج وصيغة محددة، ويتمسك بحقه في اختيار طريقه الخاص إلى الاشتراكية ورؤيته الخاصة للمجتمع الاشتراكي.

ويعمل الحزب على تطوير مفهومه الخاص الذي أرساه في المؤتمر الثالث عن الاشتراكية في لبنان، المنسجمة مع ظروف بلادنا وخصائصها وتقاليدها.

ويرفض الحزب المفهوم المبتذل الذي يجعل الاشتراكية تعني نزع الملكية ليحل محله المفهوم الصحيح عن جعل كل أفراد الشعب

مالكين لوسائل الإنتاج واحترام تعدد أنماط الإنتاج في الاشتراكية واعتماد أشكال جديدة ملائمة من العلاقة بين آليّات السوق وبين آليّات التخطيط على تركيز دور الدولة على التوجيه، والتنسيق، والترشيد، والتشجيع في الميدان الاقتصادي بهدف تطوير الإنتاج ورفع مستوى الحياة والرفاهية للشعب، وتنظيم وتأمين رعاية الخدمات العامة والاجتماعية والحرص على تطوير القوانين الاجتماعية، وإدارة القطاع العام تحت رقابة شعبية، وتأمين حماية الاقتصاد الوطني وعقد الاتفاقات الخارجية المؤاتية لذلك.

ويرى الحزب أن الاشتراكية ليست نظاماً يبصر النور بين ليلة وضحاها، ويصبح ناجزاً ومتكاملاً في وقت من الأوقات. إنها عملية طويلة ومعقدة تتنامى فيها عناصر الاشتراكية وتبقى سعياً دائماً إلى التقدم، وموضع صراع مستمر بين الإنسان وقوى الطبيعة من جهة، وداخل المجتمع من جهة أخرى، ضد قوى الاحتكار والاستغلال والفساد والتسلط.

ويطرح الحزب تصوّراً للانتقال إلى المجتمع الاشتراكي في لبنان يستند في خطوطه العريضة إلى سبعة أركان ينبغي احترامها وحسن التنسيق بينها وهي:

١- زيادة كمّية ونوعية في الإنتاج وفي الدخل الوطني وفق خطة اقتصادية تعتمد تكاملاً بين مختلف القطاعات، وخاصة القطاعات المنتجة سعياً وراء التخفيف التدريجي من التبعية.

٢- زيادة مطّردة في الطابع الاجتماعي للملكية.

٣- نظام ضريبي تصاعدي عادل لإعادة توزيع الثروة.

٤- سياسة عادلة للأجور مربوطة بتكاليف المعيشة ومقترنة

بضمانات اجتماعية متطورة في مجال ديمومة العمل، والتطبيب والاستشفاء والسكن، والتعليم، والثقافة، والضمانات العائلية، والأمومة، والشيخوخة، ونهاية الخدمة والراحة، والتكوين المهني.

٥- خدمات عامة متطورة وعصرية في مجال النقل والمواصلات والاتصالات والكهرباء والحدائق والساحات العامة... والتنظيم المدني. ووفق توزيع وطني عادل يخفف من الفوراق بين المدينة والقرية، وبين المركز والأطراف، ويولي عناية خاصة بالمناطق النائية التي تشكو من التخلف والحرمان.

٦- الحفاظ على البيئة وصيانتها واتخاذ التدابير لدرء ما يهددها من أخطار.

٧- إلى هذه الأركان الاقتصادية والاجتماعية يضاف العامل الأساسي المتمثل بطبيعة السلطة المعبّرة عن تحالف القوى المؤمنة بالتحويل الاشتراكي للمجتمع، وذات السمة الديمقراطية التي تقوم من جهة على أوسع مشاركة شعبية ومن جهة أخرى على ضمان حرية المعارضة، والحريات والحقوق الأساسية للفرد وللجماعة.

ويرى الحزب أن الاشتراكية في لبنان يجب أن تؤمّن المساواة الكاملة بين المواطنين في الحقوق والواجبات بغضّ النظر عن انتمائهم الديني أو الطائفي أو الاجتماعي وكذلك المساواة الكاملة بين المرأة والرجل، مع اهتمام خاص بالطفولة، وعناية بالشباب لفتح آفاق العلم والعمل والثقافة والتقدم أمامهم. كما يرى الحزب أن الاشتراكية اللبنانية ينبغي أن تسمح بأفضل نموّ وازدهار للثقافة الوطنية والقومية المبدعة، وذات السمة الإنسانية، التي تستند إلى تراثنا الغني والإيجابي للمساهمة في صنع الحضارة العصرية.

ويؤكد الحزب على الأهمية الخاصة التي تحتلها مسألة تطور

العلوم والتكنولوجيا والأبحاث العلمية لمحاولة اللحاق بالثورة العلمية التكنولوجية الهائلة التي يشهدها عصرنا، مع ما يتطلبه ذلك من تطوير للجامعة اللبنانية ولمراكز البحوث، وتشجيع للعلم والعلماء وللمبدعين والمخترعين ولوسائط ووسائل الإنتاج.

ميثاق اقتصادي - اجتماعي:

على طريق النضال من أجل الاشتراكية كهدف استراتيجي يقترح الحزب في المرحلة الراهنة برنامجاً متكاملاً للنهوض بالاقتصاد الوطني المأزوم وبالوضع الاقتصادي المتدهور بعد خروج البلاد من الحرب الأهلية، ومن أجل معالجة آثار هذه الحرب. ويستند برنامج الحزب النضالي في هذا المجال إلى فكرة النضال من أجل عقد ميثاق اقتصادي-اجتماعي يتم التوصل إليه نتيجة حوار مسؤول بين مختلف الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية، وبين الأحزاب والحركات السياسية، تحت إشراف السلطة الشرعية الإجرائية والتشريعية، حيث ينبغي أن تتحوّل بنود هذا الميثاق إلى قرارات وقوانين ملموسة.

وينطلق الميثاق الاقتصادي - الاجتماعي من رفض تحميل نتائج الحرب للفئات الكادحة وضرورة تحمُّل كل طبقات وفئات المجتمع اللبناني وزر الأزمة وأعباءها وليس الطبقة العاملة والأجراء فقط. ينبغي أن يتحمل الرأسماليون، والأغنياء، والدولة، الحصة الأساسية من الأعباء، فيجري ضمان ديمومة العمل، ويوضع حد للتسريحات، ويجري ربط الأجر بتكاليف المعيشة من جهة، وبالتقديمات الاجتماعية من جهة ثانية، وبالخدمات الاجتماعية من جهة ثالثة، كالسعي لحل مشكلة النقل ومشكلة السكن والتعليم

والتطبيب وتطوير الضمان الصحي والاجتماعي. . . الخ. وسوى ذلك من المطالب التي يطرحها الاتحاد العمالي العام والمؤتمرات الشعبية في المناطق، والتي يتبناها حزبنا ويدعو إلى النضال من أجل تحقيقها.

ويرى حزبنا أن الميثاق الاقتصادي - الاجتماعي يمكن أن يعالج الرساميل التي هاجرت لتعود إلى التوظيف في الاقتصاد الوطني مع الضمانات الضرورية لذلك، كما يرى إمكانية الاستفادة من القروض والمساعدات الخارجية، ومن الرساميل الأجنبية لهذا الغرض، على أن يجري توظيف هذه المساعدات والقروض، وتلك الرساميل، في مشروع محدد، متكامل، للتنمية الاقتصادية-الاجتماعية المتوازنة.

كما يمكن للميثاق أن يعالج سُبل تنشيط الاقتصاد وتأمين الظروف الملائمة لوقف نزيف الهجرة والسعي لإعادة الكفاءات الاقتصادية والعلمية والفنية والعمالية والاختصاصية الأخرى التي هاجرت في السنوات الأخيرة، وذلك من خلال إعادة توحيد سوق العمل وتأمين حركة عوامل الإنتاج فيه، وإقرار سلّم جديد للرتب والرواتب يؤمن مستوى كريماً للموظفين والمستخدمين، ويرفع من فعالية الإدارة.

ويرى الحزب أن الميثاق الاقتصادي-الاجتماعي ينبغي أن يركز على إعادة تأهيل وتشغيل المرافق العامة، كالماء والكهرباء وشبكة الطرقات والمرافئ. . وحل مسألة النظافة، والنفايات.

ويرى الحزب كذلك مسألة إعادة إعمار المناطق المهدمة، ووضع خطة لإعادة المهجرين في إطار مصالحة وطنية شاملة، ووضع خطة إنماء للمناطق المتضررة من الحرب الأهلية، وبخاصة العدوان الإسرائيلي المتمادي.

ويرى الحزب أن الميثاق الاقتصادي-الاجتماعي يمكن أن يحدد سُبل النهوض بالتعليم من وضعه المتردي وبخاصة إنقاذ التعليم الرسمي وتأمين كافة مستلزماته من أبنية و ترميم ما تهدّم من مدارس، وتأمين الأساتذة الأكفاء وتأهيلهم وتوزيعهم بصورة عقلانية ومجدية في جميع المناطق ، والعمل من أجل ضمان جميع الشروط لفتح إمكانيات التعليم أمام جميع الأطفال اللبنانيين. إن إعادة بناء كل نظام التعليم الرسمي هو القاعدة الأساسية لسياسة التربية والتعليم المستقبلية. وإلى جانب ذلك لا بد من تركيز الجهود لمعالجة مسألة ارتفاع تكاليف التعليم الخاص وإعادة رفع مستوى التعليم كله من الانحدار الذي وصل إليه، وضمان توحيد المناهج والكتاب المدرسي وبخاصة مناهج التاريخ والتنشئة الوطنية.

وسيترتّب على الميثاق الاقتصادي والاجتماعي أن يضع كذلك أُسساً لمعالجة مشكلة السكن، والإيجارات والتطبيب وتطوير المستشفيات الحكومية، والضمان الصحي، ودور المستشفيات الصحية والاجتماعية والانسانية، وكيفية الاستخدام العقلاني والمنزّه للمساعدات العربية والدولية في هذا المجال. . .

ولا شك أن مسألة محاربة الفساد والرشوة ووقف هدر أموال الدولة يجب أن تكون موضع اهتمام رئيسي من خلال البحث بإصلاح إداري من جهة وبزيادة رواتب الموظفين ومستخدمي الدولة والقطاع العام والجيش والأمن والإدراة من جهة أخرى، وضوابط رادعة من جهة ثالثة، مع تطبيق قانون «من أين لك هذا؟» لمحاربة الكسب غير المشروع.

وسيحتل قسماً هاماً من بنود الميثاق الاقتصادي-الاجتماعي

تشجيع القطاع التعاوني في الاستهلاك وفي الصناعة والزراعة وقطاع الخدمات. . .

وسيكون بين أهم مسائل الميثاق الاقتصادي-الاجتماعي مسألة التنسيق والتكامل بين لبنان وسوريا في مجال التنمية الاقتصادية والخدمات العامة، وتطوير الاقتصاد، مع مراعاة خصوصيات الوضع في كل من البلدين. كذلك مسألة السوق الاقتصادية العربية الموحدة، والاتفاقيات الاقتصادية مع الخارج.

إن النضال من أجل حلول عاقلة وعادلة لجميع المسائل المتعلقة بالنهوض من الأزمة الاقتصادية وإعادة إعمار البلاد وحل الأزمات الاجتماعية المتفاقمة يشكّل أحد الأركان الرئيسية لنضال حزبنا. وهو يستند في هذا النضال إلى الحركة الشعبية، وإلى المنظمات النقابية والديمقراطية، وبخاصة إلى الاتحاد العمالي العام الذي يؤكد دعمه له ويحرص على وحدته ودوره. ويولي أهمية خاصة للمنظمات الممثلة للعاملين في الزراعة، ولمنظمات النساء والشباب والطلاب والأندية الثقافية والاجتماعية والرياضية، ولنقابات المهن الحرة، كنقابات الصحافة والمحررين والمحامين والأطباء وأطباء الأسنان والمهندسين ونقابات وجمعيات ونواد واتحادات الكتاب والفنانين والمثقفين، واتحادات النساء والمؤسسات الاجتماعية المختلفة. . .

ويرى الحزب في هذه المنظمات أُطراً نضالية تمثيلية يحترم استقلالها التنظيمي والإداري احتراماً كاملاً ويعمل معها من أجل تحقيق الأهداف المشتركة.

رابعاً - حزب العروبة والوحدة العربية:

من أجل حركة ثورية عربية جديدة، من أجل الوحدة القومية:

يؤمن الحزب بأن العرب يشكلون أمة واحدة بحكم التطور الموضوعي. وينطلق من الحق المشروع لهذه الأمة، الموزعة على كيانات سياسية متباينة، ومتناقضة أحياناً، في استكمال التحرر واسترجاع ما اغتصب من أرضها، وفي تحقيق وحدتها القومية، وفي صون أمنها الاستراتيجي، بدءاً من الأمن الغذائي وصولاً إلى أمنها العسكري. كما يؤمن بحقها في السيطرة على خيراتها ومواردها الطبيعية الغنية، وفي استثمارها وفق خطة قومية شاملة للتطوير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي المطّرد، بما يؤدّي إلى تحقيق التنمية والتكامل والتقدم الاجتماعي في الأقطار العربية. لا أن تبقى هذه الثروات في قبضة حفنة من الحكام الذين يتصرفون بها وفق أهوائهم وأغراضهم السياسية والشخصية.

ويرى الحزب أن تأمين تحقيق هذه الأهداف يتطلب النضال من أجل إشاعة الديمقراطية إلى أوسع نطاق في النظم السياسية والحياة العامة في كل البلدان العربية.

ويرى الحزب أن الوحدة العربية تشكل السلاح الأمضى في يد الأمة العربية من أجل الدفاع عن نفسها ومن أجل تحقيق أهدافها وسط المتغيرات الدولية الراهنة، وأمام تحديات العصر. ويناضل الحزب من أجل قيام الوحدة العربية، بهذا المنحى، بكل إمكاناته، ووفق أية صيغة ممكنة سواء بين قُطرين أو أكثر ويرى الحزب أن النجاح في تحقيق الوحدة العربية مرتبط بتطور تاريخي داخل كل قطر عربي بحيث يتمكن الشعب أن يختار، على أساس ديمقراطي، حرّ، وطوعي، طريق الوحدة وشكلها وأطرها. فالوحدة ليست إلحاقاً أو ضماً أو قهراً أو تسلّطاً. والوحدة تتنافى في قيامها، وفي نجاحها، مع كل أشكال التمييز الديني أو الطائفي أو العنصري أو القطري أو

الفئوي. وينبغي أن تحترم الوحدة، كما نراها، المميزات والخصائص الوطنية لكل قُطر، وتحترم، الأقلّيات القومية والدينية في أقطار الأمة العربية، وتقوم على الفهم الصحيح للعلاقة بين القومي والقطري.

والحزب الشيوعي اللبناني الذي نشأ حزباً واحداً للشيوعيين في لبنان وسوريا، يؤمن بالارتباط المصيري للشعبين في القطرين التوأمين ويعمل من أجل علاقات أخوية قومية موثقة ومبرمجة.

ويدعم الحزب نضال الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضته الباسلة وثورته، وحقه في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته الوطنية المستقلة فوق جميع أراضيه المحررة.

ويناضل الحزب من أجل تضامن عربي حقيقي في النضال ضد الإمبريالية والصهيونية. ويعتبر أن النضال ضد هؤلاء الأعداء هو معركة قومية وخاصة معركة تحرير فلسطين والكفاح من أجل تحقيق الوحدة العربية.

ويدعم الحزب التزامه بأهداف حركة التحرر الوطني لأمتنا العربية، ويدعو إلى إخراج هذه الحركة من أزمتها وإلى قيام حركة ثورية عربية جديدة قادرة على تحقيق أهداف الأمة في التحرر والوحدة القومية وتحقيق الديمقراطية واستعادة ثرواتها القومية وتحقيق العدالة الاجتماعية وصنع التقدم.

خامساً- من أجل عالم يسوده السلم والحرية والمساواة:

يجدّد الحزب تعلّقه بسلام العالم وأمنه، ورغبته في أن يعيش الناس، والدول، في عالم منزوع السلاح، محرّم فيه تخزين السلاح النووي وإنتاجه واستخدامه. وكذلك سائر أنواع أسلحة الإبادة

الجماعية. ويؤيّد الحزب كل عمل أو سياسة تهدف إلى الانفراج وتمنع ما يهدد السلم العالمي وإلى حلول عادلة للخلافات الدولية والمشاكل الإقليمية عن طريق المفاوضات على أساس حق الشعوب في تقرير مصيرها. ويرى ضرورة تغليب المسائل ذات السمة الدولية والإنسانية العامة على المسائل الخاصة أو النظرة الفئوية. فعندما يكون وجود البشرية مهدداً تتراجع المسائل الأخرى إلى المؤخرة. إن عوامل كثيرة في عالمنا أنضجت إمكانيات تحقيق مثل هذه الطموحات. وثمة قوى اجتماعية هائلة في جميع القارات، ودول عديدة لها مصلحة في ذلك، إذا ما اتحدت. ويبدي الحزب أشد القلق حيال الخلل الحاصل في نسبة القوى العالمية نتيجة انهيار الاتحاد السوفياتي والبلدان المسماة اشتراكية سابقاً. ويرى خطر المنحى الأميركي للهيمنة على مقدّرات العالم باستخدام العدوان والتهديد وأشكال الضغط المختلفة، والتصرف على أساس إقامة نظام عالمي جديد يستجيب للمصالح الإمبريالية الأميركية على النطاق العالمي، بدل دفع النظام العالمي في طريق تطوير أسس علاقات دولية أكثر ديمقراطية. إن هذا الخطر يتهدد مصالح شعوب العالم قاطبة، ويرى الحزب أن النظام العالمي الجديد لا بد أن يقوم على أسس احترام الاستقلال، والسيادة والحرية لكل شعب وبلد، على أسس المساواة والعدل والكرامة الإنسانية.

وإذ يدعو الحزب الدول العربية للاستفادة من المتغيرات الدولية المتجلية في بروز تكتلات اقتصادية إقليمية جديدة (وحدة ألمانيا، الوحدة الأوروبية، اليابان...) والتعاطي معها من موقع المصالح المشتركة، فهو يدعو إلى أوسع تضامن بين شعوب وبلدان العالم الثالث، وبينها وبين قوى التقدم في أوروبا وأميركا الشمالية واليابان،

ومن أجل الوقوف في وجه الغطرسة الأميركية، ومن أجل الدفاع عن الحرية وعن الاستقلال الوطني للشعوب، ومن أجل صون السلم العالمي، وحل مسألة التبعية والديون ومواجهة مشكلة المجاعة والتصحّر والتخلّف المتزايد.

لقد انتهى شكل من أشكال الحرب الباردة، الحرب الباردة بين معسكرين، وبالتالي انتهى الشكل السابق للتضامن الأممي وبرزت الحاجة اليوم إلى تضامن أممي من نوع جديد منسجم مع الأشكال الجديدة التي تتخذها الحرب الباردة حيناً، والساخنة أحياناً في مناطق مختلفة من العالم، تضامن أممي يتسع لفئات اجتماعية عديدة في جميع أنحاء العالم تلتقي مصالحها على مهام ذات طابع ديمقراطي وإنساني عام، ويضم دولاً وبلداناً تتعارض مصالحها، جزئياً أو كلياً، اقتصادياً وسياسياً مع الإطار والمواصفات التي تضعها الولايات المتحدة للنظام العالمي الجديد التي تسعى لبنائه.

إن حزبنا الشيوعي اللبناني سيعزز نضاله من أجل تضامن أممي من نوع جديد، كمحصّلة لنضال شعوب العالم وحركاتها التحررية وقواها الساعية إلى السلم والحرية والمساواة.

خاتمة

إن الانتماء إلى الحزب الشيوعي اللبناني يعني الانتماء إلى هذه الطليعة الواعية، المناضلة من أجل انتصار القضية الوطنية اللبنانية، من أجل الديمقراطية، من أجل العدالة الاجتماعية، من أجل الوحدة العربية، ومن أجل عالم يسوده السلم والحرية والمساواة. طليعة يتلازم في نضالها سمو الأهداف مع الوسائل، وتحارب الفساد وانحطاط القيم محاربتها للاستغلال والظلم.

وفي الحزب، يحقق أنصار هذه المبادئ ذاتهم، ويشعرون بالاعتزاز لكونهم من صنّاع التقدم، ولكونهم أحراراً، ومتساوين في اتحاد اختياري، رأيهم مسموع، ودورهم مقرر وكرامتهم مصانة. إن الالتزام بالحزب على هذا الأساس الديمقراطي هو أعلى وأسمى درجات الالتزام، نقيضاً للالتزام الطائفي والمذهبي والعشائري والمناطقي والفئوي والمصلحي، المقزّم للإنسان والمحتقر لإرادته الحرة، والمعبّر عن تخلّف حضاري يأباه اللبنانيون الحريصون على الانتماء إلى العصر.

إن التجديد الراهن في نظرية الحزب، ونهجه السياسي، وطبيعته، وتنظيمه، وقيادته، هو زخم جديد يضاف إلى الزخم المتراكم في تاريخه النضالي الطويل الحافل بالبطولات، والمغتني بلائحة من أسماء الشهداء الأبطال، والأسرى في سجون العدو الإسرائيلي الذين يشكلون نموذجاً للتفاني من أجل قضية الوطن والأمة والإنسان.

إن الانتماء إلى الحزب الشيوعي اللبناني، يعني المساهمة بشكل أفضل في انتصار قضية الوطن، وسعادة الإنسان.

جورج حاوي هو في تاريخ لبنان جزء مضيء فيه. وإضاءته ستظل راسخة في وعي اللبنانيين، يساريين وديمقراطيين ووطنيين مهما اختلفت اتجاهاتهم ومعتقداتهم وأفكارهم ومشاريعهم للبنان. وهو، بهذا المعنى، مكمل رسالة ثلاثة من كبار الشخصيات التاريخية في الحزب الشيوعي ، فؤاد الشمالي المؤسس الذي تخلّى عنه رفاقه وطردوه من صفوفهم وتركوه يموت جوعاً، وفرج الله الحلو القائد الشيوعي الشهيد، ونقولا شاوي صاحب المدرسة التجديدية في الحزب.

ليس هذا الكلام عن جورج حاوي تمجيداً أو تعظيماً لشخص كبير بقدر ما هو نوع من الإضاءة على مسيرة مناضل قدم حياته مثل ما فعل آخرون كبار قبله وبعده، من أجل حرية بلده ومن أجل تقدمه وازدهاره، ومن أجل سعادة شعبه، تحت شعار الشيوعيين القديم: وطن حر وشعب سعيد.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

صدر للمؤلِّف

- **الحزب الشيوعي اللبناني: سياساته وأهدافه**، ١٩٦٩. (وزّع مع جريدة «المحرر اللبنانية»).
- **ماذا بعد حرب تشرين (١٩٧٣)؟**، دار الفارابي، ١٩٧٤.
- **كيف نواجه الأزمة في حركة التحرر الوطني العربية**، دار الفارابي، ١٩٧٤.
- **المقاومة**، أفكار للنقاش حول الجذور والتجربة والآفاق، قدّم له جورج حاوي، طبعة أولى وثانية وثالثة، دار الفارابي، ١٩٨٥.
- **حوارات**، مفكرون عرب يناقشون كريم مروّة في القومية والاشتراكية والديمقراطية والدِّين والتراث والثورة، طبعة أولى وطبعة ثانية، دار الفارابي، ١٩٩٠.
- **جدل الصراع مع إسرائيل وجدل السلام معها**، دار الفارابي، ١٩٩٤.
- **الوطن الصعب.. الدولة المستحيلة**، حوارات بين كريم مروّة وكريم بقرادوني، ساقها ودوَّنها طانيوس دعَيبس، دار الجديد، ١٩٩٥.
- **حوار الإيديولوجيات بين أفكار ماركسية وأفكار دينية**، دار الفارابي، ١٩٩٧.
- **من ذاكرتي الفلسطينية**، ١٩٩٨. (كتاب نشر في مجلة الطريق في العدد الخاص المكرَّس للذكرى الخمسين لنكبة فلسطين).
- **نحو جمهورية ثالثة**، طبعة أولى وطبعة ثانية، دار الفارابي، ٢٠٠١.

- **كريم مروّة يتذكّر في ما يشبه السيرة**، حاوره صقر أبو فخر، طبعة أولى وطبعة ثانية، دار المدى، ٢٠٠٢.
- **عشية أفول الأمبراطورية**، أسئلة حول موقعنا في عالم الغد، دار الفارابي، ٢٠٠٣.
- **جورج حاوي**، مواقف القائد وشهادات الرفاق، بالاشتراك مع جورج البطل وسمير مراد وتقديم ميشال إدة، دار النهار، ٢٠٠٥.
- **الفكر العربي وتحوّلا ت العصر**، رؤى وأفكار من وجهات نظر ماركسية مختلفة بمشاركة ١٦ مفكراً عربياً، قدّم له جورج البطل، دار الفارابي، ٢٠٠٦.
- **أزمة النظام العربي وإشكاليات النهضة**، (وقائع ندوة برلين تكريماً للشهيد جورج حاوي)، بالاشتراك مع برهان غليون وماهر الشريف وجيلبير الأشقر، دار الانتشار العربي، ٢٠٠٦.
- **الظاهرة العراقية**، قدم له فالح عبد الجبار، دار المدى، ٢٠٠٧. (وزّع مع جريدتي «المدى» و«الاتحاد» العراقيتين).
- صدر له بالفرنسية (بالاشتراك مع سمير أمين وتقديم جورج لابيكا) كتاب: **Communisme dans le Monde Arabe** عـــن دار Le temps des cerises، ٢٠٠٦.

«... حين شرعتُ في الكتابة عن القائد الشيوعي فرج الله الحلو، أولاً، ثم عن القائدين الشيوعيين نقولا شاوي وجورج حاوي، وجدت نفسي مشدوداً للكتابة عن قائد آخر للحزب هو فؤاد الشمالي، المؤسّس الأول للحزب، الذي مات مظلوماً من رفاقه، مقهوراً، ومنسياً، لولا أن أعاد التذكير به محمد دكروب في سفره المهمّ عن تأسيس الحزب، «جذور السنديانة الحمراء». وهكذا دخلت، بالصدفة، في عملية استذكار لتاريخ هؤلاء القادة الكبار من شيوعيي بلدي لبنان. وهو تاريخ يشكّل، في جزء مهم منه، بالنسبة إليّ، تاريخ حياتي كشيوعي منذ ستين عاماً...

من هنا، بالتحديد، ولدت فكرة تحويل هذه الكتابة عن القادة الأربعة الكبار في تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني إلى كتاب يقدّم للقارئ فكرة عامّة وضرورية عن الحِقبة التي ولدت فيها وتطوّرت الحركة الشيوعية في لبنان.»

كريم مروة مفكّر سياسي ماركسي. انتمى إلى الشيوعية منذ شبابه المبكر. انتخب إلى مراكز قيادية في الحزب الشيوعي اللبناني، وتسلّم مسؤوليات حزبية متعدّدة على امتداد أربعين عاماً. تفرّغ للكتابة بعد تقاعده عن العمل السياسي اليومي الملتزم. تتميّز كتاباته بالنقد والنقد الذاتي. تشغله التحوّلات الكبرى التي يشهدها العالم، والبحث الدائم عن الطريق المؤدّي إلى مستقبل أفضل لبلده لبنان ولسائر البلدان العربية.






ISBN 978-1-85516-327-0
9 781855 163270